دعوة الحق

(١٣ : ١٤ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) .
قرآن كريم

تأليف

عبد الرحمن الوكيل

وكيل جماعة أنصار السنة المحمدية

١٣٧١ — ١٩٥٢

ت ٧٩٠١٧

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

« مقدمة الكتاب »

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، فسبحانك رب العالمين ! إياك نعبد ، و إياك نستعين ، و بك نؤمن ، وعليك نتوكل ، و بذكرك يارب تطمئن منا القلوب .

وأشهد أن خاتم الأنبياء والمرسلين ، و إمام المتقين المهتدين المجاهدين عبد الله ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه ورحمته و بركاته عليه وعلى آله المؤمنين ، الذين اتبعوه باحسان إلى يوم الدين . لقد كان صلى الله عليه وسلم مع الله ، فكان الله معه . وكان ـ إذا ما ادلهمت الخطوب ، ورجفت حوله الدنيا بالملمات ، وأغرى به الشيطان كل جبار عنيد ـ يعوذ بنور وجه الله الذى أشرقت له الظلمات ، فإذا بالخطوب بشائر رحمة ، و إذا بالملمات مجالى خير ونعمة ، و إذا بكل جبار طاغية ينشد منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ العفو والأمان .

واصغ بالقلب إلى مناجاة الرسول ربَّه ـ وقد أعرض عنه الناس ، ونبذت دعوته ممن أمَّل أن يجد عندهم مجابا ، من بنى ثقيف : فكانوا عليه إلباً أشد من قريش ـ « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟! إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ » ثم تتجلى نفس الرسول فى إشراقها الأعظم ، فترسل النجوى هدى ونورا و يقينا و إيمانا ، كأنما تعتذر بها عن تلك اللحظة الهافية الآسية التى استشعرت فيها ضعفا وهوانا ، فيقول صلى الله عليه وسلم « إن لم يكن بك سخط عَلَىَّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل

على غضبك ، أو أن ينزل بى سخطك ، لك العُتبى حتى ترضى . ولاحول ولاقوة إلا بك »فأية نفس فى الوجود أصفى إيمانا ، وأسمى يقينا ، وأجل ثقة ، وأعظم حبا لله : من هذه النفس التى حَيَّت عن بينة لله ، وعاشت للجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ؟ ! فصل اللهم وسلم على عبدك الكريم ورسولك محمد الصادق الأمين .

« و بعد » فهذا كتاب أبتغى به وجه الله الكريم ، وما أنتصر فيه إلا لدعوة الحق مشرقة الجلال والهدى والنور والبرهان من كتاب الله الحق ، وسنة رسوله الحق . و إنى أقدمه للمسلمين فى كل قطر بعامَّةٍ ، وللجماعات الدينية فى مصر بخاصة ، أناشدهم فيه اللياذ بالحق ، والتوحد الكامل الشامل تحت راية القرآن ، والاعتصام بالكتاب والسنة فى الدين والحياة ، مذكرا إياهم بما هدى إليه الله ورسوله من الحق ، و إلى صراط مستقيم .

و إنى لأضرع إلى الله سبحانه أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يكون هذا الكتاب شعاع نور فى هذه الظلمة الساجية ، و إسفار صبح لهذا الليل الرهيب . حتى يتجلى الحق واضحا ، وتنقشع ظلمات الجاهلية التى أركست الناس ، فقعدوا صاغرين .

وما كان فى الكتاب من هدى وحق فمن الله و بتوفيق من الله ، وما كان فيه من غير ذلك فمنى وأستغفر الله منه ، ولا أزعم لنفسى — و بالله أعوذ — أننى أديت الواجب ، بل حاولت أن أؤديه مستعيناً بالله ، متوكلا عليه ، مهتدياً بهداه . و إنى لأناشد كل مسلم ، وكل جماعة دينية أن يأخذوا من هذا الكتاب ماذكرتهم به من آيات الله ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عافين عما قد يكون فيه من أسلوب ألهبه الحماس ، وأججت لظاه الحمية لدين الله ، وأن يُقَوِّموا مافيه — بعد ذلك — بالعدل والحق وروح الإيمان ، لا بالعصبية والحمية للأسماء ، أو تراث الشيوخ والآباء . إنها دعوة يقول صاحبها و يؤمن أنها حق ، ولله .

فانظروا فيها ـ عادلين مؤمنين ـ على ضوء الهدى من الكتاب والسنة ، فإن رأيتموها كما يقول ويؤمن فقولوا لها كلمة منصفة عادلة ، تؤيدون بها الحق فى هذا العصر الذى استعلن فيه الباطل ، واستظهر الظلم ، ورُمى دين الله الحق بكل فرية ، وكل بهتان زنيم .

وإن رأيتم فى الكتاب ما تحسبونه منكراً ، فتعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، تعالوا إلى الكتاب والسنة نحتكم إليهما ، كما أمرنا الله الحكيم الخبير (٤ : ٥٩ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) وما أتعصب لقولى ، ولكن أقول لكم (٣٤ : ٢٤ وإنا أو إياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين) فهل أنتم فاعلون ؟

والله وحده العليم بما أضنيت به النفس فى سبيل هذا الكتاب ، مُكِبًّا ـ وقد شارف السَّحَر ـ على كتاب الله ، عاكفاً عليه بالفكر والروح ، أستهديه وأستلهمه الحق والهدى ، وعلى الصحاح من كتب السنة ، أستمد منها ماتواتر صدقه ويقينه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاهياً عن حق فَلْذَتَيْ كبدى ولدىَّ « راوية وياسر[1] » وهما فى طفولة بريئة تأبى إلا أن تستبد بكل لحظة من حياة والدهما ، فى حين يستبد هذا الكتاب بلياليه وأسحاره ، وكادا يغلبان ، لولا أن قيض الله لى من هذه النفس المشرقة الطيبة عوناً كريماً على إتمام تأليف الكتاب إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت ، وإليه أنيب .

القاهرة : فى سحر ٢٢ من ربيع الأول سنة ١٣٧١ **عبد الرحمن الوكيل**

٢١ من ديسمبر سنة ١٩٥١ وكيل جماعة أنصار السنة المحمدية

---

(١) من الله سبحانه علينا بهذا الوليد الحبيب ونحن نعمل فى الكتاب فكان أجمل جزاء ، وثواب دعاء ، أضرع إلى الله أن يبارك فيه ، وفى شقيقته العصفورة الجميلة « راوية » .

التوحيد

عبادة الله وحده لا شريك له : هى الحكمة الإلهية العليا من خلق الوجود (٥١ : ٥٧ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وملاك العبادة وغايتها وروحها : توحيد الله جل شأنه ، رسالة كل رسول ، ونبوة كل نبى ، ودعوة كل ولى صادق الولاية لله رب العالمين .

والتوحيد نوعان : توحيد لله فى الربوبية ، وتوحيد لله فى الألوهية ، وهما دين الإسلام . يهديك إلى حقيقة النوع الأول : سورة (الإخلاص) وإلى الثانى سورة (الكافرون) . ولا بد فى توحيد الربوبية من أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسله إثباتا ونفياً ، فيثبت المؤمن الموحد لله ما أثبته سبحانه لنفسه ، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه ، بلا تشبيه ولا تمثيل ، ولا تكييف ولا تعطيل ولا بد فى توحيد الألوهية من أمرين : أن يُعبد الله وحده لا شريك له وأن لا يُعبد سبحانه إلا بما شرعه فى صدق الخشية ، وطهر التقوى ، والاقتداء الخالص

توحيد الصفات

وصف الله ـ سبحانه ، وتعالى ـ نفسه بصفات ، وسمى نفسه ـ جل شأنه ـ بأسماء ، وأخبر عن نفسه ـ تعالت قدرته ـ بأفعال . وأنه ليس كمثله شىء ، ولا سمى له ، ولم يكن له كفواً أحد . أخبر سبحانه أن له علما (٢ : ٢٥٥ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) (٤ : ١٦٦ لكن الله يشهد بما أنزل إليك . أنزله بعلمه) وأن له صفة هى الحياة (٢٥ : ٥٨ وتوكل على الحى الذى لا يموت ، وسبح بحمده) (٢٠ : ١١١ وعنت الوجوه للحى[1] القيوم) وصفة هى القوة (٥١ : ٥٨ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (٤١ : ١٥ أو لم يروا أن

---

(١) الحى: إسم مشتق من صفة هى الحياة. فيجب إثبات الاسم والصفة، وإلا =

الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) (٥٨ : ٢١ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى[1] عزيز) وصفة هى الكلام (٧ : ١٤٤ يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) (٩ : ٦ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه) وصفة هى القدرة (٢ : ١٤٨ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ، إن الله على كل شىء قدير) (٥ : ٤٠ يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، والله على كل شىء قدير) وفى حديث الاستخارة « اللهم إنى أستخيرك[2] بعلمك ، وأستقدرك[3] بقدرتك »[4] وصفة هى الإرادة (٢ : ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر)(٣٦ : ٨٢ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون) (٨٥ : ١٦ ذو العرش المجيد ، فعّال

= لم تكن لأسمائه سبحانه دلالة على مدح أو كمال ، وإلا كانت أسماؤه ألفاظا ليس لها معان تدل عليها . فتكون كالأعلام الجامدة ، أو الأسماء التى تطلق على مسمياتها دون نظر إلى معان قائمة بها ، وبسببها أطلقت عليها هذه الأسماء ، كما إذا سمينا شخصا بإبراهيم ، فليس لهذا العلم اشتقاق ، وكما إذا سمينا شخصا بمحمود . دون نظر إلى ما يحمد فيه ، وبسببه سميناه محمودا . وجل جلال الله أن تكون أسماؤه كذلك ، والذين يرون فى أسماء الله ذلك : إنما هم ماديون ، يمثلون أسماء الله بأسماء خلقه ، إذ يرون أعلام وأسماء المسميات لادلالة لها على معان خاصة ، فجعلوا أسماء الله كهذه الأعلام . وهذا هو الإلحاد فى أسمائه الحسنى سبحانه ، وكثيرا ما يخبر الله عن أسمائه بمصادرها ويصف بها نفسه . وهذا دليل قوى على التلازم التام بين أسمائه وصفاته .

(١) سمى نفسه بالقوى ، والقوى مشتق من صفة هى « القوة » وقد وصف الله نفسه « بالقوة » كما ترى فى الآيتين الكريمتين ، وهكذا تدل الصفة على الاسم ، ويدل الاسم على الصفة ، ويؤكد لك هذا ماقلته قبل : أن الله يخبر عن أسمائه بمصادرها ويصف نفسه بها ، كما ترى فى هذه الآيات . (٢) اختر لى الخير فيما هممت به . (٣) أسألك هبة الخير والقدرة عليه . (٤) رواه البخارى وأبو داود وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة من حديث جابر .

لما يريد[١]) وصفة هى السمع (٢ : ١٢٧ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وفى الحديث الذى رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات » (٥ : ٧٦ قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ، ولا نفعا ، والله هو السميع[٢] العليم ؟ !) وصفة هى البصر (٣١ : ٢٨ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير) ويقول عليه الصلاة والسلام فيما روى البخارى : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل ، وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات[٣] وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وأخبر سبحانه أن له وجها (٥٥ : ٢٧ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وفى الحديث السابق ذكر « سبحات وجهه » .

وفيما روى البخارى، ومسلم قال عليه الصلاة والسلام « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم و بين أن ينظروا إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » وأن له يدين (٣٨ : ٧٥ قال يا إبليس ، مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟[٤]) (٥ : ٦٤ يداه مبسوطتان

---

(١) فعل يدل على ذات وعلى صفة . يدل على المريد ، وعلى صفة صدر عنها الفعل هى الإرادة ، فلا يجوز القول بأنه مريد بلا إرادة ، أو سميع بلا سمع ، أو بصير بلا بصر ، كما يزعم المعطلة . (٢) أسماء الله يراد بها معانيها : والاسم المراد معناه يدل بالتطابق على الذات والصفة معا ، وبالتضمن على كل منهما منفردا ، وبالالتزام على غيره من الأسماء ، فالسميع دال على ذات هى ذات الله ، وعلى صفة هى السمع ، وعلى غيرها من الصفات كالحياة والإرادة والقدرة وغيرها . (٣) جلاله وعظمته وأنواره . (٤) تأمل فى أسلوب الآية الرفيع . ففعل الخلق منسوب إلى الله ، وقد ذكر بعد خلقت مايتعلق به وهو بيدى هكذا بالباء واليد المثناة ، فذكر الفعل وما يتعلق بالفعل ، وتثنية اليد يؤكد تماما أن : المجاز لا يمكن احتماله هنا مطلقا ، ومثل هذا قوله سبحانه (والسموات مطويات بيمينه) فوجب إثبات ما تعلق بالفعل وهو « اليدين » فى الأولى « واليمين » فى الثانية .

ينفق كيف يشاء) وفى دعاء الاستفتاح الذى رواه مسلم وأحمد والترمذى وغيرهم « لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك ، والشر ليس إليك » وأخبر جل شأنه بأن له يمينا (٣٩ : ٦٧ والسموات مطويات بيمينه) ويقول عليه الصلاة والسلام فيما روى البخارى ومسلم « يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كلتا يدى الله يمين « المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن — وكلتا يديه يمين — الذين يعدلون فى حكمهم ، وأهليهم وما ولوا » رواه مسلم . وأثبت سبحانه الفوقية لذاته العلية (٦ : ١٨ ، ٦١ وهو القاهر فوق عباده) وقال عليه الصلاة والسلام « لما قضى الله الخلق ، كتب فى كتاب — فهو عنده فوق العرش — رحمتى سبقت غضبى » ويقول سبحانه (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم [١] ويفعلون مايؤمرون) وأخبر سبحانه أنه « استوى على عرشه » وقد ورد ذلك فى سبع آيات من القرآن نذكرها — إن شاء الله — بعد ، وأخبر أنه مع الصابرين ، والمتقين ، والمحسنين ، وأنه يحب ، ويكره ، ويرضى ، ويغضب ، وأنه يجىء يوم القيامة ، وينزل إلى سماء الدنيا ، وأنه — سبحانه — سوى يُرَى [٢] ، هذا كله أخبر به الله سبحانه ، وبغيره فى القرآن الذى أنزله الله على رسوله الأمين ليبلغ به رسالة الله إلى العرب والعجم ، إلى الأحمر والأسود ، إلى العالم كله جِنِّه ، وإنسه .

---

(١) وردت لفظة « فوق » فى القرآن مطلقة بدون حرف « من » كما فى الآيتين السابقتين ، ووردت مقرونة بمن فى هذه الآية ووروودها فى الآية مقرونة بهذا الحرف نص على أنها فوقية ذات لا فوقية رتبة . فهذه لاتأتى مقرونة بمن مطلقا ، فلا يصح أن تقول : الذهب من فوق الفضة فإذا احتملت فوقية الرتبة فى الآيتين فإنها لا تحتمل فى هذه الآية مطلقا بل لا تحتمل إلا فوقية الذات . وجل جلال الله

(٢) ليس المراد حصر كل ماورد فى الآيات عن صفات الله سبحانه .

هدى السنة فى توحيد الصفات : وصف الرسول عليه الصلاة والسلام ربه بصفاته الجليلة ، وسماه بأسمائه الحسنى ، ودعاه وذكره ، وحمده ، وأثنى عليه بها ، ووصفه بأكثر مما فى القرآن . مما أوحاه إليه ربه ، فوصفه بالنزول إلى السماء (١) الدنيا ، وأنه جل شأنه يفرح (٢) بتوبة عبده التائب ، وأن القلوب بين إصبعين (٣) من أصابع الرحمن ، وغير ذلك مما جاءت به السنة المطهرة ، ورواه العدول الثقات عن رسول الله . كما ثبت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لم يؤول شيئاً مما ورد فى القرآن عن صفات الله وأسمائه ، ولا نهى عن التكلم فيها ، أو حَمْدِ الله بها ، والثناء عليه ، فلا ورد عنه تأويل استوى باستولى ، ولا اليد بالنعمة أو القدرة ، ولا الفوقية بأنها فوقية رتبته ، ولا النزول بأنه نزول رحمته ، ولا غير ذلك مما يصطنعه المؤولة ، ولو أنه ـ عليه الصلاة والسلام ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم ـ علم من الله أن المراد بصفات الله غير ماتدل عليه ألفاظها من معان فى اللغة التى نزل بها القرآن لبادر قبل كل شىء إلى بيان ذلك ، حرصاً على هداية أمته ، وتحقيق كمال اعتقادهم فى الله سبحانه ، لاسيما وهو يعرف ـ أكثر مما يعرف غيره ـ دلالتها المقررة لها فى لغة العرب ، ويعرف أن أصحابه العرب الفصحاء يعرفون جيداً معانيها فى لغتهم التى شرفها القرآن . فهل يجوز الظن بأنه صلى الله عليه وسلم يتركهم على ما يفهمونها به من لغتهم ، وهو يعلم أنه مراد بها غير مايفهمونه فيها ؟ ! لايستطيع إنسان مسلم أن يزعم هذا فسكوته عليه الصلاة والسلام عن ذلك تقرير وتوكيد لمعانى هذه الصفات ودلالاتها .

موقف الصحابة : تواتر عن الصحابة رضوان الله عليهم إيمانهم العميق ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) ورد فى أحاديث صحيحة رواها البخارى ومسلم .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

الصادق اليقين بكل ماجاء عن الله ورسوله من صفاته وأسمائه وأفعاله ، وتواتر عنهم جميعاً أن واحدا منهم لم يؤول صفة من صفات الله تأويلا يخرج الكلام عن معناه ، أو يعطل الذات العلية عن صفاتها ، وتواتر عنهم أنهم لم يتنازعوا فى شىء منها ـ وهم الذين تنازعوا فى بعض الأحكام ، كقتال مانعى الزكاة ، وجمع آيات القرآن ، بل تنازعوا فى دفن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتواتر عنهم أن واحداً منهم لم يسأله صلى الله عليه وسلم عن شىء منها ، وهم الذين سألوه عن الأهلة ، وعن غيرها مما ليس له كبير خطر ، ولا عظيم شأن فى الدين ، حتى نهاهم الرسول ـ من كثرة ماسألوه ـ عن كثرة السؤال . وعلى هذا اليقين الثابت المطمئن : مضت عهودهم جميعاً رضوان الله عليهم . وهذا يدل دلالة قوية محكمة على أن الصحابة رضوان الله عليهم لم ير واحد منهم فى وصف الله بذلك ، ولا فى الإخبار عنه بصفاته مايمس تنزيه الله سبحانه بشائبة ، بل يدل على أنهم كانوا يرون فى الثناء على الله بصفاته ، وحمده بأسمائه أكمل مراتب التوحيد والإيمان ، ويدل على فهم الصحابة لهذه الصفات حسب ماتقرره لغة القرآن ، فسكوتهم ، وعدم تنازعهم حجة قوية على ذلك .

موقف السلف الصالح وأئمة الحديث : ننقل لك مذهب السلف فى الصفات عن رجل لُقِّبَ فى التاريخ بأنه « شيخ أهل السنة والجماعة » هو أبو الحسن الأشعرى . واخترت النقل عنه ؛ لأنه مجمع على أمانته العلمية ، وشرف اعتقاده فى الله عند خصوم السلف المقتدين به ، والجاعلين عقيدته ، وكتب تلاميذه إماما فيما يجب عليهم اعتقاده فى الله . قال الأشعرى « جملة ما عليه أهل الحديث ، والسنة ، الإقرار بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا يردون من ذلك شيئاً ، وأن الله سبحانه إله واحد فرد صمد ، لا إله غيره ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمدا عبده ، ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأن الله ـ سبحانه ـ على عرشه ،

كما قال : (٢٠ : ٥ الرحمن على العرش استوى) وأن له يدين بلا كيف ، كما قال (٣٨ : ٧٥ خلقت بيدى) وكما قال (٥ : ٦٤ بل يداه مبسوطتان) وأن له عينين بلا كيف كما قال (٥٤ : ١٤ تجرى بأعيننا) وأن له وجها ، كما قال «٥٥ : ٢٧ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ويصدقون بالأحاديث التى جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا ، فيقول : هل من مستغفر ؟ كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأخذون بالكتاب والسنة ؛ كما قال ، الله عز وجل (٤ : ٥٩ فإن تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول) ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين ، وألا يبتدعوا فى دينهم مالم يأذن به الله ، ويقرون أن الله سبحانه يجىء يوم القيامة ، كما قال : (٨٩ : ٢٢ وجاء ربك والملك صفا صفا) ، وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء ، كما قال (٥٠ : ١٦ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد[1]) هذا هو رأى سلفنا الصالح ، وهو إيمان كل موحد خالص الدين لله رب العالمين .

موقف الأشاعرة : مما سننقله لك عن هؤلاء تعلم أنهم دانوا بمذهب السلف فى الصفات ، وأنهم أقروا فى آخر ما ألفوه من كتب : بأنه الحق الذى يجب أن يدين به المسلمون ، ويلقون الله عليه ، وأعظم أئمة هذه المدرسة ـ رئيسها أبو الحسن الأشعرى ، والجوينى ، والغزالى[2] ، وكلهم أقروا بذلك ، ودعوا إليه ،

---

(١) من كتاب مقالات الإسلاميين باختصار طبع النهضة جـ ١ ص ٣٢٠ وما بعدها

(٢) أما الباقلانى فالذين نشروا له التمهيد فتنهم عن الحق رجل لا يدين إلا بالطعن على السلف ، والازدراء بكل ماهو عربى ، وتحقير من كانوا من الأئمة عربا ، وعجيب أن يخضع ناشرا الكتاب لتلبيس هذا الحاقد ـ وهما من أبناء الجامعة ، ودعاة الحرية الفكرية ، فينكران ـ بوسوسته ـ مانقله الإمام ابن تيمية عن التمهيد للباقلانى ، والذى يقرر فيه أن مذهب السلف هو الحق ، ويتهمان ابن تيمية بعدم الأمانة فى النقل ، وابن تيمية على كثرة خصومه ، وما افتروه عليه ـ لم يذكر التاريخ أن واحدا منهم اتهمه بهذه التهمة بل وضعوا جميعاً أمانته العلمية فوق كل تهمة إلا هذا الحاقد وتلميذيه اللذين نشرا الكتاب ولدينا من الصور « الفوطوغرافية » للنسخ الخطية مايثبت افتراءهم .

ولقد عنيت هنا بذكر مذهب أئمة الأشاعرة ـ ردا على الزاعمين أنهم أشاعرة ، أو خلف ، لا للاستدلال به على الحق ، فما بعد القرآن ، والسنة من دليل .

رأى الأشعرى : نقلت لك ما حكاه الأشعرى عن مذهب السلف وأئمة الحديث فى الصفات . وأنقل لك هنا ما عقب به الأشعرى على حكايته لمذهبهم « وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، وإليه نذهب » . وإليك ما ذكره عن ديانته التى بها يدين كما يعبر هو فى كتابه الإبانة الذى يمثل مرحلة التفكير الأخيرة للأشعرى « قولنا الذى به نقول وديانتنا التى ندين بها : التمسك بكتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وما روى عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ـ قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون . وجملة قولنا : أن نقر بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وما جاء من عند الله ، ومارواه الثقات عن رسول الله ، ، لانرد من ذلك شيئاً ، وأن الله إله واحدفرد صمد لا إله غيره . لم يتخذ ، صاحبة ولاولدا وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الجنة والنار حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، وأن الله استوى على عرشه ؛ كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وأن له وجهاً ؛ كماقال : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وأن له يداً ؛ كما قال : (بل يداه مبسوطتان ـ) وقال : (لما خلقت بيدى) وأن له عيناً بلا كيف ؛ كما قال : (تجرى بأعيننا) ـ إلى أن يقول الأشعرى ـ « وندين بأنه مقلب القلوب ، وأن القلوب بين إصبعين من أصابعه . . . . ونسلم ونصدق بجميع الروايات التى أثبتها أهل النقل : من النزول إلى السماء الدنيا ، وأن الرب يقول : هل من سائل ، هل من مستغفر ، ونقول : إن الله تعالى يجىء يوم القيامة ، كما قال : (وجاء ربك والملك صفا صفا) وأن الله تعالى يقرب من

عباده كيف شاء ، كما قال (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وكما قال (ثم دنا فتدلى [١] فكان قاب قوسين أو أدنى [٢]) .

هذا رأى الأشعرى . وإن استشهاده بآية (ثم دنا ، فتدلى) ليقرر لك أن الأشعرى يؤمن بالدنو والتدلى ، وأنه ـ جل شأنه ـ كان قاب قوسين ، أو أدنى من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فمارأى عشاق الأشعرى ، وخصوم السلف فى هذا ! ؟ ياللحق ينصره الله ، فَيَنْطِقُ الله به أحياناً خصومه .

رأى أبى المعالى عبدالله الجوينى : والجوينى علم كبير من أعلام مدرسة الأشاعرة إن لم يكن أعظم أعلامها ، حتى لقبوه « إمام الحرمين » . وإليك رأيه فى آخر ماألفه من كتب « اختلف مسالك العلماء فى الظواهر التى وَردت فى الكتاب والسنة ، وامتنع على أهل الحق [٣] فحواها ، وإجراؤها على موجب ماتبرزه أفهام أسباب اللسان منها ، فرأى بعضهم تأويلها ، والتزام هذا المنهج فى آى الكتاب ، وفيما صح من سنن النبى صلى الله عليه وسلم ، وذهبت أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها [٤] إلى الرب

---

(١) الذى ذهبت إليه أم المؤمنين عائشة ، وابن مسعود رضى الله عنهما أن المقصود جبريل ، وسياق الآيات يقرر هذا المعنى (علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى)

(٢) انتهى مختصرا من كتاب « تبيين كذب المفترى » لابن عساكر ص ١٥٨ وما بعدها .

(٣) لست أدرى من هم أهل الحق هؤلاء ؟ لا سيما وقد جعل القسم الثانى هم أئمة السلف . أفيريد جعل أئمة السلف من غير أهل الحق ؟ ولو أن أهل الحق هؤلاء ـ كما يسميهم الجوينى ـ وضعوا نصب عقولهم قوله تعالى (ليس كمثله شىء) لما وقعوا فى هذا الضلال .

(٤) هذا يتعارض مع ماقرره من قبل من إجراء الظواهر على مواردها ، فليست حقيقة الإجراء إلا تقرير لمعانيها وتوكيد للايمان بها . وكان أولى أن يقول : وتفويض كيفياتها . فهذا هو مذهب السلف .

سبحانه ، والذى نرتضيه رأيا ، وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة . فالأولى الاتباع ، وترك الابتداع ، وقد درج صحب النبى صلى الله عليه وسلم ، على ترك التعرض[١] لمعانيها ، ودرك مافيها ـ وهم صفوة الإسلام ...فلو كان تأويل هذه الآى والظواهر مسوغاً ، أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفرع الشريعة .... ومما أستحسن من إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، أنه سئل عن قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) فقال : « الاستواء معلوم[٢] والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » فلتجر آية الاستواء والمجىء ، وقوله : (لما خلقت بيدى ، و يبقى وجه ربك) وقوله : (تجرى بأعيننا) وما صح من أخبار الرسول عليه السلام كخبر النزول وغيره على ماذكرنا فهذا بيان مايجب لله تعالى»[٣]

وفى كلام الجوينى خَلَل يُشْعر بأن الجوينى كان ـ وهو يقرر الحق ـ خائفاً من أن يُؤْذَى به ، أو يثير ثائرة من دانوا بكتبه الأولى .

رأى الغزالى : بعد أن يتكلم عن قانون تأويله يقول «يتضح لك أن هنا مقامين أحدهما . مقام عوام الخلق ، والحق فيه : الاتباع ، والكف عن تغيير الظواهر رأساً ، والحذر عن إبداع التصريح بتأويل لم تصرح به الصحابة ، وحسم باب السؤال رأساً ، والزجر عن الخوض فى الكلام والبحث ، واتباع ما تشابه من من الكتاب والسنة ، كما روى عن عمر رضى الله عنه أنه سأله سائل عن آيتين متعارضتين ، فعلاه بالدِّرَّة[٤] ، كما روى عن مالك رحمه الله أنه سئل عن

(١) عدم تعرضهم لها دليل على إيمانهم بها ، وإجرائهم لها على ظواهرها ، وإلا لسألوا الرسول ـ وهم الذين طالما سألوه فى أشياء صغيرة .

(٢) أى معروف عند الأفهام معناه من اللغة التى نزل بها القرآن .

(٣) باختصار من كتاب العقيدة النظامية للجوينى ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) السوط أو مايضرب به « عن المصباح والقاموس » وما أحوج الرءوس اليوم إلى مثل درة عمر !!

الاستواء فقال : الاستواء معلوم ، والإيمان به واجب ، والكيفية مجهولة ، والسؤال عنه بدعة .[١]

المقام الثانى : بين النظار الذين اضطربت عقائدهم المأثورة المروية[٢] »

والغزالى إذن يجعل مذهب السلف مقام العوام ، وتوحيد الصحابة لله فى صفاته مقام العوام ، ويجعل رأى إماميه الأشعرى والجوينى من مقام العوام ، ويجعل قول مالك قول العوام ، ولست أدرى ـ إذا كان كل أولئك عوام المؤمنين فمن هم أولوا الفكر الثاقب من المؤمنين ؟؟ ثم إنه يجعل فى مقابل مقام العوام مقام المفكرين ذوى النظر . ولكنه يصف عقائدهم المروية بالاضطراب ! ! فبأى المقامين ـ ياترى ـ رضى الغزالى لنفسه ، وللمؤمنين ؟ ! إن رضينا الأول سمانا عواماً وإن رضينا الثانى ـ لنكون مفكرين ـ وصف عقائدنا بالاضطراب ! ! أترى بعد ذلك تلبيساً على الحق ، وتناقضاً واضطراباً فى الفكر ؟ ! إنه لمن الخير والهدى أن ندين بالحق ويسمينا الغزالى ـ كما سمى السلف ـ عواما ، فهذا أفضل من أن نوصف بالاضطراب فى العقيدة ، ونكون نُظَّاراً مفكرين !!

والنتيجة ؟ : مما ذكرتك به من آى القرآن ، وأحاديث الرسول الصادقة توقن أن الحق فى توحيد الله فى صفاته هو الإيمان ، والتصديق ، واليقين بكل ماجاء عن الله وبكل مارواه الثقات عن رسول الله على أن تجعل منارك فى الإيمان بهذه الصفات قوله تعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) فلا تحرف الكلم

(١) ذلك لأن الاستواء معلوم معناه بوضوح من اللغة ، فالسؤال عنه دليل شك أو ابتغاء تأويل ، وكلاهما فى الدين فساد ، وعدم سؤال الصحابة سببه أنهم كانوا يؤمنون به حقا ويفهمون جيدا معناه .

(٢) ص ٨٨ من كتاب فيصل التفرقة للغزالى فى مجموعة الجواهر الغوالى ، طبع الكردى .

عن مواضعه بالتأويل الفاسد ، ولاتعطل الذات العلية من صفاتها بل تثبت ماأثبت الله لنفسه ، وتنفى مانفاه عنها دون تكييف أو تمثيل . ذلك مادان به كل مؤمن صادق التوحيد ، وذلك ـ أيها الخلفَ ـ مادان به الأشاعرة الكبار حين فرغوا من فتون الجاه . فهل تؤمنون ؟ ! (١٢ : ١٠٤ وكَأَيِّن من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون)

الواجب على المؤمن فى توحيد الصفات : أليس من سمو الإيمان و يقينه ، وقدسية التوحيد وإشراقه : أن يكون توحيدنا لله العلى الكبير فى أسمائه وصفاته ، على هدى من كتاب الله وسنة رسوله ؟ وأن نرضى لأنفسنا فيه ماارتضاه عبدالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وما دان به أصحابه رضوان الله عليهم أجمعون ؟ وما استنار به فى الإيمان أئمة الدين المهتدون ؟ إننا بهذا نؤمن و إليه ندعو ، و به نتوسل إلى الله أن نلقاه وقلوبنا و إيماننا عليه . نؤمن بصفات الله إثباتاً وتنزيها كما ورد بها الذكر الحكيم ، وفصّلتها السنة المطهرة ، متخذين قوله تعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) نوراً نهتدى به فى فهم الظواهر الدالة عليها آيات وأحاديث الصفات ، فلا نقول : استواء كاستواء ، ولا يد كيد ، ولا وجه كوجه ، ولكن نقول : استواء الله جل وعلا . و يد الله الجواد الكريم ، ووجه الله ذو الجلال والإكرام . فمن أثبت الصفات بظواهرها ، دون أن يعصم عقيدته بالآية النافية للمثلية فهو نزّاع إلى التمثيل المتمجِّس ، ومن دان بنفى المثلية . ونفى ـ تبعاً لهذا ـ صفات الله ، فهو نزاع إلى جعل الذات عدماً . وكلا الأمرين كفر و إلحاد . نحن لا ندعو الناس إلى التمثيل ، أو التجسيم كما يفترى عدو الحق وخصومه ، ولكنا ندعوهم إلى أن يرضوا لأنفسهم ما رضيه إمام المهتدين ، وسيد المتقين ، وصفوة الأنبياء ، وخاتم المرسلين عبد الله ورسوله محمد صلى عليه وسلم ، وما اقتدى فيه بالرسول أصحابه ، ومنهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وأئمة الدين المهتدون مطمئنة إليه ـ فى صدق اليقين والإيمان ـ قلوبهم .

سكوت الرسول عن تفسيرها : يقولون : سكت الرسول عنها فلم يفسرها . وأنتم تفسرونها بظواهرها . فلم يجىء إذن عن الرسول ماتفسرونها به . وأقول : سكوته صلى الله عليه وسلم عن تفسيرها آكد فى تقرير الدلالة على معانيها وظواهرها ، وأفصح بيانا عن المراد منها . فالرسول صلى الله عليه وسلم يعلم ـ أدق وأفضل مما يعلم بلغاء العربية وفصحاؤها ـ ما لهذه الصفات والأسماء العلية من معان فى لغة العرب التى بها نزل القرآن ، ويعلم أن أصحابه ـ ومنهم عباقرة الفصاحة والبلاغة والبيان ـ يعلمون جيداً مالها من معان فى لغتهم التى يفهمون بها القرآن . فلو أنه سبحانه ـ والله أعلم ـ أوحى إلى رسوله أنه لايُراد بصفاته وأسمائه معانيها التى لها فى لغة العرب ، لفسرها عليه الصلاة والسلام لهم ، ولبين لنا الحق المراد منها . لاسيما وهو ـ مما أوحاه الله إليه ـ يعلم أن غير العرب سيدخلون فى دين الله .

ولكنه لم يفعل لأنها ليست فى حاجة إلى تفسير ، ولأن الله سبحانه لم يوح إليه ما يفسرها به ـ إذ تفسيرها بيِّن جلى من لغة القرآن وهى العربية الفصحى ـ وذلك دليل قوى على تقرير وإقرار معانيها التى لها فى لغة القرآن ، وحجة بالغة على أنه مراد بها مانفهمه فيها من لغة القرآن ، وسكوت الصحابة أنفسهم عن السؤال عنها أو عن تفسيرها دليل قوى أبلغ فى الدلالة ـ من تفسيرها ـ على معانيها ، وعلى أنهم فهموها حقاً ، فلم يحتاجوا بعد ذلك إلى السؤال عنها . وإلا لسألوا ، بل لألحفوا فى المسألة ، وهم الذين سألوا فى الدين وغيره عما هو أقل خطراً وشأناً . أفكان أمر الأهلَّة عندهم ـ ياتُرى ـ أهم من أمر العقيدة والتوحيد ؟؟ ماالعلة فى أن صحابياً واحدا لم يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الاستواء ، أو النزول ، بل عن فرح الله بتوبة عبده التائب ، بل عن أصابع (١) الرحمن وضحكه (٢) كما حدثهم رسول الله الصادق الأمين ؟ ! بل عن القَدَم (٣) يضعها الجبار ذو

(١) ورد ذكر الأصابع فى أحاديث صحيحة رواها البخارى ومسلم (٢) ورد ذكره فى أحاديث صحيحة رواها البخارى ومسلم (٣) ورد ذكرها فى أحاديث صحيحة رواها البخارى ومسلم .

العزة فى النار فتقول : قَطْ . قط ؛ كما جاء فى الحديث الصحيح . ؟ ألم يثر هذا فى نفوسهم جميعاً أو فى بعضهم ماينزع بصحابى واحد إلى سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عنه ؟ ! ألا يدل هذا السكوت الشامل عن السؤال على ذلك اليقين ، والإدراك المشرق الذى استضاءت به فهوم الصحابة وقلوبهم ؟ ألا يدل على أنهم جميعاً فهموها كما هى فى لغتهم فهما يليق بذات الحق مما ـ دون أن يختلج صدر واحد منهم بحرج ، أو يُهوِّم عليه ريب ـ وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله ؟ ألا يدل عدم تفسير واحد منهم لصفة أو شىء منها ـ لاسيما وقد دخل فى الإسلام فرس وروم ـ على أنهم كانوا جميعاً مطمئنين إلى أنها فى غير حاجة إلى تفسير ، وعلى أنهم هم والتابعين كانوا مجمعين على الإيمان الموقن بها كما وردت وكما هى فى لغة القرآن ، وكما وضحت السنة ، مهتدين فى الفهم بقوله جل وعلا (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ؟ ثم تأمل ـ خالص الإيمان والنية ـ فى هذه الآية الكريمة . ألا تراه ـ سبحانه وتقدس شأنه ـ يثبت لنفسه صفتى السمع والبصر بعد نفى المثلية ؟ ألا يؤكد لك هذا ـ ور بنا أعلم ـ أن إثبات صفاته لا يمس تنزيه الله وتقديسه ، وبأن نفى المثلية ليس معناه نفى صفاته وأسمائه ؟ ثم إن التعقيب على نفى المثلية بذكر صفتى السمع والبصر ـ لا بالحياة أو العلم ، أو القيومية مثلا ـ آكد فى الدلالة على وجوب إثبات صفاته سبحانه من التعقيب عليها بذكر صفات أخرى ، لأن السمع والبصر ألصق رحماً بالتشبيه من العلم ، والقدرة ، والقيومية . فكان إثبات هاتين الصفتين بعد نفى المثلية ـ ور بنا أعلم ـ حجة حق إلهى تصدع باطل الزاعمين أن إثبات الصفات يمس تقديس الله وتنزيهه ، و برهان قوى على أن إثبات الصفات ـ حتى التى توهم تشبيهاً ـ توحيد وإيمان . ففى قوله : (ليس كمثله شىء) رد للتشبيه والتمثيل ، وقوله : (وهو السميع البصير) رد للإلحاد والتعطيل ، فياللإعجاز فى الكتاب الإلهى ! ! بآية واحدة يهدى عقول البشر إلى حقيقة التوحيد . و يقولون : إنكم

تتحدثون بها كثيراً بين العوام والأميين ! ! وأقول : وهل نزل الله سبحانه كتابه للفلاسفة ، وسدنة الكلام ، والسادة العلماء ، ولم ينزله للأميين ؟ ! والله ياهؤلاء يقول(٦٢ : ٢ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ويقول سبحانه (٢ : ١٩٥ إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى ، من بعد مابيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون) فالرسول بعث فى الأميين ، والله نزل الهدى والبينات للناس ـ وفيهم العالم والجاهل ، والمتعلم والأمى ـ وأوجب على من يقرأون كتابه بيان مافيه للناس ، وتوعد من يكتمه باللعنة . أفتريدون إذن لعنة الله ؟ ! (٣ : ١٣٨ هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين) لم يقل للفلاسفة ولا للعلماء ، بل للناس جميعاً . إلا إذا كنتم تؤولون الناس ـ كدأبكم فى تحريف الكلم ، وإفساد معانيه ـ بأنهم الفلاسفة والأحبار ! ! ويقول (٣ : ٢٠ وقل للذين أوتو الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟) فالإسلام حق الله على الأمى والعالم يتساويان فى فرضه عليهم ووجوب القيام به ، وهل التوحيد أو الاعتقاد الحق فى الله إلا روح الإسلام ؟ وقولتكم هذه قولة اليهود (٣ : ٧٥ ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)

ويقولون : إن الحديث عن الصفات شغلكم الشاغل ، وأقول : ياظلم الباطل يأبى على الحق أن يتكلم ! ! أَوَمَنْ يُعَلِّم الناس ، ويذكرهم بآى الله ليحسنوا اعتقادهم فى الله . أو من يقوم بذلك يعاب ويلام ؟ ومن يفترون على الله الكذب يُمَجَّدُون ، وتلتهب الأكف الوثنية لهم بالتصفيق ؟ ! ونحن ياهؤلاء نفيض فى الحديث عنها حمدا وثناء على الله ، ولأنكم تقلقون بالشبهات الآثمة يقين اعتقاد المسلمين فى الله ، وتثيرون الثوائر حين تسمعون من يقول بقول الله : (الرحمن على العرش استوى) ، وتتهمون بالتجسيم من يذكِّر الناس بهدى الرسول ليسألوا الله ، ويعبدوه بدلا من الأصنام والطواغيت والقبور . يذكرهم بقول الرسول

صلى الله عليه وسلم « ينزل[1] ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير يقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » ولا نقول : نزول كنزولنا مثل ما تقترون ، ولا نزول أمر ورحمة مثل ماتقولون على الله بغير علم ، ولكنا نؤمن ونقول : بأنه نزول ربنا الله العلى الكبير.

ضلال التأويل وفساده

دخل غير العرب ـ فى الإسلام ـ رهبا أو رغبا ـ وكانت لهم ديانات وضعية ، وفلسفات وثقافات ، ومناهج خاصة فى التفكير ، وحلول انتهوا إليها لما سموه مشاكل الفكر والوجود ، وقد أوغر انتصار الإسلام صدور هؤلاء ، إذ كانت لهم دول ، وكانت لهم ممالك وكان لهم فيها جاه كبير ، فكادوا له مادياً فكان مقتل عمر ، وكانت الثورات المتأججة حقداً ورغبة فاجرة فى دك أسس الدولة الإسلامية ، ومعنويا فكانت الفتن ، والشبهات يزلزلون بها يقين عقائد المسلمين والتأويلات الفاسدة يخضعون بها آى القرآن لما ورثوه هم من عقائد ضالة ، وفلسفة وثقافة لا تمت إلى العربية بقربى ، ولما اصطنعوه من مصطلحات ليس لها مسيس رحم بلغة القرآن وحقائق معانيها ، فظهر التمثيل ، والتعطيل ، والحلولية الجهمية ، والتأويل . ولهذا الأخير خطره الداهم على العقول بعدت عن هدى القرآن ، لما يدعيه من الرغبة المُلِحَّة فى تنزيه الله سبحانه وتقديسه ، وما التأويل ـ إن استبطنت ظاهره ـ إلا تعطيل ، لأنه يأتى على أصل النص بالإبطال ، وما هو ـ إن سبرت غوره ـ إلا تمثيل مُقَنَّع بالتنزيه ، إذ يفسر الصفات بما يضعه هو من معان يستخلصها من صفات الخلق مما يشعرك بغلوها فى الحسية وإغراقها فى المماثلة ، وبهذا أفسد المؤولة على المسلمين عقائدهم ، وألبسوا الحق بالباطل ، وفهموا فى الشىء معنى نقيضه وضده . وسؤال واحد نوجهه إلى كهان التأويل . أشهد لتأويلهم

(١) رواه البخارى ومسلم .

هذا قرآن أو سنة ! أم شهدت به عقولهم ؟ أما الأول فهم لا يزعمونه . وأما الثانى فيفترونه ، ويؤمنون أن العقل يشهد بتأويلهم هذا ، والعقل عندهم حاكم على النقل « أى القرآن والسنة » كما قرر لهم أستاذهم ابن سينا فى رسالته « الأضحوية » فيجب إخضاع أصول الدين من القرآن والسنة لأحكام العقل !!

ونسائل هؤلاء : ترى هل استطاع هذا العقل الذى تؤلهونه أن يحكم على ماهيته ، أو يصف ذاته حتى تجعلوه حاكما على ما نزل الله سبحانه خالق العقول جميعاً وتركنوا إليه فيما يصف لكم به وحده خالقه الله العلى الكبير ؟ وهل من الإيمان الزعم بأن العقل لا يرضى لله ما رضيه جل شأنه لنفسه ؟ وهل من العلم البهتان بأنهم يعلمون عن صفات الله أحكم مما يعلم ويبين رسوله ؟ وأنهم يجلون الله ويقدسونه وينزهونه أعظم مما كان يفعل رسوله ؟ أليسوا بتأويلاتهم هذه يزعمون لأنفسهم ذلك وإن لم يصرحوا به ؟ يقولون : إن وصف الله بالاستواء ، والنزول والضحك وغير هذا . تلزم منه لوازم يحيلها العقل على الله سبحانه . فأقول لهم : ما زيف عليكم هذا الوهم إلا تخيلكم أن صفات الله تشبه صفات الخلق فيلزم تلك ما يلزم هذه من قيام وقعود ، وحركة مادية ، وفم ينفرج بشفتيه ، وذلك التخيل إغراق فى المادية والجسمية . فالله ـ سبحانه ـ بذاته ، وصفاته ، وأسمائه ، وأفعاله ـ لا يشبه أحدا من خلقه ، ولا يشبهه أحد من خلقه ، إذ ليس له ند ، ولا شبيه ، ولا مثيل ، ولا سمي ، ولا كفو أحد . فهو الله الخلاق العلى القدير رب السموات والأرض ، مالك الملك كله سبحانه . ثم هل كان الله سبحانه ـ وهو يصف نفسه بما وصف ـ لا يعلم تلك اللوازم التى تدعونها ؟ وهل كان رسوله الأمين غافلا عن انفراج الشفتين حينما وصف ربه بأنه يضحك ؟ إن ربنا الحكيم الخبير قرر لنا أنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ليهدى عقولنا فى فهم صفاته فلا تمثلها بصفات خلقه ؛ بأن تلتزم في فهمها ما تلتزمه فى فهم صفات خلقه . ثم أنتم تقرون أنه سبحانه عالم ، وأنه سميع ، وأنه بصير ، فلو ذهبنا نأخذ باللوازم

لاستحال علينا وصف الله سبحانه بأية صفة ، فعلمنا يسبقه جهل ، وعلمنا تسبقه المعلومات ، وعلمنا انطباعات فى الذهن ، وسمعنا بأذن لها صماخ ، و بصرنا بعين لها جفون وأهداب ، أفعلم الله ، وسمعه ، و بصره ـ وقد وصفتموه بها ـ كذلك ؟ أنتم تقولون : علمه ليس كعلمنا ، وسمعه ليس كسمعنا ، وبصره ليس كبصرنا ، «فالليسيّات» التى تعيبونها تأخذون بها أنتم . فأى ضير إذن فى أن تقولوا : استواء الله لا استواء البشر ، ونزول الله لا نزول الخلق ؟ ! إنه العناد الجحود ! ثم . هل من الحكمة أن يصف الله نفسه بصفته ثم نفهم فيه أنه يوجب علينا ألا نصفه بها ؟ ! وهل من اليقين برحمة الله ، وأنه أكمل الدين ، وأتم النعمة أن نفهم فيه أنه يتركنا فى أهم أصول الدين بين حيرة بالغة ، وضلال مبين ، أو يكلنا فى فهمها إلى الحدس ، والإلحاد ، والتهوك ؟ ! وهل من اليقين بعدل الله وحكمته الزعم بأنه أراد بصفاته غير معانيها ، ولكنه لم يبين لنا ماذا يراد بها ؟ وهل يتفق هذا كله ، أو بعض بعضه مع قوله تعالى (٥ : ٣ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا ؟) ومع قوله (١٧ : ١٢ وكل شىء فصلناه تفصيلا) ومع قوله (١٧ : ٨٢ وننزل من القرآن ما هو شفاء ، ورحمة للمؤمنين) وقوله (١٧ : ٩ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين) ، ألا إن المؤولة بتأويلاتهم هذه يزعمون أنهم أعلم بالله ـ ومايجب له ، وما يستحيل عليه ـ من الله ورسوله !! وأنهم أبر رأفة ورحمة بالمؤمنين ، وأشد حرصاً على هداهم من خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم . فإن ما أولوا به صفات الله لم يجر له ذكر أبداً على لسان الرسول ، فإما أن يكون علم ذلك وكتمه ؟ وإما أن يكون على غير علم به . وفى ذلك : إما اتهام للرسول بأنه لم يبلغ رسالة ربه ، و إما اتهام له بأنه قاصر عن إدراك ما يجب لربه ، أو جاهل به ، وكلا الكفرين ، أو أحدهما يودى بصاحبه إلى قرار سحيق من الإلحاد ، وهذه خاتمة مطاف المؤولة ، إلا من رحمه الله فتاب وآمن .

الرسول الكريم الذى وصفه الله بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم يزعم المؤولة أنه تركنا نهيم فى متاهات الحيرة ، وتيه الضلال لا ندرى كيف نصف الله !! يتهمونه بأنه بخل علينا ببيان الحق فيما يجب على المؤمن أن يعتقده فى ربه ، ويصفه به ، ويثنى عليه ويحمده ، ويدعوه ، ويتوسل إليه !! وأنه وكل ذلك إلى عقولنا القاصرة نخبط خبط عشواء ، ونهذى هذيان المخابيل !! فى حين أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة بنا ـ بينَ آداب اللباس ، والطعام والشراب ، بل آداب الخلاء والغائط !! ترى أمَنْ يعنى بما يجمِّل السلوك بزينة الآداب السامية ، يُفهِمُ فيه أنه لا يبين ما تعتصم به العقيدة ، ويكمل الدين ، ويتحقق التوحيد !! ويمكن للإيمان بالله من القلوب ؟ !

ألا إن من يزعم ذلك أشد على الدين خطرا من اليهودية . فالواجب الذى لا يتم الإيمان إلا به الاعتقاد الصادق بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحق المراد من صفات الله بما رواه عنه العدول الأئمة الثقات ، وفصله أبين وأتم وأكمل تفصيل

يريد كهان التأويل ألا يرفع البشر أيديهم إلى السماء ضارعين بالدعاء ، بل يهبطون بها إلى الأرض حيث القبور ، وحيث الجن يسكنون كما يزعمون !!. سل طفلك ـ قبل أن يتمجَّس بشبهات المؤوله ـ أن يدعو لك الله الذى يحبه ، سله أن يفعل ذلك ـ وهو على الفطرة النقية التى فطره الله عليها ـ وستراه يرفع يديه ـ بالشعور الفطرى الذى أودعه الله قلبه البرىء ـ إلى السماء ، يدعو لك ـ فى إخلاص ـ رب الأرض والسموات . سله أين الله ؟ يجبك : فى السماء ، كما أجابت الجارية المؤمنة حين سألها الرسول : أين الله يا جارية . قالت : فى[1] السماء . فقال رسول الله لصاحب الجارية : أعتقها . فإنها مؤمنة[2] .

---

(١) فى هنا بمعنى : على ، كما فى آية (٢٠ : ٧١ لأصلبنكم فى جذوع النخل) وآية (٩ : ٣ فسيحوا فى الأرض) أى عليها ، فتفيد الاستعلاء لا الظرفية الحقيقية وهى أن شيئاً داخل شىء (٢) قال الذهبي: أخرجه مسلم ، وأبو داود والنسائى وغير واحد من الأئمة فى تصانيفهم يمرونه كما جاء ولا يتعرضون له بتأويل ولا تحريف «العلو» للذهبي.

مثل من باطل التأويل : يزعمون بالتأويل الباطل الذى لا تقره لغة القرآن ، ولا العقل الرشيد ـ أن « استوى » معناها « استولى » فى قوله تعالى (٢٠ : ٥ الرحمن على العرش استوى) . . والاستيلاء لايتحقق معناه إلا عند المنع من الشيء ، ثم الظفر به . وحينئذ يقال : إن فلانا استولى على كذا إذا ظفر به بعد المنع . وهذا يفيد ـ إذا أخذنا بتأويل هؤلاء ـ أن العرش كان فى حيز شخص آخر ، ثم غالبه الإله حتى انتزعه منه . يفيد وجود إله غير الله كان العرش معه !! وجود زمان كان ملك الإله ناقصا فيه ، وكانت قدرته عاجزه ، وكان مغلوبا على أمره ، ثم واتته القدرة التى كان لا يملكها من قبل ، وانتزع بها العرش من مالكه ، أو مغتصبه ! ! لقد أبوا تفسير « استوى » بمعناها الحق المقرر لها فى لغة القرآن فرارا ـ فى زعمهم ـ مما يلزمها من لوازم الجسمية ، ولجأوا إلى تأويلها بـ « استولى » وها أنت ترى ما يلزم استولى من لوازم لا توحى بالجسمية فحسب ، بل بالعجز ، والضعف ، والنقص ، وغيرها . وما الإلحاد ـ عاتى الكفر أصم الجحود ـ إلا هذا ؛ ولذلك حين شُدِه خصوم السلف ، وخُوِّان أمانة الله ، بما يلزم استولى من لوازم كافرة ملحدة ـ زعم شيطانهم أنه يجب تجريد « استولى » من معنى المغالبة ! ! ولست أدرى بأى عقل يفكر هذا الحاقد الموتور من العرب والإسلام ؟ ! ذلك لأن استولى إذا جردت من معنى المغالبة لم يبق منها إلا حروف يلتصق بعضها ببعض دون أن يكون لها معنى ، لم يبق منها سوى « ا ، س ، ت ، و ، ل ، ى » فلا دلالة لها مجتمعة ، أو منفردة ، ولا معنى يربط فيما بينها برابط . . وإذا كانوا يجيزون تجريد « استولى » من معنى المغالبة ، أو بمعنى أدق تجريد اللفظ من معناه الذى وُضِعَ له ، فهلا آمنوا بما أخبر به الله عن نفسه ، مع تجريد أفهامهم من شبهات المماثلة ؟ ! هلا آمنوا باستواء الله على عرشه ؛ كما ورد به القرآن دون تمثيل ، أو تكييف

أو تحريف ، أو تعطيل ؟ ووالله إن استوى ـ على فرض حتى المماثلة ـ أجل عند العقل معنى ، وأزكى لوازما من « استولى » ! ! ألا إن الحق بَيِّنٌ . ولكنه الحقد يأكل القلوب فلا تصبر معه على يقين ! ! ولكنه العناد يلوى خطام العقل عن الحق والإيمان إلى الخرافة والكفران !!

هذا كله على فرض أنه يجوز فى اللغة تفسير استوى باستولى غير أن اللغة لا تجيز ذلك مطلقا ، وإليك شهادة إمام جليل من أئمة العربية الفحول هو ابن الأعرابى قال ـ وقد فسر رجل عنده استوى باستولى : ـ « مايدريك ؟ العرب لا تقول : استولى فلان على الشىء ، حتى يكون له فيه مضاد ، فأيهما غلب قيل : قد استولى عليه والله تعالى لامضاد له ، فهو على عرشه كما أخبر »

ومما يبهرجونه من زيف يموهون به على عقول تابعيهم : أن استوى ذات معان متعددة ، فأيها يا تُرى المراد فى الآية ؟ ! ويقينى أن المفترين لهذا الزيف يؤمنون فى أعماقهم بأنه تلبيس ، وتمويه .

استوى ومعانيها : استوى قد تُذكر مُطْلَقَة ، وقد تُذكر مقيدة بحرف . فإذا ذكرت مطلقة كان لها معناها الذى تختص به فى حال إطلاقها والذى يغاير معناها وهى مقيدة . كما تقول : استوى الأمر أى كمل ، وتم ، واستقام . ومنه قوله تعالى (٢٨ : ١٤ ولما بلغ أشده ، واستوى آتيناه حكما وعلما) وقد تذكر مقرونة بواو المَعِيَّة مثل « استوى الجاهل والعالم فى هذا الزمن » أى تساويا . وقد تذكر مقيدة بحرف الجر « إلى » مثل استوى إلى الهرم . أى قصد إليه علوا وارتفاعا . ومنه قوله تعالى (٤١ : ١١ ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وقد تذكر مقيدة بحرف الجر « على » مثل : استوى على ظهر الجواد ، فيكون معناها العلو ، والارتفاع ، والاعتدال ، ولا يتغير معناها هذا فى أى وضع مطلقا مادامت مقترنة مقيدة بحرف الجر « على » . فدعوى تعدد معانيها تصدق إذا لاحظناها مطلقة ، ومقيدة بقيود مختلفة ، ولكنها تكذب كذبا جريئا إذا

ما كانت كلمة استوى مقيدة بقيد خاص مثل «على» فإنها بهذا القيد لا يكون لها إلا معنى واحد فحسب . هو ماقدمت لك . ولنتتبعها مقترنة بهذا الحرف فى بعض آى القرآن : يخبرنا الله عن فلك نوح بقوله سبحانه : (١١ : ٤٤ واستوت على الجودِىّ) ويقول : (٢٣ : ٣٨ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك) (٤٣ : ١٢ ، ١٣ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ؛ لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) فهل تجد « استوى على » تغير معناها فى هذه الآيات ، أو اختلفت فى واحدة منها عن الأخرى ؟ لئن تركت نفسك لفطرتك الواعية ، فستؤمن إيمانا لا ريب فيه أن « استوى على » معناها واحد فى جميع هذه الآيات ، ولم يختلف معناها قط فى آية عن معناها فى آية أخرى . وإلا فسَيُلَبِّس عليك المموِّهُون بجهلهم أو بإلحادهم . وليس بعجيب أن يزعموا لك أن « على » فى الآيات حرف زائد ، أو بمعنى « إلى » ، بل يكون عجيبا إذا لم يفتروا ذلك على لغة القرآن ! !

وقد وردت « استوى » مقيدة بحرف «على» فى جميع الآيات التى ذكر فيها استواء الله سبحانه على عرشه . وهى سبع آيات فى القرآن (٧ : ٥٤ ثم استوى على العرش ، يُغْشى الليلَ النهار) (١٠ : ٣ ثم استوى على العرش يدبر الأمر) (١٣ : ١ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) (٢٠ : ٥ الرحمن على[1] العرش استوى) (٢٥ : ٥٩ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش) (٣٢ : ٤ الله الذى خلق السموات والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) (٥٧ : ٤ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش) .

(١) تقديم حرف « على » هنا يفيد القصر ، والاختصاص ، فجل جلال من على عرشه استوى .

فلو أنه سبحانه جل شأنه أراد باستوائه على عرشه غير معناه المقرر له فى لغة القرآن لبين لنا ذلك ، أو لأمر رسوله ببيانه ولا سيما وقد ذُكِر فى القرآن استواء آخر مقيد بحرف « على » أى بنفس ما قيد به الاستواء الخاص بالعرش ، فذكر (استوى على العرش) مع (استوت على الجودى) وغيرها من الآيات دون تخصيص (الاستواء على العرش) بقيد آخر ـ يحدد لك بجلاء معنى الاستواء على العرش ، مع التزام العقل فى فهم معناه نفى المثلية. فشتان ما استواء الله على عرشه واستواء خلقه على ما يستوون عليه ، فالمعنى واحد ولكن الكيف مختلف ، فنحن نعرف كيف يستوى الإنسان على ظهر دابته ، أما كيفية استواء الله على عرشه ففوق مدارك عقول البشر ، فكيف بنا نحاول إخضاع ما حكم به الله لما تحكم به العقول الفاسدة ؟ أقول هذا موحدا مؤمنا ، لا يخيفنى افتراء ، ولا يهولنى بهتان فما أفهم كتاب الله إلا باللغة التى شرفها الله فنزل بها الفرقان ، أما إذا شاءوا فهمه بالعبرية ، أو أخضعوا كتاب الله لما اصطلحت عليه فلسفة يونان من مصطلحات لم تدر بخلد عربى واحد ـ فهنا نقول لهم : (لا أعبد ماتعبدون) .

ألا فلنصف الله سبحانه بصفاته العلية ، ولنسمه بأسمائه الحسنى دون أن نحكم فيها أساطير الفكر ، أو تهاويل الكهنة السحرة ، دون تأويل يبطل النصوص ، وتعطيل يلحق العدم بالوجود الأعلى ، ودون تقويم للذات الإلهية ، بما يُقوَّم به ذوات عبيده وخلقه ، فلسنا بنى التراب أعلم ـ بما يجب لجلال الله وتنزيهه وتقديسه وكبريائه ـ من الله الذى خلقنا من تراب ، ولا من رسوله الذى أراه الله من آياته الكبرى ، فما زاغ منه البصر ، وما طغى .

يا للعقل هذا القزم الصغير تقتل صاحبه ذبابة ! ! إنه يتطاول على الخلاق الأعظم ، فيتخايل ماردا جباراً ، ثم يقف بين يدى ربه العلى الكبير يقول له : ما كان ينبغى أن تصف نفسك بما وصفت ، ولا أن تسميها بما سميت ، ولا أن تنسب إلى ذاتك من الأفعال ما نسبت !! وما كان ينبغى لرسولك ! إنى أنزهك

عن صفاتك وأجِلُّك ، إنك بما قلت عن نفسك ألقيت الشبهات على يقين توحيد عبيدك لك فى صفاتك فجسَّموك . فدعنى أنا المخلوق أضع صفاتك أنت الخالق !!

هكذا يقول ، ويتطاول على الله عقل المؤولة المخبول ! ومتى استقلت العقول البشرية فى إدراك الحقائق العليا على ماهى عليه فى علم الله ؟ وأنَّى لها بهذه القوة المعجزة فى الإدراك وهى مقيدة بالجهالة المحضة للغيوب ، مقيدة بما تمدها به الحواس من معارف تؤلف العقول بينها ، وكل عقل مستقل فى وضع قانونه الكلى الخاص الذى يؤلف به بين ما يستمده من معارف عن طريق الحس ، ويفهم كل صور الفكر،أو مظاهر الوجود بهذا القانون ، ويطلق مايحكم به قانونه على مشابه معارف الحواس التى استمد منها قانونه ، أفيجوز إذن أن يفهم العقل فى صفات الله بما يمده به قانونه الذى استمده من الحواس ، أو يحكم عليها بهذا القانون ؟! كلا . فإذا شاء العقل لله تنزيها فليكن ذلك التنزيه مطابقا لما نزه الله سبحانه عنه نفسه ، دون أن يستقل العقل بنفسه فى هذا ، فإنه بالهوى مقيد ، وللهوى أباطيل وأوهام ، وشهوات ، فإذا استقل العقل بنفسه فى تنزيه الله ، أو فى وضْعِ قانونٍ لهذا التنزيه كان فى قانونه هواه ، وفى تنزيهه لله شهواته وأوهامه .

وما أحسن ما يقول المقريزى « لم يبلغنا عن أحد من الصحابة وتابعيهم أنهم أولوا هذه الأحاديث ، والذى يمنع من تأويلها إجلال الله عن أن تضرب له الأمثال ، وأنه إذا نزل القرآن بصفة من صفات الله تعالى كقوله سبحانه (٤٨ : ١٠ يد الله فوق أيديهم) فإن نفس تلاوة هذا يفهم منها السامع المعنى المراد به وكذا قوله (٥ : ٦٤ بل يداه مبسوطتان) عند حكاية عن اليهود نسبتهم إياه إلى البخل . فقال تعالى : بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ـ فإن نفس تلاوة هذا مبينة للمعنى المقصود » هذا حق يقرره رجل لا يطعن فيه خصوم السلف بل يجلونه ، ويحبونه .

وأقول : أمن الخير أن نعبد ربا رحمانا رحيما سلاما مؤمنا ، مالك الملك

استوى على عرشه ؟ أم نعبد وجوداً مطلقا ليست له صلة بالخلق كما تلحد الفلسفة ؟ أم نعبد عَمَاءً تَعَيَّن فى مراتب ، ثم تعين فى خلقه كما تتزندق الصوفية ؟ أو إلها معطلا من كمال صفاته ، أو لا يوصف ولا يسمى ، أو صفاته لا هى هو ولا هى غيره كما يهذى علماء الكلام ؟ ! . ألا إن الله سبحانه لا يريد من عباده أن يتفلسفوا ، ولكن يريد منهم أن يعبدوه ، ويحبوه ، وشرط الحب ودليله العمل بأمره ، والإخبات القانت لحكمه ، ولا يتحقق العمل بأمره إلا إذا كان من الكتاب والسنة . يريد ألا يشغلوا عقولهم بهذه الأساطير الفلسفية والكلامية ، بل بما يعود عليهم بالخير العام ، وما يحقق للفرد الأمن والسلامة ، وللجماعة الرقى والتقدم ، وللعالم الإنسانى حياة الخير والسلام والمحبة . وكل ذلك نور من هدى القرآن .

فكان من فضله سبحانه أن بين لنا صفاته ، وأسماءه ، فكفانا بهذا البيان الحق عن كل بيان ، بل جعلنا — بما بين — لا نحتاج أبداً إلى بيان ؛ لأنه بيان من الله ، وعن الله سبحانه . تفضل علينا جل شأنه بهذا حتى يوجه العقل الإنسانى كل قواه الفكرية إلى المسائل العلمية الأخرى . إلى إيجاد المخترعات ، والصناعات التى تحقق للحياة أمنها ، وللدنيا صلاحها وإلى غير ذلك مما تعود منفعته الحقة على الفرد والجماعة . ولقد حاول عباقرة الفكر الإنسانى ، وأعظم رواد البحث عن حقائق المعرفة العليا ، حاولوا جميعاً إدراك الحق بعقولهم وحدها فى صفات الله ، فباءوا بالحيرة ، وهاموا فى الشبهات . فليعتبر كل مؤمن ، وليقف عند النص مُخْبِتا قانتا ساجد الفكر فى صفاء النية ، وتقوى الخشوع . ويقين الإيمان .

إله الصوفية : أثبت القرآن والسنة لله صفاته على وجه التفصيل ، ونفيا عنه — جل شأنه — إجمالا ما لا يصح من التشبيه ، والتمثيل (١٩ : ٦٥ هل تعلم له سميا) أى نظيراً يستحق مثل اسمه (الله الصمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) (٢ ، ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) (٦ : ١٠١ أنَّى

يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء) (٢٥ : ٢ له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك) وغير ذلك من آيات القرآن التى نفى الله فيها عن نفسه ما يجب نفيه ، أما ما أثبته القرآن والسنة على وجه التفصيل ، فلاسبيل إلى الإحاطة به هنا ، وحسبك ما قدمته لك ، والذى نريد أن نقوله هنا : أن الصفات الإلهية دائرة بين الإثبات والنفى ، أو بين الإيجاب والسلب ، أو بمعنى أولى : بين الإثبات والتنزيه ، فنثبت لله ما أثبته من الصفات لنفسه وننفي ما نفاه سبحانه عن نفسه .

أما الصوفية فيثبتون للاله كل شيء ، ولا ينفون عنه شيئا إذ لا « غير » حتى تنفي عنه صفات هذا « الغير » ولا « سوى » حتى تسلب عنه صفاته . وإنما الإله عندهم هو كل « شيء » والوجودات كلها ـ على تباينها ، ماديها وروحيها ـ مقومات لوجوده ، مفتقر إليها لظهوره لنفسه كما يقول ابن عربى « فما وصفناه بوصف . إلا كنا نحن « يريد العالم » ذلك الوصف ، فوجودناوجوده ، ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا ، وهو مفتقر إلينا من حيث ظهوره لنفسه » وكلمة التوحيد عندهم : « هو الله » فـ « هو » إشارة إلى « هُوِيَّةِ » الذات . أى باطنها قبل أن تتعين فى صورة ، و « الله » إشارة إلى « إنِّيَّةِ » الذات أى إلى ظاهرها باعتبارها وجوداً قائما في تعينات مادية . أما « لا إله إلا الله » فلا تؤدى عندهم إلى حقيقة التوحيد [1] المحض ؛ لأن ما عبد من عجل أو صنم ، أو كوكب . فهو فى الحقيقة عندهم إله حق معبود أو هو « الإله » فى أحد تعيناته أو مجاليه . وعبادة أى مظهر منها عبادة لله ذاته . وإذا أقروا بلا إله فسروها بقولهم « لا موجود إلا الله » ليتفق هذا مع ما يدينون به من وحدة الوجود .

(١) الحقيقة هم لايرضون بكلمة « التوحيد » وإنما نعبر بها هنا للتوضيح . ذلك لأن ابن مشيش يقول فى صلواته « اللهم انشلنى من أوحال التوحيد ، وأغرقنى فى عين بحر الوحدة ، وزج بى فى بحار الأحدية » وسيأتيك بعون الله بيان هذا .

وإله الصوفية كان وجوداً مطلقا محضاً ، لا يظهر لنفسه ، ولا يُسَمَّى ، ولا يوصف ، لأن الاسم والصفة « قَيْدٌ » للوجود ، فلا يكون « مطلقاً » وهذا تناقض [1] . ولذا يطلقون على الإله وهو وجود مطلق « العَمَاء » أى حيث كانت ذات الإله فى بساطتها ، وتجردها عن جميع الأسماء والصفات ، والنسب والإضافات ، ثم تنتقل الذات من البساطة والتجرد إلى التعين فى مرتبة بعد مرتبة ، وأولى هذه المراتب « الأحدية » وهى مجلى من مجالى الذات ليس للأسماء ولا للصفات ؛ ولا لشىء من مؤثراتها ظهور فيه . الثانية « الواحدية » وهى مجْلى ظهور الذات فيها صفةٌ ، والصفة فيها ذاتٌ ، الثالثة « الرحمانية » وهى الظهور بحقائق الأسماء والصفات . وهناك مرتبة الهوية ، ومرتبة الإنِّية ، وغير ذلك ، غير أنى أناشدك الله إلا ماقرأت هذه الآية (١٠ : ٣ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، مامن شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تذكرون ؟) ! ! ولا فرق عند الصوفية بين من نسميه « الخالق » و بين من نسميهم « الخلق » إلا بالاعتبار ، إذ الخالق هو الذات الإلهية باعتبار « هويتها » أى باطنها ، والخلق هم الذات الإلهية باعتبار « إنيتها » أى ظاهرها ، وهم لا يصفون الإله بكونه « خالقاً » ؛ إذ

---

(١) نعت الوجود « بالإطلاق » تقييد فى حقيقته للوجود بكونه « مطلقا » وهذا يخالف حقيقة التجريد الذى يكدح الصوفية فى سبيل إثباته للاله قبل التعين الأول . ولقد أدرك النابلسى هذا التناقض فقرر فى شرحه للصلاة الفيضية : أن الوجود منزه حتى عن الإطلاق ، ولكنا نقول للنابلسى : إن هذا أيضا تقييد للوجود ، لأنه وصف بالسلب ، والوصف بالسلب فيه تعيين للموصوف . فمازال هذا التناقض موجودا رغم سفسطة النابلسى ،ثم ماهذا الوجود الذى لايسمى ولا يوصف؟ إنه أشبه بالعدم ، بل امتناع العدم أقل من امتناع هذا الوجود المطلق . فهو على الأقل يسمى فى حال « امتناعه » بالعدم ، ثم أليس الوصف « بالوجود المطلق » تعيين صفة واسم لهذا الموصوف المسمى . فكيف لايوصف ولا يسمى ؟! .

ليس ثمت « غيره» حتى يخلقه ، وكل شيء هو الإله ، ولا يمكن ـ تبعاً لهذا ـ أن نسمى الإله بالخالق ، وإلا قلنا إنه يخلق نفسه ، ويفسرون « الخلق » فى قوله تعالى (٧ : ٥٤ ألا له الخلق والأمر) بأنه تَجَلٍّ من تجليات الذات الإلهية ، ويزعمون أنا لو سميناه خالقا لكان ثَمَّتَ مخلوق ـ وما فى الوجود إلا الله ـ فتخرج الذات عن الوحدة إلى الكثرة . فإن عملية الخلق تفيد وجود « خالق ومخلوق » أى وجود وجودين أو اثنين ، « والإثنينية » بهذا التصوير عندهم شرك وطعن فى الوحدة ، لو سميناه خالقاً ، واعتبرنا المخلوق غيره لقامت الحوادث بالذات ، وهذا نفى لوجود القديم المحض ، أولكان القديم حادثاً ، والواحد كثيراً ، هكذا يزعمون ، ولذا يسمون الإله دائماً « بالحق » ولا يسمونه بالخالق إلا مجازاً ، بل لا يمكن أن يصرح زعماؤهم بهذا ويضرب الجيلى مثلا فى كتابه « الإنسان الكامل » يوضح فى زعمه الاتحاد التام بين الحق والخلق ، وعدم المغايرة بينهما إلا بالاعتبار ، ذلك المثل : هو الماء والثلج ، فمثل العالم مثل الثلج ومثل الحق الماء الذى هو أصل الثلج ، فاسم « الثلج » مُعَارٌ على المنعقد من الماء ، واسم « المائيَّة » يطلق عليه حقيقة ، فالفرق بين العالم وبين الإله — إن اعتبرته فرقا ـ هو الفرق بين الماء فى حال مائيته ، وبين نفسه فى حال انعقاده ثلجاً ، وسيذوب الثلج يوماً ، فيعود ماء ، وسيتجرد الإله عندهم يوماً فيعود كما كان وجوداً مطلقاً ، ويقول ابن عربى :

جَمِّع وفَرِّق فإن العين واحدة * وهى الكثيرة لا تبقى ولا تذر

ولهذا يُقْلقون الليل بترتيل تسبيحتهم المقدسة « المظاهر عين الظاهر » ويصفون تبعاً لذلك الخلق « وهم المظاهر » بصفات « الحق » وهو « الظاهر » ، يصفون الخلق بصفات الخلاق من ربوبية ، وألوهية ، وسواها ، ويصفون الخالق بصفات الخلق من نقص ، وعجز وجهل ، يقول ابن عربى « فما يُحَدُّ شيء إلا وهو حَدُّ الحق ، فهو السارى فى مسمى المخلوقات ، والمبدعات ، ولو لم يكن الأمر كذلك ماصح الوجود ، فهو عين الوجود . . . فهو الشاهد من الشاهد ،

والمشهود من المشهود ، فالعالم صورته ، وهو روح العالم المدبر له فهو الإنسان الكبير

فهو الكون كله * وهو الواحد الذى
قام كونى بكونه * ولذا قلت يغتذى
فوجودى غذاؤه * وبه نحن نحتذى

ولهذا الكرب تنفس ، فنسبَ النفسَ إلى الرحمن ، لأنه رحم به ماطلبته النسب الإلٰهية . من إيجاد صور العالم التى قلنا : هى ظاهر الحق إذ هو الظاهر ، وهو باطنها إذ هو الباطن ، وهو الأول إذ كان ولا هى ، وهو الآخر إذ كان عينها عند ظهورها [1] » ويقول « فإن العقل إذا تجرد لنفسه من حيث أخذه العلوم عن نظره كانت معرفته بالله على التنزيه لا على التشبيه ، وإذا أعطاه الله المعرفة بالتجلى كملت معرفته بالله ، فنزّه فى موضع ، وشبه فى موضع . ورأى سريان الحق فى الصور الطبيعية ، والعنصرية ، وما بقيت له صورة — إلا ويرى عين الحق فيها [2] » ويقول « ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص ، وبصفات الذم ؟ الا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها — وكلها حق له — كما هى صفات المحدثات حق للحق [3] » .

أما أسماء الإلٰه عندهم فهى « العماء » أو « الوجود المطلق » قبل التعين الأول و « الحقيقة المحمدية » عند التعين الأول ، وهو اسم الله الأعظم ، و « الحق » إذا نظرت إليه من حيث باطن الذات و « الخلق » إذا نظرت إليه من حيث ظاهر الذات ، أو من حيث تعيناته ، و « الرب » باعتبار ذاته و « الإلٰه » باعتباره

(١) ص ١١١ من كتاب « فصوص الحكم ج ١ » شرح وتعليق الدكتور عفيفى ؛ والنص المذكور كلام ابن عربي نفسه . (٢) ص ١٨١ من فصوص الحكم ط الحلبي
(٣) ص ٨٠ من الفصوص ولاحظ إلحاح ابن عربى فى وصف إلاهه بالحق ، حتى تدرك ما أشرت إليه سابقا من أن الصوفية لا يصفون الإله بأنه « خالق » .

معبوداً فى كل شىء عبده الناس فى الأرض[١] و« الرب » باعتباره « مُكَلِّفاً » ، و « العبد » باعتباره « مُكَلَّفاً : يقول ابن عربى فى الفص الإسماعيلى :

فأنت عبد وأنت رب لمن له فيه أنت عبد
وأنت رب وأنت عبد لمن له فى الخطاب عهد

ويقول « فأنت غذاؤه بالأحكام ، وهو غذاؤك بالوجود ، فتعين عليه ما تعين عليك ، فالأمر منه إليك ، ومنك إليه ، غير أنك تسمى : مُكَلَّفاً ـ وما كلفك إلا بما قلت له : كلفنى بحالك وبما أنت عليه ، ولا يُسَمَّى مُكَلِّفاً .

فيحمدنى وأحمده ويعبدنى وأعبده[٢]

و « الضال » إذا نظرت إليه باعتبار تعينه فى إنسان ضال ، و « والإنسان الكامل » إذا تعين فى صورة إنسانية عليا « كمحمد » عندهم ، و « القطب القديم » فى حال تعينه فى صورة الروح المحمدى القديم « والقطب » الحادث باعتبار تعينه فيمن يعتبرونهم أكمل العارفين بالإله ، ويسمى « الإله » ابن عربى وابن الفارض ، يقول ابن عربى « فهو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن فهو عين ما ظهر ، وهو عين ما بطن فى حال ظهوره ، وما ثَمَّ من يراه غيره ، وما ثم من يبطن عنه فهو ظاهر لنفسه ، باطن عنه ، وهو المسمى أبا سعيد الخراز ، وغير ذلك من أسماء المرئيات[٣] » .

وحقيقة التوحيد عندهم اعتقاد « وحدة الوجود » أى اعتقاد أن الإله هو هذا الوجود المشاهَد بظاهره و باطنه ، بأوليائه ، وأصنامه ، بمساجده ، وكنائسه ، بإنسانه وجنه ، بحيوانه وجماده ، بمؤمنه وكافره ، بموحده ومشركه . كل أولاء

(١) « الرب له الثبوت ، والإله يتنوع بالأسماء فهو كل يوم فى شأن » ص ٧٣ فصوص . (٢) ص ٨٣ فصوص الحكم (٣) ص ٧٧ فصوص الحكم .

عندهم شيء واحد . هو الإله : ولذا يقول الجيلى .

تجمعت الأضداد فى واحد البها وفيه تلاشت فهو عنهن ساطع

وتبعا لهذا لا تنفصل عندهم قيم الأشياء المتضادة بعضها عن بعض ، ولا يميزون بين الشيء ونقيضه ، ففى قيم الأخلاق يرون الفضيلة صنو الرذيلة ، والخير قرين الشر ، والعدل حقيقة الظلم ، والصدق عين الكذب . وكذلك فى قيم الفكر ، فالباطل صورة الحق ، والأسطورة وجه الحقيقة ، وكذلك فى الكليات أو المعانى المجردة . فالعدم باطن الوجود ، والفناء ظاهر البقاء ، وكذلك فى الاعتقاد . فالشرك توحيد ، والكفر إيمان ، والضلال هدى ، والمعصية طاعة ، وكذلك فى الدين . فالمجوسية إسلام ، والإنجيل المزيف قرآن ، وعبادة الصنم ، عبادة لله . وكذلك فى الجزاء الأخروى فالعذاب عذوبة ، والعقاب ثواب ، وسقر جنة . . ولاتناقض فى هذا عندهم لأن الشيء عين نقيضه أو هو هو . وسبب ذلك عندهم أن ذات الإله نفسها تجمع بين الضدين والنقيضين . قال ابن عربى : « فالعلى لنفسه هو الذى يكون له الكمال الذى يستغرق به جميع الأمور الوجودية ، والنسب العدمية بحيث لايمكن أن يفوته نعت منها ، وسواء كانت محمودة عرفاً وعقلا وشرعاً ، أو مذمومة عرفاً وعقلا وشرعاً . وليس ذلك إلا لمسمى الله تعالى خاصة (١) » ويقول الجيلى : « إن الألوهية فى نفسها تقتضى شمول النقيضين ، وجمع الضدين بحكم الأحدية ، وعدم التغاير فى نفس حصول المغايرة (٢) » ويقول « اعلم أن الله تعالى لما خلق النفس المحمدية من ذاته ــ وذات الحق جامعة للضدين ــ خلق الملائكة العالين من حيث صفات الجمال والنور والهدى من نفس محمد ، وخلق إبليس وأتباعه من حيث صفات الجلال والظلمة والضلال من نفس محمد (٣) » وإليك

---

(١) ص ٧٩ فصوص الحكم ط الحلبى (٢) ص ٦٩ من الإنسان الكامل للجيلى ج ١ ط ١٢٩٤ هـ (٣) ص ٤١ جـ ٢ من الكتاب السابق

مايدل بجلاء على أنهم يرون فى عبادة غير الله عبادة لله [١] « إن الحق تعالى من حيث ذاته يقتضى ألاّ يظهر فى شىء إلا ويُعبَد ذلك الشىء وقد ظهر فى ذرات الوجود [٢] » ويقول ابن عربى : « والعارف المكمَّل من رأى كل معبود مَجْلًى للحق يُعبد فيه ، ولذلك سموه كلهم إلهامع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملَك [٣] » ويقول الجيلى فى تفسير قول الله لموسى (لا إله إلا أنا) « يعنى الإلهية المعبودة ليست إلا أنا . فأنا الظاهر فى تلك الأوثان والأفلاك والطبائع ، وفى كل مايعبده أهل كل ملة ونحله ، فما تلك الآلهة إلا أنا ، ولهذا أثبت لهم لفظ الآلهة ، وتسميته لهم بهذه اللفظة من جهة ماهم عليه فى الحقيقة تسمية حقيقية لامجازية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى عين الأشياء ، وتسميتها بالإلٰهية تسمية حقيقية [٤] » هذا مجمل ما نذكره فى هذا الموضوع . وموعدنا إن شاء الله بتفصيله فى كتابى «جناية التصوف على المسلمين» ، وأرجو أن تقرأ بعد ذلك كله قول الله سبحانه : (٥٩ : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة . هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم)

إله الفلسفة : تؤمن الفلسفة أن الإله واحد من جميع جهاته فى الوجود الخارجى ، والوجود الذهنى ، وتؤمن تبعاً لهذا أن الواحد من جميع جهاته لايصدر

(١) زلزل الحق هياكل التصوف ففزع أربابها إلى النيابة يشكون لها ، فلم تر فى بيان الحق ودعوة الناس إليه جريمة ، وزاد بالصوفيين الفزع ، فانهالت شكاواهم على كل سلطة يستنجدون بها من هذا الكاتب الصغير وجماعته الذين يبصرون المسلمين بالحق وخطر التصوف عليه ، فلم تجد السلطات مايؤاخذ به دعاة الحق ولكم نتمنى أن نقف وهؤلاء فى ساح القضاء نكشف للمسلمين فى قاعاته عن خبيثات التصوف ! . (٢) ص ٨٣ ج ٢ الإنسان الكامل للجيلى . (٣) ص ١٩٥ فصوص الحكم ط الحلبى . (٤) ص ٦٩ ج ١ الإنسان الكامل

عنه إلا واحد بالوجوب لا بالاختيار ، وعن هذا الواحد الذى يصدر عن الأول بالوجوب ـ « ويسمونه العقل الأول » تصدر النفس الكلية ، أو العقل الثانى . وهكذا حتى ينتهى جميع مراتب الوجود ، ويوصف إله الفلسفة ـ فى أكثر مذاهبها ـ بالسُّلُوب ، حتى يصل بها السلب إلى التجريد المحض التام ، ولا يمكن أن يؤدى التجريد التام فى نهايته إلا إلى نفى الوجود ، أى إلى جعل الوجود الإلهى عدما محضا . فالتجريد الخالص هو « واللا[1] وجود » سواء . ولذا كان فهم الفلسفة فى الإله طابعه التناقض . إذ تقول عن الإله : إنه « وجود » ثم تجرد ذلك الوجود من كل خصائصه وصفاته حتى يصبح « لا وجود » فيكون الإله عندها « وجود ولا وجود » وليس فى صور التناقض المتوتر ، أو على واقعيته من هذه الصورة ، ولئن رضيت الفلسفة بصفة قيدتها بما يخرجها عن حقيقتها ، ولا تؤمن الفلسفة ـ بالوحى وإن آمنت به فعلى غير حقيقته فى الدين ـ ، ولا بالمعجزة ، وتغالت أحياناً فنفت عن الإله صفات السلب مع نفى صفات الإيجاب ، ولا تؤمن الفلسفة بكون الله خالقاً ، لأن نسبة ذلك إليه نَقْضٌ لوحدته ، أو نفى لها . وتعبر عن خلق الله للعالم « بالصدور » أو « الفيض » أو « الإشراق » فى الفلسفة الإشراقية كالشمس والنور ، ولهذا وصفت العالم بأنه قديم[2] . وقد آمنت الفلسفة فى بعض أزمانها بالحلول « أو وحدة الوجود الباطنة كما يعبر بعضهم » وآمنت « بوحدة الوجود » أو « وحدة الوجود الظاهرة كما يصورون » آمنت بذلك قديماً

---

(١) اضطررت لمخالفة أسلوب العربية محافظة على الاصطلاح الفلسفى فمعذرة .

(٢) تطاحن الفلاسفة والمتكلمون فى هذه المسألة ، وتراشقوا بالتكفير . والحق أنهم تطاحنوا جميعا حول وهم صورته عقولهم إذ نسبوا جميعا إلى الله صفة القدم ، وأنكر المتكلمون أن يكون ثم قديم آخر مع الله لما فهموه فى القدم ، ونفى بعضهم الصفات حتى لا يثبتوا قدماء مع الله . ولكن ليس لله صفة اسمها القدم . فالقرآن عربى ، ومعنى القدم فى لغة القرآن تفسره لك الآية « حتى عاد كالعرجون القديم » فليس معناه أنه ليس قبله قبل آخر كما تصور الفلاسفة والمتكلمون ، بل يكفى =

وحديثاً . وهذا هو بعض ما أخذه منها التصوف ، أو ما أخذته هى من التصوف بيد أن هذا غلا فى الحلول ، ووحدة الوجود غلواً وثنياً وذهب مع لوازمهما إلى آخر مدى ؛ ولذا تجـــد فرقاً دقيقاً بين وحدة الوجود الفلسفية ، و بين وحدة الوجود التصوفية .

أما أسماء الإله فى الفلسفة فقد تباينت تبعاً لتبـاين كهان الفلسفة وسدنتها وعصورها . فهو «الصورة المحضة ، أو مثال المثل ، أو الخير ، أو العقل ، أو العاشق والمعشوق ، أو اللاَّذُّ والملتذ » وهكذا مما تصنعه الخرافة ، وتنزو به الشهوة المكبوتة!

بيد أن الفلسفة أبر بالأخلاق من التصوف ، فهى تُجِلُّ قيمها العليـا وتميز بينها و بين أضدادها ، ولـكن ضلالها يجىء من ناحية تحديدها لمفاهيم هذه القيم ، ومحاولة ربطها بالعقل الإنسانى وحده ، وجعل الغاية منها إنسانية صرفة فلاتنشد إلا تسامى النفس بطاعة الضمير لاطاعة الله . وشر الفلسفة على الدين أقل طغيـاناً من شر التصوف ؛ لأنها لاتزعم لنفسها أنها تمثل دينا خاصاً من الأديان ولـكن نتاج فـكر خاص . أما التصوف فيزعم دائما أنه يمثل الروحية العليا من كل دين ، ولأن الفلسفة تفصل بين وجود الإله ، و بين وجود العالم ، فتصف وجود الإله بالوجوب ، ووجود العالم بالإمكان . وترى فى الإله أنه قديم بالذات ، وفى العـالم أنه قديم بالغير ، وإن آمنت بوحدة الوجود فعلى أن الـكثير فى الواحد ولا تعكس طرفى القضيـة . أما فى التصوف . فليست ثمت فرق بين وجود الحق ، ووجود الخلق ـ إن اعتبرنا له وجوداً ـ والمـكوَّن فيه عين الـكائن ، والرب عين العبد كما سبق بيانه . والفلسفة تفصل بين معانى الأشيـاء وقيمها ، وتحدد لـكل شىء

= فى وصف الشىء بأنه قديم أن يكون مضى عليه زمن ما فى الماضى فالقدم نسبى أو اعتبارى . ولو أنهم جميعا تنبهوا إلى قول الله سبحانه (هو الأول والآخر) لما تقاتلوا حول وهم ظنوه حقا فـكلهم يؤمنون بأنه الأول . وهكذا كلما بعدنا بمعانى الآيات عما قررته العربية دخل الـكفر والإلحاد .

معناه الخاص به مما لايدخله فى مفهوم غيره . وهذا غير مايدين به التصوف ؛ فإنه يخلط بين معانى الأشياء وقيمها ، ويهدم الحدود التى تفصل بين المفاهيم ، فيجعل من المتناقضات والمتضادات شيئاً واحداً ؛ لأن ذات الإله فى نفسها تجمع بين النقيضين ، و بين الضدين ، ثم إن الفلسفة تؤمن بالعقل وسيلة للمعرفة ، أما التصوف فلا يؤمن إلا « بالذوق » يستمد منه كل معارفه . ولهذا يقبلون كل ماجاء عن طريق الذوق و إن كان فى ذاته متناقضا ، فكله حق ، والكل على حق . بيد أن التصوف والفلسفة يقرنهما الوسم بالإلحاد ، فكلاهما طعّان فى الدين ، جاحد لهدى القرآن .

الإله فى علم الكلام : علم الكلام إما غال فى التجريد فيقارن الفلسفة ، و إما غال فى الإثبات فيسلك ما التوى به على الحق التصوف ، و إما أمشاج من فلسفة وتصوف تجد فيه التعطيل الذى يلحق العدم بالوجود ، والحلولية التى تجعل من كل شىء مكانا للذات الإلهية ، والتجسيم الذى يتلبس بالحسية الجامدة ، ويصور الإله فى صورة شوهاء من الخلق . فقد اعتقد بعض المتكلمين كما اعتقد الفلاسفة أن العقل حاكم على النقل ، وأنه يجب أن يؤخذ بحكمه فى شأن الصفات الإلهية ، أو تأويلها حسب قانونه الذى وضعه وارتضاه ، فغلا هؤلاء غلوا مفرطا فى التعطيل ، أو سلب الصفات عن الذات مما دفع المعارضين إلى الغلو فى الإثبات فكان تجريد حلولى ، وتعطيل ـ هو فى حقيقته تمثيل ـ ، وكان تجسيم مادى محض [1] . ويعتقد علماء الكلام أن من يخالف مناهجهم فى التفكير ، ولا يستدل بما استدلوا به ، ولا يرتضى النتائج الأسطورية التى دانو بها يكفر ، حتى

(١) حاول الأشاعرة أن يكونوا وسطا بين المثبتة ، وبين المعطلة ، فوضعوا لهم مذهبا جديدا طابعه التلفيق والاختيار ، وحسبوه خير ما يدين به المسلمون ، بيد أن مذهبهم هو الاعتزال مقنعا ، أو السلفية مشوهة ، فهو أمشاج من الحق والباطل والهدى والضلال .

لقد قرر الأشاعرة فى أهم كتبهم أن مسألة « الجوهر الفرد » هى الأصل السادس فى الإسلام . فلا يتم إيمان الفرد إلا بها ، وها هو العلم التجريبى الحديث يفجر الذرة ، فيطيح بالأصل السادس من دين الأشاعرة ، ولذا يقول الغزالى ناعيا على من يؤلهون علم الكلام « من ظن أن مدرك الإيمان الكلام ، والأدلة المجردة ، والتقسيمات المرتبة ، فقد أبدع جد الإبداع[1] »

ويقول « صرحنا بأن الخوض فى الكلام حرام لكثرة الآفة فيه » ويقول مقرراً القاعدة الرابعة فى تحقيقه « القاعدة الرابعة : العمل بالاتباع ، لا الابتداع ؛ لئلا يكون صاحب هوى ، ولا يزهو برأيه زهوا ، فإنه لا يفلح من اتخذ لنفسه فى فعله وليا[2] » فهل يؤمن عباد الغزالى بقوله هذا ـ وقد غلبه الحق على أمره فنطق به ؟ كلا . لأن الغزالى نفسه خالف هذه القاعدة فكان من كهان الفلسفة، ورهبان التصوف ، وأحبار الكلام كما يقول تلميذه الأكبر أبو بكر بن العربى « دخل شيخنا أبو حامد فى بطون الفلاسفة فما قدر أن يخرج منها » ونُسب إليه فى التاريخ أنه أول من صالح بين السنة ، والتصوف ، ولست أدرى أية سنة هذه والغزالى نفسه يصرح بقوله « بضاعتى مُزْجاة فى الحديث[3] » أى رديئة كالدراهم الزائفة ؟؟ وكتبه شاهد صدق على ما اعترف به الغزالى .

واسمع إلى تهكم الغزالى المرير ، وسخريته القاتلة من الكلاميين ـ ومنهم أساتذته الأشاعرة : « ليت شعرى متى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة رضى الله عنهم إحضار أعرابى أسلم وقوله له : الدليل على أن العالم حادث أنه لا يخلو من الأعراض ، وما لا يخلو من الحوادث حادث ، وأن الله تعالى عالم بعلم ، وقادر بقدرة زائدة عن الذات لا هى هو ، ولا هى غيره[4] إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين[5] » حق نطق به الغزالى قوياً يطيح بعلم الكلام ،

(١) ص ٩٧ من رسالة فيصل التفرقة فى مجموعة الجواهر الغوالى للغزالى
(٢) ص ١٠٨ من رسالة القواعد العشرة فى المجموعة السابقة . (٣) ص ١٦ من رسالة قانون التأويل للغزالى . (٤) هذا رأى الأشاعرة الذين وطد سلطانهم الغزالى نفسه . (٥) ص ٥٨ فيصل التفرقة فى المجموعة السابق ذكرها .

وأهم ما اصطنعه من أدلة . والقول الأخير الذى يسخر منه الغزالى هو قول أئمته الأشاعرة فى الصفات . فكأنما يمج فى وجههم بسخريته !! ولا تنس أن الغزالى هو الذى وطد سلطان الأشاعرة ، وجعل مذهبهم فى الكلام دين الدولة . بما اصطنعه من أدلة جذلية عارمة السطوة . فهل تراه يسخر بما فعل ؟ ! وهكذا جنى علم الكلام[1] على عقائد المسلمين باعتراف أكبر حبر من أحباره ، وحسبك ما ذكرت . فلست بصدد التفصيل .

اضطراب الفلسفة والكلام ، وتناقضهما فى شأن الصفات : حار أساطين الفكر البشرى ، وضل أصنامه منذ بدأ الفكر المحاولة الأولى لوضع عقيدة لنفسه فى الله حتى اليوم ، ولم يغنموا من جهاد الفكر فى سبيل اليقين ـ كما يزعمون ـ إلا الشك القاتل ، والحيرة البالغة ، والقلق النفسى العاصف تفزعهم فى تيههم أشباحه الرهيبة . وتاريخ الفكر الإنسانى ، وواقعه يؤيد ما نقول ، فقد كان ما يفهه فيلسوف فى الإله ويصوره به يناقض ما كان يفهم غيره ويصوره ، فما وصفه به أرسطو غير ما وصفه به تلميذه إفلاطون ، غير ابن سينا ، غير الفارابى ، غير اسبنوزا . غير ديكارت ، وهؤلاء هم أصنام الفكر ، وأوثان الفلسفة ، وما وصفته به فلسفة يونان قبل سقراط ، غير ماوصفته به هى نفسها بعد سقراط ، غير الرواقية ، غير الأفلاطونية المحدثة ، غير فلسفة العصر الوسيط ، غير فلسفة عصر النهضة ، غير الفلسفة الحديثة ، غير الفلسفة المعاصرة ، بل إنك لتجد الفليسوف الواحد يتناقض كثيراً مع نفسه ، وكل فلسفة منها لا ترتبط بالقيم الذاتية لحقائق الفكر ، بل ترتبط بقيمة الفيلسوف نفسه ومكانه فى عصره ، فإذا دِنَّا بالفلسفة فبأيها ندين ؟ وما أجمعت الفلسفة

(١) يسمونه « علم التوحيد » وقد درسناه فى أعظم كتبه فى الأزهر فاستفز توحيد القلب لله بالقلق ، وعمى عليه الحق بالشبهات ، وأضل هداه بجدله الكهنوتى ، وفزع أمنه وسلامه بحرب السفسطة ، وما عصمنا منه إلا كتاب الله العربى المبين .

على شيء سوى أنها تبرأ أن تنتسب برحم إلى الدين ، وعباد الفلسفة أنفسهم يسخرون من الفيلسوف الذى يخضع فلسفته أحياناً للدين ، وَيسِمُونه بسبة نقص إذ يقولون عنه : إن فلسفتـه دينية !! والحق ـ باعترافهم ـ واحد لا يتعدد . فأى الفلسفات هذه يا ترى معها الحق، حتى يمكن عباد الفلسفة دعوة الناس إلى الإيمان بها ؟؟ اللهم لا حق إلا فيما أوحيت ، ولا هدى إلا فيما به هديت .

أما التصوف فأقل شأنا من أن نبين عن تناقضه هنا لوضوح الخرافة الزنديقة فيه ، ولغلوه الوثنى فى تمثل الوهم والأسطورة إلها يعبد ، فليس فيه فـكرة يحنو عليها العقل ، بل ولا شاعرية يرف عليها ظلأ الخيال ، ولا نسمة روحية تثير نشوة الروح ، ولا صورة نفسية تعطف عليها الإعجاب . ولعلى ـ بتوفيق الله وهداه ـ أستطيع أن أقدم لك قريباً كتابى « جناية التصوف » لتوقن مع الحق أن الصوفية لئام المجوسية ، وقناع الزندقة يوشِّيه بسحر الـكنهوت كهان الصوفية ، وأنها داعية انحلال ، وانطواء الذات على العبودية للـكهنة ، والاستكانة لجبروت الطغـاة ، وأنها ما قامت إلا لتنقض قواعد الإسلام ، فنقضت عقائد المسلمين ، ولـكن بقى ـ وسيظل دائما ـ كتاب الله شهيداً على جنايتها ، وحر بها الخفية والمسفرة له . أما المتكلمون فقد سجل عليهم التاريخ الفكرى ذلك التناقض الحاد المتوتر ، والتضاد المسرف فى الضدية ، والحيرة التى لا تلوذ إلا بالحيرة ، والريب الذى لا يفزع إلا إلى الشك ، بل سجل التناقض جليا فى آراء المدرسة الواحدة ، بل التناقض فى رأى المتكلم الواحد، كل مدرسة لها دينها الخاص بها وكل فرد فى هذه المدرسة له عقيدته الخاصة ، وكل عقيدة فردية تناقض نفسها ، وكل يناقض الآخر و يجالده العداوة والخصام ، حتى فى أشهر مدارس الـكلام . فمعتزلة بصرة غير معتزلة بغداد ، وترى معتزلة بصرة شيعاً تتباين مناهجها ، وحلولها لمشاكلها الفكرية ، فمنهم الواصلية ، والهذيلية ، والنظامية ، وغير هؤلاء كثير . وترى مثلهم معتزلة بغداد أحزاباً تتعارض آراؤها فى مسائل الفكر والوجود ، ووسائل المعرفة ونتائجها.

فمنهم البشرية ، والإسكافية ، والمردارية . وسواهم كثير . حتى الأشاعرة أنفسهم لم يجمعوا على رأى ، ولم يلتزموا منهجاً واحدا ، فالأشعرى غير الباقلانى ، غير الجوينى ، غير الغزالى ، غير الأشاعرة المتأخرين . بل كان المتكلم الأشعرى الواحد يؤمن أحياناً بشىء ، ويُجَنِّد له كل جدله فى كتبه ، ثم يعود فيكفر بما آمن به : ويجادل عنه بنفس القوة العارمة التى جادل بها عن الأول ، وقد بلغ هذا التناقض ذروته عند الغزالى الذى يعتز به الأشاعرة ، والذى مكن لهم السلطان وجعل مذهبهم العقيدة الرسمية للدولة ، فالغزالى أشعرى متحمس فى كتاب ، ساخر بالأشعرية متهكم عليها فى آخر !! والغزالى طعان فى علم الكلام ، وهو البطل الفذ من أبطاله !! والغزالى هدام للفلسفة فى « التهافت » كاهن يبشر بطقوسها ، بناء لهيكلها فى « المضنون بها على غير أهلها » والغزالى داعية قوى لإثبات الصفات مكفر لمن يؤولها . وداعية أقوى لتأويلها أفسد التأويل فى « مشكاة الأنوار » وغيره ، والغزالى هَجَّاء لعَّان للصوفية فى موضع من الإحياء ، صوفى فى موضع آخر منه متطرف يغلو فى تصوفه حتى ليأخذ بما فسر به التصوف النظرى : « حقيقة التوحيد » من أنه رؤية الواحد فى الكثير ، ورؤية الكثير فى الواحد ، ويمثل لك فى هذا الشأن بالشجرة وفروعها وأوراقها . فهى واحدة إذا نظرت إليها من حيث هى شجرة ، وهى كثير إذا نظرت إلى كل شىء فيها نظرة مستقلة : ويمثل كذلك بالإنسان وأعضائه . فهو واحد باعتباره « إنسانا » . وكثير ؛ لأنه عين ، وأذن ، وفم ، وذراع ، وساق ، هذا مامثل به الغزالى فى الإحياء «لتوحيده أو لوحدته الصوفية » :

و إذا كان شأن هؤلاء جميعاً كما ترى ، فهل ترى الخير والحق فى اتباع هؤلاء أو ترى الإيمان والتوحيد الخالص فى اتباع ماأنزل الله ، والاقتداء المطمئن بخاتم النبيين ، وصفوة المرسلين عبد الله ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ؟ وما كان ينبغى أن يكون هذا السؤال ، لوضوح الحق وجلاء اليقين ، وتبين الهدى ، ولكن ماذا نفعل لخصوم التوحيد وأعدائه المقنعين ؟ ! .

توحيد العبادة

لم يسجل التاريخ ـ حتى وهو مُلَثَّم بالغيب المجهول ـ نبأ كائن ينكر وجود إله علىٍّ قدير ، حتى العقائد الوثنية التى كانت ـ وما زالت ـ تؤمن بآلهة متعددة ، حتى هذه تدين بالتقديس لإله واحد من آلهتها تؤمن أنه فوق الكل عزة وعظمة وقدرة ، مالك الملك ، رب السموات والأرض . ولكن الذى سوَّد به التاريخ سِجِلَّهُ أنباء جماعات كانت تعبد مع الله آلهة أخرى ؛ ولهذا لم تكن رسالة الرسل دعوة الناس إلى الإيمان بوجود الله ، أو ربوبيته ؛ إذ كان هذا مستقراً فى القلوب ، وإنما كانت هى دعوة الناس إلى توحيد الله فى إلٰهيته ، إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والتخلى عما اتخذوه من دون الله من أولياء وشفعاء يعبدونهم بالحب والدعاء ، والخوف والرهبة والرجاء (١٦ : ٣٦ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ، والطاغوت كل ماأضلك عن سبيل الله ، أو صرفك عن طريق الخير ،أو احتكمت إليه فى دينك يحكم فيه بهواه ، أو عبدته من دون الله (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا[1] أنا فاعبدون) هذه هى رسالة الرسل : توحيد لله فى إلٰهيته ، بعبادته وحده لا شريك له بما أنزل الله على رسله . وفى الطور فى تجلى النور. كان أول ما أُمِرَ موسى أن يسمعه ، ويطيعه ، ويبلغه (٢٠ : ١٤ إننى أنا الله . لا إله إلا أنا . فاعبدنى . وأقم الصلاة لذكرى) فملاك الحق فى توحيد الله فى عبادته أمران : أن تعبد الله وحده ، وأن لا تعبده إلا بما شرعه . فمن ابتغى بعمل له غير وجه الله فهو مشرك ، ومن عبد الله بما لم يأذن به الله فهو مشرك ، ولن

---

(١) لم يقل : لا رب سواى لأن الناس جميعا يوحدون الله فى ربوبيته ، ولم يقل : إنى إله . لأنهم جميعا يؤمنون بذلك ولكن قال سبحانه لا إله إلا أنا وأمر بعده بالعبادة ليوحده الناس سبحانه فى إلٰهيته بعبادته وحده .

يكون الدين لله خالصاً إلا إذا كان كل ما نعمل أو نقول هو لله ، وباسم الله . سواء كان من شئون الدين ، أم من شئون الحياة . قال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل : من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه[1] » دقق النظر فى الحديث تجده ذكر «العمل» مطلقا ، غير مقيد بكونه عمل دين ، أو عمل دنيا . هذا ليكون لله وحده وجودك كله فى الحياة . وقال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى . يا رسول الله . قال : الشرك الخفى . يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل[2] » فمجرد تزيينك الصلاة لتلحظك عين رجل بالإعجاب شرك بالله ، وعن زيد بن خالد قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح على إثر سماء[3] كانت من الليل . فلما انصرف ، أقبل على الناس بوجهه الشريف . فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . فأما من قال : مُطِرْنا بفضل الله ورحمته . فذلك مؤمن بى ، وكافر بالكوكب، وأما من قال : مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا ، وكذا . فذلك كافر بى ، ومؤمن بالكوكب[4] » .

يطالعك من هذا الحديث الحقُّ فى إشراقه الإلهى . فمجرد نسبتك الفضل — فيما ينعم به الله — إلى غيره سبحانه شرك . فما بالك بمن يدعو سواه ، ويتوسل بالموتى إلى الحى القيوم ؟ ! .

يحب الله سبحانه أن يكون عبده ملكا خالصا له ، لا يشركه فيه غيره ، فلا يستعبده سلطان بالخوف منه ، أو الرجاء فيه ، أو التوكل عليه ، ولا يفتنه الحب لأوليائه عن محبة الله ، ولا يزيغه عن طاعة الله جاه أو مال أو زوج أو ولد ولا يستزله عن شريعة الله أحبار وكهان . .

وتوحيدك لله فى عبادته لا يتحقق إلا بأن يكون ظاهرك وباطنك ، سرك وعلانيتك ، عملك وقولك . دينك ودنياك لله رب العالمين وحده .

---

(١) مسلم (٢) أحمد وابن ماجه (٣) أى عقب نزول مطر (٤) البخارى ومسلم .

ليس يكفى فى التوحيد أن ترتل كل آن « لا إله إلا الله » . بل يجب أن يكون هوى قلبك ، وباعث عملك ، وغاية جهادك فى الحياة ، يجب أن يكون ذلك كله شهيدك الحق على صدق قولك « لا إله إلا الله »

وليس ينجيك من الشرك تهجد الليل كله فى المحراب ، ولا التراتيل العذاب فى الصومعة بآى الله إذا كان فى قلبك ما يملك عليه من الدنيا هواه ، وفى نيتك ما يشغفها من ثناء الناظرين .

فقد يكفر اللسان بمعبود ، والقلب مستكين فى ذل هواه ، وقد يشهدك الليل ساجدا ، وتشهد عليك السماء أنك عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الشيطان ، ألم تر إلى إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه آزر (١٩ : ٤٤ يا أبت لا تعبد الشيطان) وما كان آزر يسمى معبوده الشيطان ، ولا كان يؤمن أنه الشيطان ، ولا يدين فى اعتقاده بالشيطان ربا أو إلها .

لكن إبراهيم عليه السلام ـ وهو الصادق التوحيد ـ يبصر أباه بالحقيقة التى يلتوى على إدراكها فكره . يبصره بأنه لا يعبد فى نظر الحقيقة إلا الشيطان الذى فتنه فأطاعه ، فعبد تماثيله . وهذه التماثيل إنما هى « الشيطان » تجسد فى صورة أوثان أو تمثل أوهاما فى ذهن آزر فأشرك بعبادة الأوهام ، ولعل آزر كان يرجم الشيطان باللعنة كلما هَوَّم الليلُ ، أو هَدَّل الصبح أستاره !! وإليك قول الحكيم الخبير يلوم عبيده (٣٦ : ٦٠ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان) ومعنى هذا أن بعض بنى آدم عبد الشيطان ، وإلا ما صح توجيه اللوم إليهم . وما فى التاريخ ولا فى الحقب السحيقة المجهولة وراء التاريخ ما نعلم منه أن كائنا إنسانيا سمى معبوده شيطانا ، أو اعتقد أن الشيطان إله ، أو آمن أنه يعبد الشيطان

ولكن الذى ذكره التاريخ وما زال يُسَوِّد به صحائفه ـ أن قوما عبدوا « غير » الله بوحى وثنى من الشيطان ، وهؤلاء يلومهم الله سبحانه ، ويبصِّرهم

بأنهم إنما يعبدون الشيطان، ولكنه لَبّس عليهم فسموا معبوديهم أولياء، أو شفعاء، أو مَشَاهد ! ! (٢ : ٢٥٧ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وإليك ما يقصه سبحانه عما عاقب به بنى إسرائيل (٥ : ٦٠ وجعل منهم القردةَ والخنازير، وعَبَدَ الطاغوت) أفكان مِنْ هؤلاء مَنْ سمى معبوده طاغوتا، أو فهم أنه يؤله شيئاً اسمه الطاغوت ؟ أم كانوا جميعاً يعتقدون أنهم يعبدون الله رب العالمين ؟ .

ولكن الآية تهديك إلى الحق الذى يلبسه عليك الأحبار . فتبين لك أن هؤلاء أطاعوا بعض الناس بمعصية الله، وأحبوهم كحب الله، وأخذوا دينهم من باطلهم، لا من كتاب الله . فسماهم الله ـ بما فعلوا ـ عَبَدَ الطاغوت، وإن كانوا هم يسمونهم أولياء يدعونهم، أو أحبارا يستفتونهم، أو شفعاء يتوسلون بهم إلى الله

ألا فلتتل هذه الآية (١٠ : ٦١ وما تكون فى شأن، وما تتلو منه من قرآن، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا) لتؤمن بالحق، وتُهْدَى إلى حقيقة التوحيد . وهى أن كل عمل يجب أن يكون لله، أو باسم الله، وكما أذن الله

فالآية تذكر ثلاثة أمور : شأن من الشئون، تلاوة من القرآن، عمل من الأعمال. وتبين بعد ذلك أن الله شهيد على كل إنسان، عليم بنيته التى توجه غايته وهو يأتى هذه الأمور، أو يقوم بواحد منها، وما قيدت الآية «الشأن» ولا «العمل» بأى قيد من القيود، تركتهما مُنَكَّرَيْنْ مُطْلَقين لتهديك إلى أن كل شأن من شئون دنياك، أو دينك، وكذلك كل عمل . يجب أن تبتغى به وجه الله، وإلاَّ فَسَقْتَ عن التوحيد إلى الشرك . حتى تلاوة القرآن يحذرك الله فى الآية أن تكون لغير وجه الله، ويبين أنها ليست عبادة إلا بما يوجهها من نية تبتغى طاعة الله !! فيالجاعلى القرآن تمائم !! ويالبائعى القرآن عند القبور ! ! ويالتالين له تطريبا وابتغاء مال يُتْخِمون به بطون الربا ! !

ولو أنك تتبعت موارد كلمة « العمل » لوجدتها مطلقة بدون قيد يحدد مفهوم العمل بأنه من أعمال الدين ، أو من أعمال الدنيا ، ولوجدتها تذكر مقترنة صراحة ، أو ضمنا بما يوجب أن يكون هذا العمل لله ، أو باسم الله . أذكرك بهذا لتؤمن أن الإسلام يجب أن يسود ، وأن يحكم الحياة ، فهل يعى ذلك من تلعق المرأة إيمانهم من القلوب ؟ ! .

تتنوع صور العبادات ولكن تتحد الغاية منها ، وهى توحيد الله سبحانه فى العبادة .

أنواع العبادة

ولن نحدث عُبَّاد الأولياء هنا عن الصلاة — وإن كانوا لا يقيمون وجوههم فيها لله ، بل لأضرحتهم — [1] لأنهم يقولون : إن الصلاة عبادة . ولا عن الزكاة — وإن كان أغنياؤنا يعبدون بها الميسر والراقصات ، وفقراؤنا شيوخ الطرق — لأنهم يؤمنون بأنها عبادة ، ولا عن الحج — وإن كانوا يرونه فى حج قبر [2] الرسول صلى الله عليه وسلم — لأنهم يقولون عنه : إنه عبادة ، وأعجب العجب إقرارهم بأن ذلك كله يجب أن يكون لله وحده ، وباسم العلى الكبير ! . ولكنى محدثهم هنا عما يدينون بأنه ليس من العبادة ، أو يوقنون بجواز توجه القلب به إلى الله ، وإلى غير الله . وبجواز فعله لله ولغير الله . كالدعاء ، والحلف ، والنذر .

الدعاء : الدعاء هو العبادة ، وإليك من آى القرآن مايكشف لك عن هذه

---

(١) ألا تراهم لا يحبون الصلاة ، ولا يقيمونها إلا فى مساجد القبور ؟ ،

(٢) كثير من الناس يعتقد أن الحج هو زيارة القبر النبوى ، وأغلب الناس يعتقدون عدم نفع الحج دون الزيارة للقبر النبوى ، والعائد منهم لا يذهب إلى قريته حتى يطوف حول قبور أوليائه فى القاهرة وغيرها ، والداعى منهم يدعو لك بمثل هذا ، « وعدك الله بزيارة قبر سيدنا النبى » وما تسمع منهم مطلقا دعاء أن يوفقك الله بمعرفة .

الحقيقة التى كفر بها عباد القبور ، فدعوا الموتى من دون الله ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ويجدون من العلماء من يؤيد لهم بالباطل هذا الشرك الأصم ، ويجهد فى سبيل أن تكون قلوب المسلمين قبور أصنام ، وهيا كل أوثان .

أدلة من القرآن والسنة على أن الدعاء عبادة : (١٩ : ٤٨ ، ٤٩ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى . عسى أن لاأكون بدعاء ربى شقيا ، فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً) فالآية الأولى تقص أن إبراهيم عليه السلام قال لقومه أنه سيعتزلهم ، وما يدعون من دون الله مخلصا دعاءه لله وحده ، والآية الثانية تقص أنه عليه السلام اعتزلهم وما يعبدون فوضعت العبادة موضع الدعاء ، وبهذا أقرت التسوية بين مفهوم العبادة ، ومفهوم الدعاء ، قررت أنهما واحد ، وأن مشركى قوم إبراهيم عبدوا آلهتهم بالدعاء (٤٠ : ٦ وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) جعل سبحانه من لا يدعوه مستكبراً عن عبادته ، ومعنى هذا أن الدعاء عبادة ، وإنى أقتبس لك هذا الحق من هدى الرسول إذ تلا عليه الصلاة والسلام هذه الآية نفسها عقب قوله « إن الدعاء هو العبادة[1] » وفى رواية « مخ العبادة » فتلاوته صلى الله عليه وسلم للآية عقب قوله هذا ، تقرير وتوضيح لما بينه ، واستشهاد على حقيقته بأى الله : أو بمعنى أصرح تقرير للحقيقة التى يكفر بها الناس ، وهى أن الدعاء هو العبادة ، وقد هدانا إلى هذه الحقيقة الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله ، وهدانا بتذكيرنا بآية الله التى اقتبست منها ماقرره فى بيانه . (٧٢ : ٢٠ قل : إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً) فهل يؤمن بحجة الكتاب والسنة من يجادلون عن الكفر ، وعن الذين

(١) أبو داود ، وأحمد ، والترمذى ، وقال : حسن صحيح . والنسائى وابن ماجة ، وابن أبى شيبة .

يختانون أنفسهم ؟ ! فيزعمون أن دعاء الولى إيمان ، وأن الاستغاثة بالميت توحيد ، وأن تقبيل الأحجار حب لآل البيت ! ! .

يقرر القرآن ، وتؤيده السنة أن الدعاء عبادة ، وأن من دعا غير الله فقد أشرك بالله ، واتخذ له إلهًا من دون الله ، ويقرر أولئك أن الدعاء ليس عبادة ، وأن دعاء آل البيت من أصدق الدلائل على حب العبد لله ورسوله ! ! ويأبى بعض العلماء إلا أن يكونوا ضالعين مع أولئك ! ! .

ألم تشهد العاكفين فى القباب كيف يدعون ، والطائفين حول القبور وهم بها يستغيثون ؟ ! وأسفاه على إنسان ينشد من الميت الحياة ! ! هنالك فى أعماق الليل يتهجد الصوفية ضارعين إلى القبور ، مرتلين « أورادهم » للأقطاب ، والأنجاب ، والأوتاد ، والأبدال ، حتى إذا هتك الليل عن مهده كَلَّة السحر كان نصيب الله من دعائهم « اللهم انشلنى من أوحال التوحيد [1] » وهناك فى حانات الأذكار وتحت وهج المشاعل المجوسية تسمع استغاثة ملهوف بالرفاعى ، ودعاء مكروب للبدوى ، وتضرع محزون إلى امرأة طواها الموت ، هذا يقول : مددك ياسيدى فلان ، وآخر يقول : مددك ياأم العواجز ، وآخر يقول : مددك يارئيسة الديوان . . أما إسم الله فينطقون به ، وكأنما عربدت فى ألسنتهم عربدة الخمور ، ويلفظونه فى تكسر الخنوثة « أه ، أه » أو يمجونه فى صوت أجش غليظ « أَلاَّوْ » وأجسادهم يرقصها الشيطان .

إنى ليذهلنى طغيان هذه الوثنية على كل مقدسات الدين فى بلد دينها الرسمى الإسلام ، وفيها الأزهر الشريف منارة الإسلام ، مستويا على كرسيه شيخ شيوخ الإسلام ! !

---

(١) من دعاء الوثنية الذى يسمونه « صلوات ابن بشيش » وعلى كثرة مايختلف فيه الصوفية فهم مجمعون على أن هذه أقدس صلاة يصلون بها على نبيهم ! ! وصلى الله على رسوله محمد خاتم النبيين وصفوة المرسلين .

ويأبى كهان هذه الوثنية إلا أن يقولوا إنهم صفوة الروحيين ، وأن وثنيتهم هذه معراج الروح إلى قدس أقداس الحقيقة العليا . ! !

الاعتذار بالجهل وعدم القصد : يحاول بعض من يلبسون مسوح التجديد الدفاع عن عمل عُبَّاد القبور ، فيعتذر عنهم بأنهم عوام جهلة . وأقول لهؤلاء : إن جهل حقيقة التوحيد شرك . ثم لماذا يعرف هؤلاء جيدا ماسنَّه الشيوخ ، وشرعوه من زيارة القباب ، والمحافظة على العهود التى يأخذونها عليهم ، ويحفظون جيداً مايلقنه لهم ساداتهم من « أوراد » وصلوات شركية ، وأنباء المعجزات والكرامات لآلهتهم ، ويسألون كل يوم . متى يكون « مولد » السيد ، ورجبيته ، ومتى يكون عيد الدسوقى ، ومتى يكون « يوم الكَنْسَه » أفَمَنْ عنده العلم بهذا والقدرة على التعلم نعتذر عنه بالجهل ، ولانطالبه بأن يعى جيداً ، و بأن يتدبر آيات ربه ، ويتعلم كيف يوحد ربه فى ربوبيته وألوهيته ، ومن عجب بعض المعتذرين أنهم أساتذة فى « كلية الحقوق » التى تقرر مبدأ مهما فى القانون « الجهل بالقانون لايعفى من العقوبة » فهل يستطيع الشيخ المجدد أن يعتذر حتى عن سارق جائع فقير بأنه كان يجهل عقاب السارق فى القانون ؟ هذا على فرض أن من يدعون القبور عوام جهلة . بيد أن منهم أحباراً كبارا ، وعباقرة حواشٍ ومُتُون !!

ومن أدلة الشيخ على زعمه . أن هؤلاء الداعين للقبور لايعتقدون أنه شرك ، وإنما الأعمال بالنيات !! . وهذه هى حال المشركين وفتنتهم عند الله يوم القيامة (٦ : ٢٢ ، ٢٣ ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فتنتهم « إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين) والله سبحانه يذكر لنا فى كتابه أن المشرك يوم القيامة لن ينفعه اعتذار بجهل ، ولن يعفيه من العقاب دعوى أن علماءه أضلوه (٣٣ : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ يوم تُقَلَّب وجوههم فى النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله ، وأطعنا الرسولا . وقالوا :

ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعنا كبيراً) فهل أعفى الجهل هؤلاء من تقليب وجوههم فى النار ؟ ! هل أعفاهم اعتذرا بأنهم وثقوا بعلم سادتهم وكبرائهم فأضلوهم ، وما كانوا يريدون ضلالا ، أو يحسبون متابعتهم ضلالا ؟ وهل يضل عوامنا اليوم — وهل ضلوا قبل اليوم — إلا بطاعتهم للكهان والأحبار ؟ ومع أن تبعة إضلال هؤلاء تقع على عواتق المُفْتين فى الدين بما لم يأذن به الله إلا أن الله سبحانه يقرر لنا أن العوام سيحملون هذه التبعة كما يحملها العلماء الذين أضلوهم ، وأنهم وعلماءهم فى قرن واحد يقول الأتباع يوم القيامة (٧ : ٣٨ ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذاباً ضِعْفًا من النار . قال: لِكُلٍّ ضِعْفٌ : ولكن لا تعلمون) فللعوام ضعف من العذاب مثل ما للعلمائهم الذين اتبعوهم فى دينهم . وإليك تخاصم العوام الضالين في النار مع من أضلوهم من علمائهم (٣٨ : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ هذا فوج مُقْتحِمٌ معكم ، لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ، قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم ، أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا : ربنا من قدَّم لنا ، هذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار) يقص الله سبحانه قصة العلماء الضالين وأتباعهم يوم القيامة ، يقتحم الأتباع النار ، فيجدون فيها رؤساءهم فى الشرك ، فيقول هؤلاء فى مقت وكراهية : لا مرحباً بهؤلاء الأتباع . إنهم صالوا النار ، وهكذا يتبرءون من أتباعهم يوم القيامة ، وكانوا فى الدنيا يُمنّونهم بحظائر القدس (٢ : ١٦٦ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) وحين يسمع الأتباع من رؤسائهم ذلك يواجهونهم فى تحدٍّ طاغ بالحقد المرير ويمجون فى وجوههم اللعنة : بل أنتم أيها الطغاة لا مرحباً بكم ، فأنتم سبب ضلالنا ، وأنتم الذين قدمتم لنا هذا العذاب ، ثم يسأل الأتباع ربهم أن يزيد رؤساءهم عذاباً شديداً مضاعفاً عقاباً لهم على أنهم أضلوهم !!! يقولون هذا فى الآخرة وكانوا فى الدنيا يقدمون لهم المهج والأرواح . فهل يود المعتذرون عن هؤلاء أن يكونوا أحد طرفى هذه الخصومة ؟ !

ويعتذرون عن هؤلاء بأنهم لايقصدن بدعاء القبور عبادتها ، وإنما هو قول يرددونه بلاوعى ؛ بدليل أننا لوسألنا أولئك الداعين للموتى : أينفعكم من تدعونهم لنفوا ذلك ! ! ولكنى أقول للمعتذرين : كذلك كان قوم إبراهيم المشركون (٢٦ : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) فروا من الجواب ، ولجأوا إلى مايعتذر به الشرك دائماً فى كل عصر (وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) . وأقول كذلك : ترى هل سبرتم أغوار قلوبهم ، فرأيتم مااستكن فيها من شعور واعتقاد فيمن يدعونهم ؟ فلا بد وراء كل قول أو عمل من باعث يصدر عنه ، وغاية إليها يتوجه ، إلا قول وعمل المجانين ، والداعون للقبور ليسوا بمجانين ؛ بدليل أنهم يتصرفون فى شئون الدنيا والمال تصرفاً يشهد لهم بالحذق والبراعة ، وهذا يثبت — ولا ريب — أن وراء دعائهم للموتى نية ، وفى نفوسهم شعورا تاما بما يفعلون ، ولهم غاية إليها يتوجهون ، واعتقادا فى موتاهم أنهم يملكون ما يُسْأَلون ، ولهذا يلحون فى دعائهم ليستجيبوا لهم عند ربهم . وهذا هو الشرك .

دعاء غير الله شرك : يقول عباد القبور أن شرك الجاهلية كان سببه عبادة غير الله أما نحن فعملنا دعاء ، وشتان ماالعبادة والدعاء !! وقد ثبت لك من هدى القرآن والسنة أن الدعاء هو العبادة ؛ فداعى الولى عابد لغير الله بما يجب أن يعبد به الله وحده ، وهو الدعاء . والله سبحانه دمغ بالشرك من كانوا يدعون غيره ، وصرحت الآيات القرآنية البينة أن المشركين عبدوا أصنامهم بالدعاء (٧ : ١٩٤ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) (٣٥ : ١٤ إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا مااستجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) فما فى الآيات إلا ذكر الدعاء ، مما يوضح ويقرر أن عبادة المشركين لأصنامهم كانت دعاء . والآية الأخيرة ينبئنا فيها العليم الخبير أن مَنْ كانوا يُدْعَوْن

من الموتى . سيكفرون يوم القيامة بشرك عابديهم . وفى أولها بيان عن هذا الشرك . هو أنهم كانوا يدعونهم . فهل تريد بياناً أوضح من هذا على أن دعاء غير الله شرك ؟ . ويقول ربنا سبحانه (١٣ : ١٤ له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء) (١٦ : ٢٠ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلقون) (٣١ : ٣٠ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل) (٤٠ : ٢٠ والله يقضى بالحق ، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء) (١٧ : ٥٦ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ، ولا تحويلا) فإذا رضينا جدلا بالفصل والمغايرة بين مفهوم العبادة ، ومفهوم الدعاء . فإن هذه الآيات وغيرها ـ وما ذكرتك إلا بقليل ـ تصرح بشرك من يدعو غير الله ، وتقرر أن دعاء غير الله شرك .

عبادة الأولياء : يمارى فى الحق الذين يجادلون عن الباطل ، فيزعمون أن الله مادمغ المشركين بالشرك إلا لأنهم كانوا يدعون أصناماً ، ويسمون معبوديهم بالآلهة ، ويتخذونهم شركاء ، ويعكفون على تماثيل وأوثان . وقد وصفهم القرآن بذلك : وهذا الوصف يحدد مفهوم الشرك ، ويبين سببه . ثم يقولون : أما نحن فندعو أولياء صالحين لا أصناماً ، ولا نسميهم بآلهة ، ولا نتخذهم شركاء لله !! وأقول رداً على هذا الباطل أولا : هل إذا أقمت الصلاة لرسول ، وأديت ، زكاة مالى لقِدِّيسٍ أكون مؤمنا أما إذا أديتهما لشيطان فإنى أكون مشركا ؟ أو الحق أن فاعل هذا مشرك فى الحالين ؟ ويقينى أن هؤلاء المجادلين يدينون بأن الصلاة للملاك كالصلاة للشياطين أى أن كليهما شرك . فلم لا يقرون بهذا فى الدعاء وهو مخ العبادة كما بين الرسول ؟ لم لا يقرون أن دعاء الولى كدعاء الصنم ، وهو أن كليهما شرك ، وقد أقروا بذلك فى فعل الصلاة ؟ ذلك ؛ لأنهم يؤمنون بأن الدعاء ليس عبادة . وما بعد هذا مُشَاقَّةٌ لله ولرسوله . ثم إن الشرك هو صرف أى نوع من

أنواع العبادة ـ والدعاء هو العبادة ـ إلى غير الله سواء أكان ذلك « الغير » رسولا أم ملاكا أم وليـا ، كان صنما أم وثنا أم قبراً ، وسواء سميته إلهاً ، أم شريكا أم سميته ولياً أو شفيعاً ، بل حتى شيطاناً وطاغوتاً « فالغيرية » مطلقة غير مقيدة بشيء ، ولا مميزة بوصف . فإذا توجهت بعبادة ما إلى « غيرما » فقد جعلتـه لك إلهاً ، وعبدت ظنا ، وأشركت مع الله وهما تجسد لك فى صورة « هذا الغير » (٥٣ : ٢٢ إن يتبعون إلا الظن ، وما تهوى الأنفس) (٢٥ : ٤٣ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تـكون عليه وكيلا) وهكذا قد يؤلّه صاحبُ الهوى هواه إذا صرفه عن الحق وإذا سألته . لَعَن الهوى وأتباع الهوى !!

هذا ـ وكتاب ربنا الحـكم الفصل حكمت آياته على من يدعون الأولياء بالشرك كما حكمت على من يدعون الأصنام (٣٩ : ٤١ مثل الذين اتخذوا من الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً . وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون) فهل تحمد للقرآن ماشفا به نفسك ؟(٣٩ : ٣ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أى ماندعوهم، ونقرب لهم القرابين ، وننذر لهم النذور إلا ليشفعوا لنا عند الله فما عبد المشركون هؤلاء الأولياء إلا بذلك . وصور الشرك الآن هى بعينها صور الشرك فى الجاهلية (١٣ : ١٦ قل أفاتخذتم من دونه أولياء لايملـكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟) (١٨ : ١٠٢ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ؟)سيقولون نحن لانتخذهم من دون الله بل « مغ » الله !! ولـكن . هل الشرك إلا هذا يا بلهاء ؟! (٤٢ : ٩ أم اتخذوا من دونه أوليـاء ؟ فالله هو الولى) (٦ : ١٤ قل : أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ؟) .

وقد جعل الله سبحانه اتخاذ الأولياء شركا ؛ لأنه جل شأنه هو الولى وحده فليس للمؤمن من ولى فى الدنيـا والآخرة سواه (١٢ : ١٠١ فاطر السموات

والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة) (٧:١٩٦ إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) (٢ : ١٠٧ وما لكم من دون الله من ولى ، ولا نصير) (٤ : ٤٥ وكفى بالله وليا ، وكفى بالله نصيراً) ولئن كان يكفر المشركون فى الدنيا بأن الله وحده هو الولى ، فيتخذون معه أولياء . فإنهم فى الآخرة سيرون الحقيقة علوية الإشراق (١٨ : ٤٤ هنالك الولاية لله الحق . هو خير ثواباً وخير عقبى) .

وأنت لوتتبعت موارد اسم « الولى » الذى سمى به الله نفسه فى آى القرآن لوجدته مقترناً بمثل (فاطر السموات والأرض ، نزل الكتاب) فهل أولياء المشركين فطروا السموات والأرض ، أو نزلوا كتاباً حتى يتخذوهم أولياء ؟؟

لم وصف الله المشركين بأنهم اتخذوا آلهة : القرآن عربى مبين يجب تفسير كلماته بما لها من معان فى لغته ، و بذكر معانى كلمة إله واشتقاقها فى اللغة يظهر لك السبب الذى من أجله وصف الله عبَّاد الأولياء بأنهم اتخذوا آلهة من دون الله ، وكلمة إله مشتقة : إما من أله إلهة إذا عبد ، أو من أله إذا تحير ، أو من ألهت إلى فلان أى سكنت إليه ، أو من أله إذا فزع من أمر نزل به ، فآلهه صديق له أى أجاره أو من أله الفصيل إذا ولع بأمه « وهى الناقة » . هذا هو اشتقاق كلمة إله فى اللغة . فعلى الأول يكون سبب وصفهم بذلك هو أنهم جعلوا لهم معبودين مع الله ، وعلى الثانى هو أنهم حيروا عقولهم فى شأنهم ، فلم يروهم مثلهم لله عبيدا ، وعلى الثالث هو سكون قلوبهم إلى ذكرهم ، ونفوسهم إلى دعائهم . وعلى الرابع هو فزعهم إليهم عند الشدائد ينشدون منهم الإجارة من الكروب،وعلى الخامس هوو لعهم الشديد بهؤلاء وشدة تعلقهم بهم . تلك هى الأسباب التى بها أو ببعضها وصف الله سبحانه أولئك بأنهم اتخذوا مع الله آلهة أخرى إذ كانوا يعبدون أولياءهم بالدعاء ، و يفزعون إليهم عندالشدائد ، و يرون ذكرهم أروح ماتسكن إليه النفوس واليوم يعبد الناس الأولياء بالدعاء والنذر والحلف بأسمائهم والطواف حول قبورهم ،

فألهوهم بهذه العبادة . ولا تطمئن قلوبهم إلا بذكرهم ، ولا يسكنون إلا إلى دعائهم ولا يستروحون أنسام الجنة ـ فى زعمهم ـ إلا عند قبورهم ، فألهوهم بهذا الذكر وهذا السكون ؛ لأن الله وحده هو الذى بذكره تطمئن القلوب . ثم إنهم لا يفزعون فى الملمات إلا إليهم ، ولا يستجيرون من الكروب إلا بهم ، فألهوهم بهذا . فليس أولياء المشركين اليوم آلهة لهم بمعنى واحد ، بل بكل معنى تدل عليه كلمة إله . فهم لهم عابدون ، وفى شأنهم مُحَيَّرون ، ولذكرهم يطمئنون ، وإليهم عند الروع يفزعون ، وبهم عند الكروب يستجيرون . ويتخذونهم أولياء ، والله هو الولى . وكما دمغ الله المشركين بأنهم عبدوا آلهة ، يدمغ القرآن هؤلاء بذلك أيضاً فما نسب المشركون قط إلى أوليائهم صفة من صفات الله التى تختص بربو بيته ، من خلق ، أو رزق ، أو إحياء ، أو إماتة ، ولا ألهوهم على أنهم كالله فى صفاته وأسمائه ، بل بما بينت لك مما قررته لغة القرآن لمعانى كلمة «إله» فهل تؤمن بعد أن هداك القرآن بأن دعاء غير الله تأليه لذلك الغير ، وأن داعى الولى يجعله بالدعاء إلٰها له . سواء سماه إلٰها ، أم لم يسمه ، فلا عبرة بالأسماء .

لم وصف الله المشركين بأنهم اتخذوا شركاء : الشريك فى اللغة هو من له شركة مع آخر ، أو آخرين فى شىء مادى أو معنوى كما تقول : شاركت فلانا فى تجارته ، أو أمره . وليس بلازم أن يكون الشريكان متساويين فى الذات والصفة ، ومقدار الشركة . إذ يتحقق وصف الشخص بأنه شريك آخر بأقل جهد وأقل مال ، وإن كان أحدهما أميرا ، والآخر له عبدا . ولما كان المشركون يدعون أولياءهم ، وينذرون لهم ، ويحلفون بأسمائهم ، فقد دمغهم القرآن بأنهم جعلوا لله شركاء ؛ إذ عبدوهم بالدعاء والحلف ، والنذر ـ وكل عبادة فإنما هى لله وحده ـ فأشركوهم مع الله فيما هو لله وحده .

ولهذا وسمهم الله بأنهم فى الحقيقة لم يتبعوا شركاء ، بل ظنا توهموه فعبدوه (١٠ : ٦٦ ألا إن لله من فى السموات ، ومن فى الأرض ، وما يتبع الذين

يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن ، و إن هم إلا يخرصون) .

ذلك ـ ما بسببه وصف الله أولئك بأنهم اتخذوا شركاء .. ومنه توقن أنهم لم يكونوا يفهمون أن أولياءهم يشاركون الله فى ملكه ، أو خلقه ، أو قدرته ، ولافيما يجب أن يُعْبَد به وحده . إذ كانوا لايرون فى دعاء الأولياء ، أو النذر لهم ، أو الحلف بهم عبادة ! ! تماماً كما يفهم المشركون اليوم ! !

سبب وصف الله لهم بأنهم عباد أصنام : ماعُبِدَ الصنم فى عصر لذاته ، بل لغيره وهو مَنْ أقيم باسمه الصنم . . وقد عُرِّف الصنم بأنه جثة مُتَّخَذة من فضة أو نحاس أو خشب . فإن كان من حجارة فهو وثن . والحق أن الصنم هو كل ماعُبِد من دون الله ، أو فتن عن حب الله . ومثله الوثن . يؤيد هذا الرأى مفهوم دعاء الخليل عليه السلام (١٤ : ٣٥ واجنبنى و بَنِيَّ أن نعبد الأصنام) تُرى أيقصد الخليل بدعائه أن يُجَنِّبه الله ـ فحسب ـ عبادة تلك الجثث التى اتخذت من فضة أو نحاس ، أو خشب ؟ لا يمكن أن نفهم ذلك من دعاء الخليل عليه السلام ، و إلا نسبنا إليه أنه لم يرد من الله أن يجنبه عبادة الأوثان ، والطواغيت ، والشيطان ، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله . فكل هؤلاء عُبِدوا ومازالوا يُعْبَدون ، وكل هؤلاء ليسوا جثثاً من فضة أو خشب . ومعاذ الله أن يكون إبراهيم لايحب أن يجنبه الله عبادة هؤلاء ، فلم يبق إلا أنه أراد بدعائه أن يجنبه الله عبادة غيره . وسمى هذا الغير «بالصنم» . يطلقه على كل ما يُعْبَد من دون الله ، ومثل ما نفهم فى الصنم نفهم كذلك فى الوثن أنه كل مُضِلٍّ أو فاتن عن عبادة الله ، أو كان دليل ضلال وفتنة . بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم ـ وقد رأى على صدره صليباً ـ انزع عنك الوثن . وما كان الصليب حجرا . بل كان من فضة [1] .

---

(١) وفى الآيات يستعمل كثيرا هذا مكان ذاك ، فهى كلها شىء واحد فى الحقيقة =

سبب إقامة الأصنام وعلة عبادتها : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب ، أما « وَدٌّ » فكانت لِكَلْبٍ « بِدَوْمَةِ الْجَنْدَل » و « سُوَاعٌ » لِهُذَيْل و « يغوث » لمراد ، ثم صارت لبنى غطيف « بالجوف أو الجرف » عند سبأ .

أما « يَعُوق » فكانت لِهَمْدان ، وأما « نَسْر » فَلِحِمْيَر لآلِ ذى الْكَلاع ، وكلها أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انْصِبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم . ففعلوا ، فلم تُعْبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عُبِدَت[1] » وبمثل قول ابن عباس ، قال الكلبى فى كتابه « الأصنام » ص ٥٢ . ثم قال ما يأتى (ثم جاء القرن الثالث ، فقالوا ما عظَّم أوَّلُونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله فعبدوهم) وقال محمد بن كعب عن (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) : (هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح ، فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون بهم ، ويأخذون مأخذهم فى العبادة ، فجاءهم إبليس ، وقال لهم : لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ، ففعلوا ، ثم نشأ قوم بعدهم ، فقال لهم إبليس : إن الذين قبلكم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم ، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك ، وسميت تلك الصور بهذه الأسماء ، لأنهم صوروها على صور أولئك القوم من المسلمين)

= قال ابراهيم (٢١ : ٥٣ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) وفى السورة نفسها (٢١ : ٥٧ وتالله لأكيدن أصنامكم) وفى سورة العنكبوت يقص الله سبحانه قول ابراهيم لقومه (٢٩ : ١٧ إنما تعبدون من دون الله أوثانا) وهكذا عبر بالتماثيل والأصنام والأوثان عن شىء واحد ، لتؤمن بما يقرره الحق وهو أن الصنم أو الوثن أو الطاغوت يطلق على كل ما عبد من دون الله سواء كان حيوانا أم إنسانا أم جمادا

(١) البخارى

وروى ابن جرير عن محمد بن قيس قوله : (كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم) وإلى مثل هذا ذهب عكرمة والضحاك وقتادة وابن إسحاق : وقال ابن عباس رضى الله عنهما ؛ كما روى البخارى بسنده عنه : (كان اللات رجلا يلت سويق الحاج) .

وقال ابن الكلبى فى (الأصنام) ص ١٦ : واللات بالطائف ، وهى أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة ، وكان يهودى يلت عندها السويق) وهو كقول ابن عباس . ويقول الشهرستانى (وَضْعُ الأصنام حيثما قدر إنما هو على معبود عليه الحياة غائب ، يكون الصنم المعمول على صورته ، وشكله وهيئته نائبا منابه، وقائما مقامه ، وإلاَّ فنعلم قطعا أن عاقلا ما لاينحت بيده جسما صورة ، ثم يعتقد أنه إلٰهه . . . لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، وربطوا حوائجهم بها من غير إذن وحجة وبرهان وسلطان من الله تعالى ـ كان عكوفهم ذلك عبادة ، وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها ، وعن هذا كانوا يقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) . مما ذكرناه لك تعلم أن الأصنام إنما أقيمت بأسماء أناس اعتقد قومهم فيهم الصلاح وأحبوهم وأن هذه الأصنام لم تعبد لذاتها ، وإنما عبدت تبعا لعبادة من أقيمت بأسمائهم .

لهذا يصفهم الله سبحانه مرة بأنهم عباد أصنام ، ومرة عُبَّادَ أولياء . فهم عباد أصنام بالسعى إليها ، والطواف حولها ، والعكوف عليها ، وتقديم القرابين لها ، وهم عباد أولياء بدعائهم لأصحاب هذه الأصنام ، وطلب حوائجهم منهم . وهكذا القبوريون اليوم . يقبلون أستار الضريح ويطوفون حوله ، ويزينونه ، ويبنون القباب عليه ، ويقربون له النذور . فهم بهذا عباد قبور صراحةً وعباد أولياء ضِمنا. ثم هم فى طوافهم حول ضريحٍ يدعون صاحبه الميت ، ويستغيثون به ،

و يستنجدون ، و يطلبون المدد . فهم بهذا عباد أولياء صراحة، وعباد قبور ضمنا . فإن سميتهم عباد قبور، فأنت صادق ؛ باعتبار مايصنعونه للقبور ، و إن سميتهم عباد أولياء ، فأنت صادق ؛ باعتبار مايعبدون به أولياءهم من دعاء[1]، ونذر وحلف . وهم هم فى الحالين بشركهم الأكبر ! ! و إن سميتهم عباد أوهام وشهوات فأنت صادق ، فعابد القبر إنما فتنه هواه فأضله فعبده، وعابد القبر إنما يصوِّر فى الضريح و يصنع له ماتنزو به شهواته !

وهذا هو سر التعبير أحيانا (بِمَنْ) فى موضع والتعبير (بما) فى موضع فى قصة الشرك الواحدة فى القرآن . أو سر التعبير بما له دلالة على ما يعقل و بما له دلالة على ما لا يعقل فى الموضع الواحد ، ووضْع هذا مكان ذاك فى القصة الواحدة . فإذا عُبِّر بـ (مَنْ) الدالة على العاقل ؛ فالمقصود ذوات (الأولياء) و إذا عُبِّر بـ (ما) الدالة على ما لا يعقل فالمقصود ما أقيم بأسماء الأولياء من أصنام وتماثيل ، وكلا التعبيرين لا يختلف أحدهما عن صاحبه إلا بالاعتبار أو كلا هما يعبر عن ذلك (الغير) الذى عُبِد من دون الله ، فتختص (من) بذاته ، وتختص (ما) بالصنم ، أو القبر الذى أقيم باسمه (٤٦ : ٥ ومن أضل مِمَّن يدعو من دون مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة ؟) وفى الآية التى قبل هذه الآية من السورة نفسها وهى الأحقاف (قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض) فعبر عن شىء واحد بـ (من ، وما) فلا يخدعك عباد القبور عن الحق بإلباسه بالباطل حين يزعمون أن شرك الجاهلية كان سببه دعاء الأصنام ، ولذلك يعبر الله عنها بـ (ما) الدالة على ما لا يعقل . أما نحن فندعوا أولياء ! ! ! وأنت قد عرفت من القرآن سر التعبير بـ «من وما» ، ورأيته يعبر بهما فى الموضع

---

(١) والواقع أنهم لا يدعون إلا قبورا ، إذ ليس ثم ما يتجاوب مع دعائهم إلا أصداء صياحهم ، ولا يستجيب لهم إلا صدى الصوت يتردد فى جوانب القباب ! !

الواحد ، و يضع إحداهما مكان الأخرى لما بينت لك من قبل . (٢٦ : من ٦٩ إلى ٧٧ واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون ؟ قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى [1] إلا رب العالمين) قال إبراهيم : هل يسمعونكم بعد أن قالوا : نعبد أصناماً، فنظل لها عاكفين لتفهم بأنه يقصد بقوله من أقيمت لهم هذه الأصنام ، و إلا لقال لهم : هل تسمعكم . ثم ذكر أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، و بعدها ذكر فإنهم عدو لى إلا رب العالمين [1] مما يشعرك أن إبراهيم يقصد الأصنام ، ومن أقيمت بأسمائهم الأصنام ، و إلا لقال : فإنها عدو لى ، وهكذا يُعبّر فى الآيات التى تتناول قصة واحدة عن معبودى المشركين بما له من الألفاظ دلالة على العقلاء ، و بما له دلالة على غير ذلك ، لما سبق بيانه من أن المشرك يعبد بعبادة الولى الواحد آلهة متعددة ، منها : إلٰهه الصنم أو القبر الذى أقامه باسم الولى ، أو الستر فوق عبادته لإلٰهه الولى ، ومما سبق ذكره من بيان الأسباب التى وصفهم الله من أجلها بأنهم عباد آلهة ، ومتخذوا شركاء ، وعباد أصنام ، وأوثان ، وتماثيل ـ تؤمن أن ذلك كله ناتج عن عبادة الولى ، وأن الفتنة بالصالحين هى سبب الشرك . فإذا مارأيت اختلافاً فى التعبير عما يعبده المشركون ، فذلك لاختلاف الاعتبارات ، و إلا فالشىء المعبَّر عنه واحد ، فمعبودهم يوصف بأنه ولى باعتبار مافهموه فيه ، وموالاتهم له بالدعاء وغيره ، وهذا هو الوصف الأصيل ، و يوصف بأنه شريك ؛ باعتبار أنهم أشركوه فى العبادة مع الله ، و بأنه إلٰه ؛ باعتبار أنهم ألّهوه بكل معانى التأليه ، من عبادة ، وفزع إليه ، واستغاثة به ،

---

(١) يدل هذا الاستثناء على أن قوم ابراهيم كانوا يعبدون الله أيضا وهكذا تظهر حقيقة الشرك واحدة فى كل زمن . عبادة لله ولغير الله سبحانه . فى وقت واحد

ويوصف بأنه وثن أو صنم ، أو تمثال ؛ باعتبار المُشاهَد المُحَسّ ، أو باعتبار ما أقيم باسم الولى المعبود ، ويوصف بأنه طاغوت ؛ باعتبار أنه أضلهم ، أو ضلوا هم به ، و بالشيطان باعتبار أنه مصدر الإغراء بعبادة هذا المعبود (٤ : ١١٧ إن يدعون من دونه إلا إناثاً ، وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً) . وصفها بالإناث ، و بالشيطان ؛ فى آية واحدة ، وقال الخليل عليه السلام لأبيه : (١٩ : ٤٢ يا أبت لم تعبد مالا يسمع ، ولا يبصر) ثم قال (١٩ : ٤٤ يا أبت لا تعبد الشيطان) ويوصف بأنه ظن ، باعتبار ماظنوه فيه من نفع وضر ، و بأنه هوى ؛ باعتبار أنهم انقادوا لأهوائهم فيه (١٠ : ٦٦ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون) (٥٣ : ٢٣ إن يتبعون إلا الظن ، وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) (٤٥ : ١٨ أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه ، وأضله الله على علم) .

وتوصف معبوداتهم بأنهم أسماء لاوجود لمسمياتها، باعتبار الحقيقة حيث سموهم أولياء ، والله هو الولى ، وشفعاء ، والله هو الذى يملك وحده الشفاعة (١٢ : ٤٠ ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان) فلا يفتنك المشركون بكثرة الأوصاف فإنها لموصوف واحد . هو « غَيْرٌ » معبود من دون الله ، ولا باختلاف التعابير ، فالحقيقة المعبَّر عنها واحدة ، ولا يعتذر للمشركين اليوم معتذر بخرافة أن الجاهلية أشركت بعبادة الأصنام ، وتسميتها بالآلهة ، أما هؤلاء فإنما يدعون أولياء ، فقد وضح نور الحق من القرآن مشرقا يبدد كل مايطغى به الباطل من ظلمات .

الغاية من عبادة الأولياء : ماعبد المشركون فى كل عصر صالحيهم إلا لهذه الغاية ، هى أن يشفعوا عند الله لهم ، وعملهم لهذه الغاية صادر ولا ريب عن اعتقادهم فى أوليائهم أنهم يملكون الشفاعة ، وإلا مادعوهم من أجلها ، وسألوهم إياها ، ولست أدرى لم يدخل المشركون الأمر من غير بابه ؟ ! فإذا كانوا يعبدون

هؤلاء الأولياء ابتغاء شفاعتهم ، فهلا أخلصوا العبادة لله وحده ، لأنه يملك سبحانه الشفاعة وحده ؟ وهو الرحمن الرحيم ، الغفور الودود ! ! يسألون العبيد الموتى أن يمنحوهم ما يملكه وحده ربهم الحى القيوم ، ولا يسألون مالك الملك مايذلون به نفوسهم للأصنام ! ! أفى شرعة العقل ـ ما دمتم لا تؤمنون بالقرآن ـ ما يجيز للإنسان أن يطلب الشىء ممن لا يملكه ؟ ! فى عقل الشرك وحده ، فقد أباح لعبيده أن يسألوا الصخرة الصماء رحيق الجنة ، والميت أمداد البركة فى الحياة ، والعاجز الضعيف الفقير ، نِعَمَ القدرة والقوة والغنى . وسَوَّل لهم أن رحمة القبور أقرب إليهم من رحمة الخلاق الرحيم . فاستجاروا بمن لا يجير نفسه من دود الأرض ، واسترحموا من لا يملك أن يرحم نفسه .

إن الشفاعة ملك خالص لله وحده ، ولسنا نعلم أسماء من سيأذن الله لهم بالشفاعة عنده يوم القيامة إلا إسم محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن مافى القرآن ولا فى السنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك هذه الشفاعة ، أو أنه يشفع من عنده لمن شاء ، فمن الشرك القول « نسألك الشفاعة يارسول الله » ؛ لأنك بهذا تسأله مايملك الله وحده . ومن ضراعة الإيمان أن نقول: « اللهم إنا ندعوك أن تجعلنا ممن يستحقون يوم القيامة شفاعة رسولك محمد صلى الله عليه وسلم » بَيْدَ أن الشيطان يُسَوِّل لعباده أن لا فرق بين السؤالين . وأن التفريق بينهما تَزَمُّت وتنطع فى الدين ! ! ثم يدفعهم إلى حرب المؤمنين بالفتنة والبهتان ، فيفترون عليهم أنهم ينكرون شفاعة محمد ! ! لا ياعبيد الطاغوت ، ويا أحلاس الفتنة فإنا ـ والله الذى نعبده وحده ـ نؤمن أصدق الإيمان بأن الله سبحانه سيأذن للرسول صلى الله عليه وسلم بالشفاعة يوم القيامة حين يقع تحت العرش ساجداً . ويفتح الله عليه ويلهمه من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبله ، ويقال له : يامحمد ارفع رأسك وسل تعط ، واشفع تشفع[1] ، وفرق كبير ـ كالفرق بين الإيمان

(١) اقتبسنا هذا من حديث الشفاعة المتفق عليه بين البخارى ومسلم عن أبى هريرة

والشرك ـ بين هذا الحق ، و بين ذاك الباطل ، فرق كبير بين قول الحق ، وهو أن الله يأذن فى الشفاعة لرسوله ، و بين قول الباطل ، وهو أن الرسول يملك الشفاعة ثم اسمعوا هذا الحديث عن الرسول الصادق الأمين « أنا فَرَطُكم [٢] على الحوض ، ولأنازعن أقواماً ، ثم لأغلبن عليهم . فأقول : يارب أصحابى أصحابى ، فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك [٣] ! » أفيدل هذا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم مالك للشفاعة ، يتصرف فى ملكه كيف يشاء ؟ أم أنه مأذون فيها فحسب ، مقيد فيها بمشيئة الله ، و بمن يعلم سبحانه أنهم يستحقون الشفاعة ، فهنا فى الحديث أصحاب ينازع الرسول فى شأن ورودهم الحوض ، ثم يغلب عليهم ، و يقول الله له : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك . فتأمل .

ولا أدل على الإيغال فى افتراء الكذب على الله من الاعتقاد فى ولى بعينه أنه يشفع عند الله سبحانه . فمن زعم أن فلاناً له الشفاعة ، فقد ادعى معرفة الغيب ، وقال على الله بغير علم ، فما بالك بمن يسألون الأنصاب ، والأصنام ، والتماثيل ، و يسألون القبور والمشاهد ؟ و يزعمون لأربابها جميعاً الشفاعة ؟!! و إليك جلال الحق من القرآن يسجد له قلب المؤمن (٣٩ : ٤٤ قل : لله الشفاعة جميعاً . له ملك السموات والأرض) . فهل لقبورهم وأوليائهم ملك فى السموات والأرض حتى يزعموا أن لهم الشفاعة ؟

و إليك ما يقصه الله عن المشركين عبدوا أولياءهم ابتغاء شفاعتهم (١٠ : ١٨ و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، و يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات والأرض ؟) إن من يزعم لوليه الشفاعة فزعمه هذا عدوان ظالم على علم الله ، أواتهام له جل شأنه بأنه لا يعلم بعض الحقائق

(١) أى متقدمكم إليه يقال فرط إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء ويهيء لهم الدلاء والأرشية « أى حبال دلاء البئر » .

(٢) متفق عليه بين البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

الغيبية فى السموات ، أو فى الأرض ؛ كما تخبر الآيه السابقة (٦:٩٤ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خوَّلْنَاكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون) ، ما أسألك هنا إلا التفاتة فكر المؤمن إلى ذكر « شفعاء وشركاء » فى هذه الآية ، لتعلم فوق علم أن المشركين كانوا يعبدون أولياءهم ابتغاء أن يشفعوا لهم عند الله ؛ إذ كانوا يعتقدون أن لهم الشفاعة ، فاتخذوهم شركاء بتلك العبادة ، وذلك الاعتقاد .

بين المشركين وشفعائهم يوم القيامة : (٣٠ : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ويوم تقوم الساعة يُبْلِس المجرمون ، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ، وكانوا بشركائهم كافرين ، ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) . مصير كله فزع ويأس وعذاب . والتذكير به حق يصعق باطل الشرك . فانظر ذلك المصير : شدة مفاجئة تطوى المجرم على اليأس والذهول والحزن العميق . خيبة أمله فيمن كان يزعم أنهم له عند الله الشفعاء ، خزى مُجَلَّل بالعار ، والحسرة البالغة إذ يعلم حينئذ أنه كان بالله مشركا بسبب هؤلاء الشفعاء ، أو ثورة نفسية تدفعه إلى أن يمج فى وجه شفعائه بكلمة الكفر بهم .. ويفصل الدَيَّان بالحق ، ويحكم بالجزاء ، فإذا الناس فريقان : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير . وثَمَّ فراق أبدى لا نهاية له يعانيه المجرم يوم القيامة فى السعير . فلا صديق ولا شفيع ولا خليل !!

وسيجِدُّ المشركون فى البحث عن شفعائهم يوم القيامة، ويقولون :(٧ : ٩٣ قد جاءت رسل ربنا بالحق . فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ؟) وما هى إلا لحظة تفجأهم بعدها الحقيقة الرهيبة الصاعقة . ثم تقحمهم فى السعير الزبانية ، فتشويهم جهنم شياً ، فيصرخون ثائرين فى وجوه من ألَّهُوهم فى الدنيا ، وأضلوهم (٢٦ : ٩٧ إلى ١٠١ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ، وما أضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم) . فياله من مصير !! نعوذ

بوجهك الذى أشرقت له الظلمات يارب العالمين .

شبهة مخجولة : يخدع سدنة الطواغيت عبيدها ، فيقصون عليهم أن آيات الكتاب التى تحذر من الشرك، وتتوعد المشركين باللعنة والغضب والخلود الأبدى فى السعير ، إنما هى خاصة بمشركى الجاهلية . أما نحن فلا صلة لها بنا ؛ لأنا بالشهادتين ننطق !! والذى يفترى هذا الكفر يريد به تخصيص شريعة الله بمن نزل القرآن فى عهدهم !! وإذا كانوا يقولون ذلك عن الآيات التى تنهى عن الشرك وتحذر منه ، فلم لا يقولون مثله عن الآيات التى تدعو إلى الإيمان وتأمر به ؟ ألا إنه الشعار يشتد بصاحبه حتى يعض نفسه !!

إن الشريعة دائرة بين الإثبات والنفى ، دائرة بين الأمر والنهى، وعنوانها (لا إله إلا الله) تثبت الألوهية لله ، وتنفيها عن غيره ، ولا يمكن فصل الإثبات عن النفى ، ولا الأمر عن النهى ، وإلا كان الشرك والإلحاد ، فإذا جعل النهى عن الشرك خاصاً بعهد نزول القرآن ، فقد فصلوا عن الدين شطره ، أو جحدوا القرآن كله . وهل ينفع تلفظ الشفاه بلا إله إلا الله ، وفى القلوب مئات الآلهة ، والغايات من العبادة ابتغاء وجوه العبيد ، لا وجه الخلاق العلى الكبير؟ (٣٩:٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) . وما كنت لأعنى بهذه الأسطورة الملحدة . لولا خطاب جاءنى يحمل توقيع عالم يحمل تحت إبطه وعلى ذراعه ، وفوق رأسه شهادة « التخصص » . يقول العالم المتخصص فى خطابه بالحرف الواحد : « أتحداك أن تأتى بدليل واحد على شرك داعى الولى على شرط ألا تستشهد بالآيات القرآنية التى تحذر من الشرك فإنها خاصة بالمشركين فى عهد الجاهلية !!! »

تجديد فى الدفاع عن الشرك : على ملأ مشهود محشود وقف الشيخ المجدد يدفع عن عقيدة عباد الأولياء اتهامها بالشرك ، متظاهراً ـ فى نعومة سجاجية ـ

بمظهر الحَكَم الفصل بين الحق والباطل ، فقال ـ ليختلب الأسماع بفتنة الزور والرياء : لا يجوز دعاء أحد غير الله قط ! ! وليت الشيخ تركها للسماء تنفحها بالرضى ! ! ولكنه نظر إلى العيون الرانية إليه فى ترقب ، فاعتذر عمن يقترف ذلك بأنه جاهل حسن النية ! ! وقد رددنا على هذا الحَبَل المفتون من قبل ، فارجع إليه .. ثم تأنق الشيخ ، فأرسل مِنْ على منصته حكم شريعة هواه ، فقال : مامنْ شَكٍّ فى جواز التوسل بالحق والجاه ، كأن أقول : اللهم بجاه فلان عندك ـ أو حقه ـ إلاماقضيت لى حاجتى ! ! وما أدرى كيف استطاع الشيخ أن يتناسى مادرسه عن حروف الجر ، وأن للباء أربعة عشر معنى لا يصلح منها هنا إلا أن تكون الباء للقسم . فالقائل : بجاه فلان يارب ، أو بحقه إنما يقسم على الله . والقسم على الله بذلك فيه أمران خيرهما شرك: اعتقاد أن الله يغير و يبدل مايريد تبعاً لما يريد المقسِم عليه بالبشر ، وأنه جل شأنه ، واستغفر الله ـ بخيل كنود لا ننتزع منه الخير إلا بالقسم عليه بجاه أو حق عبيده !! فى حين أنا ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد من يبذل الخير ، و يجود بالفضل سمحا ودوداً دون مسألة ، أو يبادر بالمنح حين يُسْأَل من غير إلحاف . وفى حين أنا ـ والله أعلى وأكبر ـ نطوى القلوب على مقت من لايجود إلا بعد إلحاف فى المسألة ، أو بعد القسم عليه!! أفنجعل نصيب الجواد الكريم الرحيم من القلوب نصيب من نمقت من عبيده ؟!

الأمر الثانى : المخالفة الصريحة للنص القاطع بالنهى عن الحلف بغير الله . وسيأتيك ـ قريباً ـ أحاديثه ولكن من يدرى ؟ فلعل الشيخ يزعم لنفسه أنه أهدى من الرسول هدى ، وأقوم قيلا !!

ولعل الشيخ يزعم أن الباء ليست للقسم بل للسببية . ولنفترض صحة هذا الزعم ـ و إن كان مقترفو هذه البدعة الوثنية يوقنون بأنها قسم ، بل يصرحون بلفظ القسم قبل هذه الصيغة ـ فهل جعل الله من أسباب طاعته ، ودلائل توحيده ، ووسائل عبادته سؤاله ـ عز وجل ـ بجاه المخلوق ، وحقه ، وذاته ؟ ! وكيف وهو

القائل سبحانه (٣٥ : ١٨ ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مُثْقَلَة إلى حملها لا يُحْمَل منه شيء) (٣٨:٧٤ كل نفس بما كسبت رهينة) (٣٩:٥٣، ٤٠ وأن ليس للانسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يُرَى) فهل جاء المخلوق ، أوحقه، أو ذاته من سعى الإنسان ، وكسبه حتى نستحق عليه الثواب ، واستجابة الدعاء؟! ثم إليك هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعوته أَمَسَّ الناس رحما به إلى العمل « يامعشر قريش اشتروا أنفسكم من النار ، يابنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، ياصفية ـ عمة رسول الله ـ لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يافاطمة ـ بنت رسول الله ـ سلينى من مالى ماشئت لا أغنى عنك من الله شيئاً [1] » وإليك ما يوجب التوكل على الله مع العمل : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا. إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل [2] » فأين من هدى الرسول مايزعمه الشيخ ؟ .

ثم إن الشيخ المجدد يدين بالمذهب الحنفى ؛ ولذا نذكره برأى الإمام الجليل أبى حنيفة، وأجل صاحبيه أبى يوسف . قال القدورى فى كتابه «شرح الكرخى» « قال بشر بن الوليد : حدثنا أبو يوسف . قال : قال أبو حنيفة : لا ينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول : بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك » والشيخ لايستطيع مخالفة الإمام أبى حنيفة فى سنن الغسل فكيف به يخالفه فى أصل الدين وأسّه وهو التوحيد ؟ !

---

(١) البخارى (٢) البخارى . والحديث لا يناقض قوله تعالى (جزاء بما كنتم تعملون) فالمنفى فى قول الرسول منفى « بباء المقابلة ومعناه أن العمل لايقابل الجزاء بل الجزاء أكبر وأعظم » أما ما أثبت فى الآية فمثبت « بباء السبب » أعنى تجعل العمل سببا للجزاء . فالنفى والإثبات معناه إذن « العمل لا يقابل الجزاء ولا يساويه ولكنه سبب له » .

وقال أبو يوسف معقباً على قول أبي حنيفة : « بمعقد العز من عرشه هو الله ، فلا أكره هذا . وأكره أن يقول : بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك أو بحق البيت الحرام، والمشعر الحرام » وقال القدروى «المسئلة بخلقه لاتجوز ؛ لأنه لاحق للخلق، فلاتجوز وفاقاً » وقد أجمع أئمة المذاهب جميعاً على هذا، فما بال الشيخ يخرج على الإجماع، وهو مؤمن بحجية الإجماع ؟ لاشيء إلا عناد الجحود بالحق، ومخالفة من يقول بالحق من أجلاء الشيخ !!

وهكذا يشرى العناد بالدين ، ويكتم الحق ابتغاء رضى الجاهلية ، وتصدية الأكف الوثنية !! ثم يدهمنا الشيخ بطرائف تجديده ، فيقرر جواز الذهاب إلى قباب الأولياء ، ودعاء الله عند أضرحتها . ويحتج لباطله بزعمه أنها أمكنة طاهرة يُنزل الله عليها فيوض رحمته، فيعين هذا على إجابة الدعاء، ثم يغلِّف الشيخ المجدد باطله بشِفٍّ من فتنة النفاق فيقول، « أما الطواف حولها ، أو تقبيل أستارها وغير ذلك مما يفعله العوام فغير جائز قطعاً » ونسائل الشيخ: أهذا الجواز شرعي أم عقلي ؟ إن ادعى جوازه قياساً على المساجد الثلاثة . قلنا : ما أبعد الفرق ياصاحب الفضيلة!! فللمساجد الثلاثة نص خاص يجيز شد الرجال إليها، وينهى عنه إلى غيرها ، ويفضل الصلاة فيها على المساجد الأخرى . اللهم إلا إذا جوزت قياس اللعنة على رضى الرحمة ، والشرك على التوحيد ، والدنس على القدسية !!

و إن ادعى أنه جائز شرعا . فليأتنا بدليل واحد حتى من مذهب ، أو ليأتنا بأثارة من علم يثبت بها أن قباب الأولياء أمكنة طاهرة يستجاب فيها الدعاء ! ! أما الحق فيأتيه بأدلته من القرآن والسنة على أن هذه أمكنة لعنة ، لا رحمة . (٧٢ : ١٨ وأن المساجد لله ، فلا تدعو مع الله أحداً) وتلك القباب التى يشيد الشيخ بقدسيتها ليست مساجدها لله ، بل لمن فيها من الموتى ، ولا يجوز دعاء الله فى مكان شُيِّد على غير التقوى مُحادَّة لله ولرسوله . ويقول عليه الصلاة والسلام

« لعن الله اليهود والنصارى ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[١] » . فهى إذن ـ بصريح مفهوم الحديث ـ أمكنة لعن الله من يرتادها ، لا أمكنة رحمة . ثم ألم يعلم الشيخ أن عليا بن الحسين رضى الله عنهما رأى رجلا يعتاد قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقف فى فُرْجَةٍ كانت فيه ، ويدعو الله عندها ، فنهاه عن ذلك وزجره ، وذكَّره بقول جده العظيم صلوات الله وسلامه عليه «لاتجعلوا قبرى عيدا[٢] » ؟ أرأيت إلى على بن سيد شباب أهل الجنة يلحظ بفطنة المؤمن الرشيد ما فى عمل الرجل ـ وهو اعتياده القبر ، ودعاء الله فى فرجته ـ من مُحَادَّة لهدى الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ ! وما إخال الشيخ ـ على بقية من حسن الظن ـ يزعم أن قبور أوليائه أفضل عنده من قبر الرسول ؟ ! ويقينى لو أن هذه الفرجة كانت فى قبر (البدوى) لتداعى الناس إليها من كل فج عميق ولكُبْكِبَ عبيدُ القبور فيها طبقا عن طبق ! ! !

عقيدة مشركي الجاهلية

نذكر لك عقيدة مشركى الجاهلية ، لتقارن بينها وبين عقائد المشركين اليوم . وأترك لك الحكم : أى العقيدتين أشد إيغالا فى الشرك من الأخرى

(١٠ : ٣١ قل : من يرزقكم من السماء والأرض ، أمَّنْ يملك السمع والأبصار ، ومن يُخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله . فقل : أفلا تتقون[٣] ؟ !)

---

(١) متفق عليه ، وسيأتى قريبا فى فصل « فتنة القبور » حكم الله فى شأن مساجد القبور .

(٢) سعيد بن منصور وأبو يعلى والمقدسى .

(٣) اعتقد مشركوا الجاهلية أن الله سبحانه يدبر الأمر ، وبيده ملكوت السموات والأرض . فأين هذا من اعتقاد الصوفية فى أقطابهم أن لهم التصرف فى =

(٢٣: ٨٤ـ٨٩ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يُجير ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله قل : فَأَنَّى تُسْحَرُون؟) إيمان

= أقدار الله وملكوته ، ولذا ينادونهم « مدد ياأهل التصريف » وإليك مايتزندق به إبليسهم الأكبر « ابن عربى » قال أبو السعود لأصحابه : « إن الله أعطانى التصرف منذ خمس عشرة سنة ، وتركناه تظرفا ـ وهو تركه إيثاراً ـ وإنما تركناه لكمال المعرفة !!» ص ١٢٠ فصوص ط الحلبي ، أبو السعود يعطيه ربه التصرف فى ملكوته ولكنه يتظرف مع ربه فيترك التصرف ! ! وابن عربى يمنحه إلهه التصرف فيتركه لكمال المعرفة ! ! فأى رب هذا الذى يحتاج إلى زنديق ملحد يتصرف فى ملكوته ؟ ! إن الشيطان هو رب ابن عربى صَرَّفه فى إفساد عقائد المسلمين ، والكيد الذى ء اللئيم للاسلام ، وإليك مايقوله « قطب الواصلين » سيد الصوفية عبد العزيز الدباغ ! « إن أهل الديوان إذا اجتمعوا فيه اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد ، فهم رضى الله عنهم يتكلمون فى قضاء الله تعالى فى اليوم المستقبل ، أو الليلة التى تليه ، ولهم التصرف فى العوالم كلها العلوية والسفلية ، وحتى فى الحجب السبعين ، وحتى فى عالم الرُّقا ـ وهو ما فوق الحجب السبعين ـ فهم الذين يتصرفون فيه وفى أهله ، وفى خواطرهم ، وما تهجس به ضمائرهم ، فلا يهجس فى خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصرف رضى الله عنهم !! وإذا كان هذا فى عالم الرقا الذى فوق الحجب السبعين التى هى فوق العرش ، فما ظنك بغيره من العوالم » ، ياللصوفى القذر اللعين يزعم لأبالسته الأقطاب أن عرش الله وما فوقه تحت تصرفهم ! ! فى حين يقول مشركو الجاهلية إن الله يدبر الأمر ، وبيده ملكوت السموات والأرض ، ورب العرش العظيم ، فأى العقيدتين ألأم شركا ، وأخس دناءة ، وأطغى كفراً ، وأوقح لآمة ؟ ! إخالك تعرف الجواب جيداً ، وليعذرنى القراء فى هذه الثورة ، فما يملك المسلم نفسه حين يسمع من مثل الدباغ شتم الله وهجوه « نص الدباغ من كتاب الإبريز ج ٢ ص٩ ط ١٢٩٢ هـ » .

بالشاهد والغائب ، وتوحيد كامل لله فى ربوبيته ، إيمان كله يقين بأن الله هو الخالق الرازق المدبر مالك السماء والأرض رب العرش العظيم ، بيده ملكوت كل شىء ، يجير عباده ، ولا يُجارُ أحد منه إذا لم يجره سبحانه ، اتل الآيات وتدبرها فى لحظات مؤمنة فياضة بالخشيه ، ثم قارن بين عقيدة أولئك ، وعقيدة المتصوفه الذين يلعنون الشرك والمشركين ، ويزعمون أنهم المُثُل العليا لأحبة الله الربانيين . سلهم عن أقطابهم كيف يدبرون الأمر ؟ وعن أهل تصرفهم فيمن يتصرفون ؟ وعن محكمتهم الباطنية فيمن تحكم ؟! وسلهم وسلهم ، أو اقرأ — إذا شئت أن توقن بما أقول — كتبهم ! !

عند الشدة كان المشرك يخلص لله الدين : وكانت للمشركين لحظات عوابر يُخلصون لله فيها الدين(١٧ : ٦٧و إذا مسكم الضر فى البحر ضَلَّ من تدعون إلا إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) كانوا إذا مسهم ضر دعوا الله سبحانه،ودعوا أولياءهم ، فإذا ماحزب الأمر أخلصوا لله الدعاء ، فلا يستجيب لهم مِّمَّن يدعونهم إلا ربهم الرحمن الرحيم ، وفى علمه — جل شأنه — أنهم سيشركون به مرة أخرى ، ولكنه فياض الجود والرحمة سبحانه ، فلا يدع لحظة من عبادةٍ خالصة بلا جزاء كريم ، جزاء يهب به بعد دُنُوِّ لَيلِ الموت إشراقَ الحياة !! (١٠ : ٢٢ ، ٣٣ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها — جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذاهم يبغون فى الأرض بغير الحق) (٢٩ : ٦٥ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذاهم يشركون) (٣١ : ٣٢ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ،فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل خَتَّارٍ كفور) تفهم من هذه الآيات : أن المشركين كانوا يخلصون الدعاء لله عند الشدة ، وتفهم أن شركهم كان سببه

عدم إخلاصهم الدعاء لله ، وتفهم أن إخلاص الدعاء لله هو إخلاص الدين له سبحانه، و إخلاص الدين هو روح التوحيد،وفى الآيات هُدًى يشرق بهدى، وحق يضىء بالحق ، ولـكن ماذا نعمل للأحبار ! ! واستمع إلى إبراهيم عليه السلام يجادل بالحق قومه (٢٦ : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ قال : هل يسمعونـكم إذ تدعون ، أو ينفعونـكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) يبدهم إبراهيم بالحجة فيقول : دعاؤكم لهؤلاء يدل على اعتقادكم فيهم أمرين : أنهم يسمعون دعاءكم ، وأن عندهم ما يُرْجَى ويُخَاف ، أفمن أقمتم لهم هذه الأصنام ـ يملـكون أو تملك ـ لدعائـكم سمعاً ، ولـكم نفعاً وضراً ؟ ؟ ورغم عُتُوِّ الوثنية الجاحدة فى أولئك ، ورغم إيغالهم فى الشرك الأصم ، فإنهم كرموا إنسانيتهم هناعن الـكذب أمام إبراهيم ، وفزعوا إلى جواب الشرك فى كل زمن « وجدنا آباءنا كذلك يفعلون !! » ففرارهم من الجواب إلى هذه الأسطورة الوثنية ، دليل على أنهم كانوا لا يطوون النفس على اعتقاد مستتر فى أن أصنامهم تملك لدعائهم سمعاً ، ولهم نفعاً وضرًا ، و إلا لقالوا : لإبراهيم : نعم يسمعون ، و ينفعون ، و يضرون .

هؤلاء العتاة الجفاة الغِلاَظ الأكباد لم يجرءوا على أن يبهتوا الحق أمام إبراهيم فى حين كانوا فى وقت اشتد فيه العناد ، واسْتَحَرَّ المِراء ، وكان فى مقدورهم جداله بالباطل والزور عنادَ جحودٍ ، ومِرَاء باطلٍ ظَلُوم . لـكنهم صعقوا من صدمة الحق . فلم يحيروا إلا جواباً يعلى سلطان حجة إبراهيم عليهم . فأين هذا مما يعتنقه الناس اليوم فى أوليائهم من زعمهم أنهم بيدهم الأمر ، وأنهم أحياء فى قبورهم ، وأنهم يخرجون منها أحياناً لقضاء حوائج الخلق فى الدنيا !! قوم إبراهيم مااستطاعوا ادعاء النفع والضر ، واستماع الدعاء لمن يدعونهم ، أما هنا وهناك . فاسمع للأقطاب يزعمون للأقطاب القدرة على الرزق والإحياء . والإماتة وتدبير أمر السموات والأرض ! ! (٤٠ : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ذلـكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، و إن يُشْرَك به تؤمنوا ، فالحـكم لله العلى الـكبير . هو الذى يريكم آياته، و ينزل

لكم من السماء رزقا ، وما يتذكر إلا من ينيب ، فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) .

أصل العقيدة الإنسانية

دانت عقيدة الإنسان الأول بتوحيد الله فى ربوبيته وألوهيته ، وبالتوحيد بدأ دين الله ، وختم به ، لا كما يزعم العقاد وأربابه من ملاحدة الغرب والشرق من أن الدين بدأ بالشرك ، ثم تسامى إلى التوحيد بعوامل التطور ، وأن الجماعة الإنسانية البدائية الأولى كانت تؤمن بآلهة متعددة ، وكذلك كان الإنسان الأول فشأن الدين ـ هكذا يفترون ـ شأن كل تفكير إنسانى ، يبدأ ساذج البدائية ثم ينفخ فيه التطور روحه حتى يصل به إلى مرتبة الكمال ، فالدين عند هؤلاء وضع بشرى دفعت إليه الحاجات النفسية للفرد والجماعة ، يخضع لقانون التطور ككل الظواهر التى تبدو فى حياة البشر مما يصنعه الفكر ، وينميه الخيال ، يقول العقاد « ترقى الإنسان فى العقائد كما ترقى العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى » ثم يقول : « وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التى آمن بها الإنسان الأول ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة العريقة ، ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شىء غير ذلك ، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلال والجهالة ، فهذه هى النتيجة المعقولة التى لا يترقب العقل نتيجة غيرها[1] » .

ويحدد العقاد هدفه تحديداً واضحاً ، إذ يقول فى مقدمة كتابه هذا : «موضوع

(١) ص ٨٠٧ كتاب « الله » للعقاد ط ٢

هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية ، منذ اتخذ الإنسانُ ربا إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد » ؛ وبهذا وضح رأى العقاد ، ودينه الذى يستمده من إلحاد الغربيين ، ويقلدهم فيه تقليداً أعمى ، والقائلون بهذا لا يدرسون التاريخ القريب بَلْهَ البعيد ، ولا يستبطنون صور التدين ، ومظاهره فى عصوره المختلفة ، وأمكنته المتباينة ، فالمسلمون فى عهد الرسول — وبعده بحقب غير قصيرة يقر العقاد وأربابه أنهم كانوا يوحدون الله توحيداً خالصاً فى ربوبيته وألوهيته ، — وهو الحق — وها هم المسلمون اليوم وقبل اليوم — وقد تطوروا ، وتطورت بهم المدنية والحضارة فى عرف العقاد وأقرانه ، فهل يرى أن دين الله تطور بتطورهم ، وأن عقائدهم تسامت إلى ذروة التوحيد الأسمى ! ؟ كلا . فإن الواقع المشهود يؤكد غير ذلك ، فيقرر أن عقائد المسلمين هى التى تطورت — لا دين الله — فأصبح الإله الواحد عندهم آلهة متعددة ، بل أصبح مفهوم الرب الإله عند مسلمى شعب غيره عند مسلمى شعب آخر ، وآلهة العقاد من الغربيين أنفسهم يقولون بهذا ، ويقررون أن مادخل فى عقائد المسلمين من أساطير كانت ردفعل من الشعوب الآرية التى فتحها الإسلام لتنتقم من هذا الدين . وأن هذه الأساطير لا صلة لها بالقرآن والسنة ، فالتطور باعتقاد هو الذى جعل عقائد المسلمين تنحدر من أفق التوحيد الأعلى إلى ردغة الحضيض الأسفل من الشرك ، أما دين الله فباق ، كما هو فى كتابه وسنة رسوله هدى ، وحقاً ، ونوراً وكمالا ، هذا مثل من التاريخ القريب ، ثم هل المسيحية قامت على تأليه المسيح أول أمرها . يقول التاريخ — ولا أقول القرآن ، حتى لا أعرض لتكذيبكم — إن المسيحية قامت على أسس من التوحيد تقر ربوبية الله الكاملة ، وألوهيته الحقة ، وبشرية عيسى وعبوديته ثم جاء التطور الذى تؤمنون به ربا ، فانحدر بعقائد المسيحية من عبادة إله واحد لا شريك له ، إلى عبادة بعض البشر ، وتأليههم ، وهذا أيضا مثل من التاريخ القريب .. فالتاريخ الذى تقدسونه ، وتؤمنون بحقائقه يقرر بهذين المثلين

حقيقة لامرية فيها هى أن ديانتين عظيمتين — هما فى أصولهما دين واحد هو الإسلام — دعتا الناس إلى عبادة الإله الأحد ، وأن المؤمنين الأولين بهاتين الديانتين كانوا يعبدون الإله الأحد ، وأن التطور هو الذى جنح بالعقائد فانحدرت من التوحيد إلى الشرك ، وحول الإيمان بإله واحد إلى الإيمان بآلهة متعددة. ذلك حكم التاريخ المعلوم ، أما ما وراء التاريخ فليس لكم فى شأنه — كما تقرون — إلا أحداس وظنون ، وأنتم توقنون بأنه لا يجوز الاعتماد على الحدس والظن فى تقرير الحقيقة واليقين . فكيف بكم هنا تعتمدون على حدس وظن فى تقرير حقيقة تؤمنون بها ، وهى أن الدين بدأ بتعدد الآلهة ثم تسامى إلى التوحيد ، وأن عقيدة الإنسان الأول كانت أمشاج ضلالات وأساطير ؟! إنه الإلحاد يجحد بالحق ، ويدين بالخرافات أربابا وآلهة !! ثم قل لى — بالله الذى ألفت عنه كتابك ياعقاد: مادين الجاهلية قبل محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أليس دينا وثنيا مشركا ؟ أفكان الدين إذن يقوم على الشرك منذ القدم . ولم يتم تطوره وتساميه إلى التوحيد حتى أُرْسِل خاتم النبيين ؟ إخالك لا تستطيع افتراء هذا الزعم ، وإلا كفرت بطاغوتك التطور الذى تعبد قانونه ؟ ! فلم يبق إلا أن تؤمن بالحق ، وهو أن الجماعات الإنسانية قبل الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تعبد إلها واحدا ، وتدين برب واحد ، ثم تطورت عقائدها فأشركت ، فجاء محمد برسالة ربه يدعوهم إلى ما دعا إليه من قبل إخوانه الرسل

أما القرآن الذى نستشهد بحججه نحن المسلمين فيقرر أن دين الله منذ بدأ وحيه هو هو لم يتغير . وأن الذى دعا إليه الرسل جميعا هو دين واحد فى أصوله لم يحل ، ولم يتبدل منذ بدأ حتى ختم . وهو الإسلام « ٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (٤٢ : ١٣ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك وما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه)

ويقرر أن عقيدة الإنسان الأول كان قائمة على أساس توحيد الله فى ربوبيته وألوهيته، اللهم إلا إذا شاء العقاد أن يقول: إن آدم — وأستغفر الله — كان يؤمن بآلهة متعددة ! !

ويقرر أن نوحاً وجد قومه يعبدون أصناماً، فدعاهم إلى عبادة إله واحد هو الله رب العالمين. وأن إبراهيم عليه السلام وجد قومه يعبدون أصناماً، فدعاهم إلى إخلاص الدين كله لله رب العالمين، وكذلك خاتم النبيين. فعلام يدل هذا ؟ على أن الدين كله قائم على التوحيد، وعلى أن الإنسان الأول كان يوحد الله سبحانه توحيداً خالصاً فى الربوبية والألوهية، وعلى أن الجماعة الإنسانية بعد ذلك فزعت إلى الشرك، وعلى أنها عادت إلى التوحيد، وعلى أنها آمنت بعد ذلك بآلهة متعددة، وعلى أنها عادت بعد ذلك إلى التوحيد. وهكذا، هذه الحقائق تدل على أن التطور دائماً هو الذى كان ينقل الجماعة البشرية من التوحيد إلى الشرك، وعلى أن التوحيد أصل، أما الشرك فطارىء، وإليك مايشهد به إله من آلهتك ياعقاد هو «لانج» فى كتابه «صانع الدين» فيقول عن بينه « يبدو العنصر الدينى بادىء ذى بدء أكثر مايكون نقاء، وفيما بعد جاء العنصر الدينى الأسطورى ؛ لكى يقضى على هذه العاطفة الأولى[1] » أفيؤمن العقاد بهذا الإله الكبير من آلهته ؟ أم تراه يأبى إلا أن يصنع من نفسه إلهاً هو الآخر ؟ ! وكلمة أقولها : إن من يزعم أن الدين بدأ بالشرك، وأن عقيدة الإنسان الأول كانت تؤمن بآلهة متعددة . . من يزعم هذا لم يزعمه إلا لأنه كافر بالوحى الإلهى، ملحد جاحد برسالة الرسل. إذ يجعل الدين فى أصله نوعا من معارف الفكر الإنسانى وأساطير الخيال ؛ وصدق الله سبحانه (١٨ : ٥١ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم

(١) ص ٢٣٠ مبادىء علم الاجتماع الدينى « روجيه باستيد » ترجمة الدكتور محمود قاسم.

وما كنت متخذ المضلين عضدا) ولـكن العقاد وأربابه يريدون أن يفهم الناس أنهم شهدوا خلق السموات والأرض ، وخلق أنفسهم وأن يصدقوهم إذا قالوا : إن آدم عبد من دون الله آلهة أخرى !!

« النذور والقربات »

النذر عبادة أذن الله فيها سبحانه لحـكمة عالية . عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : «أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن النذر ، ويقول : لايرد شيئاً . إنما يستخرج به من البخيل[1] » ويقول صلى الله عليه وسلم — وهو من الأحاديث القدسية، ولـكن سقط منه التصريح بنسبته إلى الله تعالى — : « لايأتى ابن آدم النذرُ بشيء لم أكن قدرته ، ولـكن يلقيه النذر إلى القدر قد قُدِّر له ، فيستخرج الله به من البخيل ، فيؤتينى عليه مالم يكن يؤتينى من قبل[2] » يصف الله ورسوله النذر الخالص لله بأنه لايرد قضاء ولا يغير قدرا ، أما مايجده الناذر من خير عقب نذره ، فهو مما كان مقدراً له قبل النذر ، فيظن أنه جزاء نذره . وبهذه الحـكمة العلية ، وهذا التدبير الإلهى الحـكيم يستخرج الله من البخيل ما لم يكن يخرجه لله من قبل ، ولذا أذن الله فيه . فإذا كان هذا شأن النذر الشرعى الخالص لله ، فما بالك بالنذر للقبور والمقبورين ؟! ويصف الله ورسوله النـاذر لله بالبخل . إذ الـكريم السمح لايشترط لمـا يقدم عوضا ولا جزاء ، بل يبذل الخير قرير العين ، رضيَّ النفس .

أما الناذر ، فلم ينذر قربته إلا بشرط أن يفعل الله له مايريد : فيقول لربه : « إن فعلت لأفعلن » فـكان شرطه هذا دليل بخله ، وبالرغم من ذلك أذن الله فيه برًّا ورحمة بعبيده، وبالفقراء قست عليهم قلوب الأغنياء ، فإذا كان هذا شأن

---

(١) البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة .

(٢) البخارى ، أبو داود ، النسائى ، الترمذى ، ابن ماجة .

الناذر يبتغى بنذره وجه الله وحده ، فمابالك بالناذر يبتغى بنذره أضرحة الموتى وقبابها ؟! ويجب أن يكون النذر لله وحده ، وفى طاعته ، وفيما يملك الإنسان ، وفى غير ما كلف به ، وأن لايكون فى مكان الوفاء به صنم ، أو عيد من أعياد الجاهلية ، وما شاكل ذلك الآن ، كالأضرحة ، وموالد الأضرحة ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه» وعن ثابت بن الضحاك قال « نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحر إبلا « بِبُوَانَةَ » فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنى نذرت أن أنحر إبلا ببوانة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية ؟ قالوا : لا ، قال : هل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوف بنذرك ، إنه لاوفاء لنذر فى معصية الله ، ولا فيما لايملك ابن آدم» «أبوداود» فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يبح للرجل الوفاء بنذره إلا بعد أن استيقن أنه لم يكن ببوانة وثن ، ولا عيد من أعياد الجاهلية ، وهذا يفيد أنه لو كان بها أحدهما ، ماأذن له فى الوفاء بنذره ، فى حين أن نية الرجل فى النذر كانت لوجه الله . فما كان ناذراً لوثن ، ولا لعيد جاهلى ، بدليل سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم ، و بدليل أنه لم يسأله : هل كان نذرك لوثن ، أو لعيد جاهلى . فتأمل رعاية الرسول وحمايته لقدس التوحيد وحماه ! ! فمجرد وجود الوثن فى بوانة أو العيد الجاهلى كان كافياً فى منع الرسولِ الرجلَ من الوفاء بالنذر رغم أن نية النذر لوجه الله ، فما بالك لو كان النذر للوثن نفسه ، أو للعيد الجاهلى ؟ .

ونحن المسلمين قد أنعم الله سبحانه علينا ، فجعل لنا أعيادا زمانية ، وأعياداً مكانية : الأولى : هى عيد الفطر ، والأضحى ، وأيام منى .

والثانية : الكعبة البيت الحرام ، وعرفة ومنى والمشاعر .

فمن ابتدع فوق هذه أعياداً أخرى، فهى من أعياد الجاهلية وقد ابتدع الأحبار والكهان أعياداً زمانية كالموالد « مثل الرجبية ، والمولد الصغير ، والمولد الكبير

للبدوى» ، وأعياداً مكانية هى القباب والأضرحة ، وساريات الخشب التى ينصبونها فى ساحات الموالد ، للطواف حولها ، وذكر الله عندها ، اعتقاداً منهم أن «القطب» يزورها أيام الموالد ، وأنصاب الشهداء !! وتماثيل الزعماء !! وغير ذلك كثير . فالنذر لهذه الأعياد الجاهلية شرك ، ولو نذر إنسان لله ، وجعل عيداً من هذه الأعياد مكاناً للوفاء بنذره ، لم يكن نذره خالصاً لله ، بل لغيره وهذا شرك .. ولقد علمت مما قدمته لك أن من دعا وليا من دون الله فقد اتخذ ذلك الولى له إلٰها من دون الله ، وأن ضريح هذا الولى يعتبر صنما لذلك الداعى ، إذ يطوف حوله ، ويقبل ستره ، ويطيبه ، ويزينه ، ويضىء له الشموع ، فمن نذر لولى فقد اتخذه إلٰها ؛ لأن النذر عبادة ، وكل عبادة فإنما هى لله ، ومن نذر لولى فقد نذر لوثن من الأوثان ؛ لأن نذره فى الواقع للقبر نفسه ، إذ لا ينال المقبور منه شىء ، ومن فعل ذلك ، فهو الجاهلى بشركه وآلهته وأصنامه . ولقد نهانا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نجعل قبره عيداً . فما بالك بقبر السيد والدسوقى والشعرانى وغيره ؟ !

أما وقد وضح لك هذا الحق ، فانظر كيف ينذر الناس اليوم .. لضريح السيد العجول ، ولضريح السيدة الفول ، ولكل قبر نوع خاص من الطعام والشراب يزعم عباده : أن صاحب القبر كان يحبه ، فينذرون له مما كان يحب ، ويلتزم كثير من الناس بأداء شىء معين فى « موالد » القبور . وإذا قلنا للناس هذا شرك . قالوا : دعوا الفقراء يطعمون !!! فيالله من هذا القول الآثم !! فوالله مايرضى الله لعباده الفقراء — وكلنا إلى الله فقير — أن يتخموا بطونهم من السُّحت ، ولا من ذبيحة ذبحت على النصب ، وأُهِلَّ بها لغير الله ، ولا من نذر قصد به غير وجه الله « لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثاً ، لعن الله من غير منار الأرض [1] » فكيف تريدون أن

---

(١) مسلم .

يطعم الفقراء من ذبائح لعن الله من ذبحها ؟؟ ومن طعام رجل مبتدع لعن لله من يؤويه وقال عليه الصلاة والسلام : « لاعقر فى الإسلام [١] » قال عبد الرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة [٢] .وهذا هو بعينه مايحدث الآن ، فهل من البر بالفقراء تركهم يطعمون من هذا ؟ (٦:١٦٢ قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) والنسك كما فسره ابن جبير والسدى والضحاك هو الذبح ، ويقول ابن فارس فى معجمه : «النون والسين والكاف أصل صحيح يدل على عبادة وتقرب إلى الله تعالى » . يعنى أن كلمة نسك تطلق بمعنى عام على كل ماهو عبادة ، أو يقصد به التقرب إلى الله سبحانه . ومنها الناسك أى العابد ، فكل ما يقرّب إلى القبور والموتى ، فهو نسك لها . أفتريدون أن يطعم الفقراء مماعبد به الأصنام ؟ (١٦:٥٦ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ، تالله لتسئلن عما كنتم تفترون) هكذا فعلت الجاهلية ، وهكذا تفعل اليوم . أفتحبون أن يطعم الفقراء مما يفتريه المشركون على الله ؟ وقال عليه الصلاة والسلام؛ كما روى الإمام أحمد: « دخل رجل الجنة فى ذباب ، ودخل رجل النار فى ذباب . قالوا : كيف ذلك يارسول الله ؟ قال : مرّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب إليه شيئا . فقالوا لأحدهم : قرب ولو ذبابا ، فقرب ذبابا ، فخلوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب . فقال : ما كنت أقرب لأحد غير الله عز وجل . فضربوا عنقه ، فدخل الجنة »

هذا فى الذباب !! فكيف فى البُدْن السمان ، والبقر المعلوف ، والكباش الملحية ؟؟ وإنك لترى الكهان يسيحون فى الأرض يجمعون لأصنامهم طعام الأيتام ، وقوت الأرامل . وكثيرا ما يكون « الدرويش » صفر اليدين مما يسد به جوعته ، فيضطر إلى أخذ مال بالربا يدفع منه « عوائد » الشيخ . وقد تكون

---

(١) أحمد وأبو داود .

(٢) وقريب من هذا العمل ما يذبح تحت النعش أو بين قدمى الشيخ .

زوجه مُهَدَّلة الستر من الفقر ، توارى سوءتها بالمِزَقِ البالية ، وأولاده على الطوى يبيتون ، متخذين من زمهرير الشتاء ، وقشعريرة السقم دثارا لهم . بَيْدَ أن المسكين لا يستطيع إلا دفع « الجزية » المفروضة مخافة أن « يعطبه » صاحب الضريح ، أو يغضب عليه شيخه . وكل جزائه كلمة نفاق من الشرك يمجها شيخه « كل سنة وأنت طيب ياولدى » « يارب !! لاطاب زمان يُعْبَدفيه غيرالله ! » ولو أن يتيما تَوَلَّه البؤس على بؤسه ، وناح الشقاء على ذبوله ، ونامت على الفاجعات لياليه ، وانطوت أيامه على الذل والمسكنة . لو أن هذا الخلق الفقير الذليل دعاهم باسم الله إلى مضغة يمنون بها عليه ليمسك بها الواهى من رمقه ، لكان الجزاء ركلة تُقَوِّض ما بقى من أطلال هذا اليتيم !! ولو أنهم سئلوا الزكاة لجحدوها ، بل لاغتصبوها من المؤمنين . وقدموها قرابين لأوثانهم . (٦ : ١٣٦ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم ، فلايصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ألا ساء مايحكمون) ألا ترى تاريخ الشرك الأسود يعيد نفسه ؟ وألا تشعر كأنما هذه الآية تنزل اليوم ؟ ! ولقد نشرت الصحف فى هذا العام أن من حجوا إلى «مولد قبر[1] السيد » يقدر بثلاثة ملايين . ومتى تجمعت هذه الملايين ؟ ؟ ورصاص المستعمر الدنىء يحصد أرواح المصريين حصدا فى القنال ! ؟ ولعلك تسأل . أتجمعت هذه

(١) سجل هذه الوثنية على المصريين فى القرن التاسع عشر مستشرق انجليزى هو «إدوارد لين» وقد جاء إلى مصر وتصوف وأخذ « العهد » على شيخ طريقة ! يقول فى كتابه « المصريون المحدثون » ص ١٧٠ عن ضريح السيد « ويكاد ضريح هذا الولى يجتذب زائرين من العاصمة ، وأنحاء مصر السفلى أثناء الموالد السنوية الكبيرة بقدر ما تجتذب مكة حجاجا من أنحاء العالم » ويقول ص ١٦٨ « ويزور المصريون هذه الأضرحة وغيرها إما إجلالا للميت معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات ، وإما بقصد التماس البرء من مرض أو طلب النسل ، ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله ويقدمون لهم النذور » .

الملايين للتشاور فى شأن عدو الله « الإنجليز » كيف يردون عدوانهم ؟ أتجمعت للقتال فى سبيل الله ، وللجهاد لإعلاء كلمة الله ؟ للتبرع بالأموال تنشأ بها مصانع الأسلحة ، أو تشترى بها آلات الحرب لقتال عدو الله ؟ بل حتى لتأسية القلوب نَوَّاحة الشعور على من غدر بهم الإنجليز ؟ لا لا . لقد تجمعت هذه الملايين لما هو أجدر من ذلك وأولى ، للطواف حول ضريح السيد ، للتَّخَلُّع حول «صاريه» فى حانات الأذكار ، أو لعلها ذهبت للسيد تضرع إليه أن يقذف الرعب فى قلوب الإنجليز ، وأن يذهب إليهم « ليعطبهم » فإن اسمه « العطاب » ! ! .

ياللدهماء يقترفونها أعياداً للوثنية والفجور!! وفى كل قلب مأتم حزين ، وعلى كل شفة شَفَقُ مأساة ، وفى كل عين فاجعة تذرى الدموع ! ولو أنا قدرنا لكل فرد من هذه الملايين « جنيهاً واحداً » ينفقه فى مولد السيد ، لكان حساب ماأنفق هناك ثلاثة ملايين من الجنيهات ، أفما كان الخير والحق والجهاد أولى بهذه الملايين ؟! ولكنهم يعطونها للسيد ، ولا يعطونها لله ! ! هذا فى ناحية عباد القبور ، وتعال إلى أولئك المترفين عبيد الغانيات . . ألا ترى ذلك الثرى المترف يقدم أعَزَّ ماله الذى اغتصبه من الأيتام لامرأة اتخذها الشيطان جسدا له ؟؟ إنها تمد لصاحبها الثرى نعليها فى خيلاء الإثم المكحول بالغواية . فيهفو إلى النعل المحظوظ يضع فيه قلبه وماله وشرفه ودينه ! وما أسعده لو أنها لبست نعلها ، وفيه عزته وجاهه وكل دنياه . وكان هذا الثرى الفاجر قبل لحظات تشوى يداه بلهب السياط ظهور اليتيمات ، والذليلات البائسات من أيامى الفقر ، وكان آخر ماتفتق عنه ذهن الشيطان من كيد لدين الله أن أقيم حفل راقص ، أعلن عنه أن الخمر ستباع فيه بثمنها المعتاد حتى يمكن جذب الآلاف من رواد هذه المواخير ؟! أتستطيع أن تحدس لم أقيم هذا الحفل ؟ ؟ إنه أقيم لبناء مسجد ياأبله ! ! فى حين يتأبى هؤلاء أن يدفعوا لله زكاة ماله الذى منحهم إياه ، بل يتأبون أن تلوك فضلات كلابهم شدقا يتيم جائع محروم ، فيا للجاهلية الدنسة تعبد شهوات وكلابا ! ! وتسأل عن أحبار الشعب

أين هم ؟ وأين كُهَّانه ؟ ! إنهم يامذهول يسبحون بحمد ربهم عند القبور ! بيد أن مايقترفه هؤلاء المترفون يؤمن الناس جميعاً ـ حتى الآثمون به ـ أنه رجس وفسوق أما قرابين الموتى ، ونذور الأضرحة ، فيحسبها الناس قربانا إلى الله تحمله الملائكة وهنا يكمن الخطر الداهم على العقائد ، فالذى يقتل ، وفى يده الخنجر خير من الذى يقتل ، وفى يده المسبحة ! ! بل لعل طعنة العدو المستعلن أندى على القلب من بسمات المنافق يتراءى بالمحبة !!

الحَلِف

الحلف بالله وحده من توحيد الله فى العبادة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليسكت[1] » وقال : « لا تحلفوا بآبائكم ، ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ، ولا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون[2] » وسمع ابن عمر رجلا يحلف : لا ، والكعبة فقال له ابن عمر : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حلف بغير الله فقد أشرك[3] » وقال عليه الصلاة والسلام « من حلف ، فقال فى حلفه : واللات . فليقل : لا إله إلا الله ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك فليتصدق[4] »

من هذه الأحاديث نعلم أنه يجب الحلف بالله وحده ، إن كان لابد من الحلف ، وأن الحلف بغير الله شرك ، وإن كان المحلوف به رسولا أو نبياً ، أووليا ، أو الكعبة ، أو غير ذلك ، وأن من حلف بغير الله يجب أن يعود إلى الإسلام بقول لا إله إلا الله ، وهذا دليل على أن الحالف بغير الله قد ارتد عن دينه و إلا ماأمره الرسول : بقول : لا إله إلا الله .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من حلف بالأمانة فليس منا[5] » وقال : «من

(١) البخارى . مسلم . أبو داود . النسائى ابن ماجة . (٢) أبو داود .
(٣) أبو داود وفى معناه الترمذى والحاكم . (٤) البخارى . مسلم . أبو داود . الترمذى . النسائى . ابن ماجة . (٥) أبو داود .

حلف ، فقال : إنى برىء من دين الإسلام ، فإن كان كاذبا ، فهو كما قال ، وإن كان صادقا ، فلن يرجع إلى الإسلام سالما[1] » وهذا وذاك على ألسنة الناس اليوم ، يحلفون بالأولياء ، وقبورها ، وبالآباء والأمهات ، وبالشرف والأمانة والذمة ، وبالطلاق والنفاق ، والبراءة من دين الإسلام ، وبالسيف وغيره ، ولكل قرية ولى يحلف به ، ولكل عائلة « تربة » عزيزة يحلفون بها ، ولكل بيت «غال» يحلفون به ، وهو بين ثنايا التراب ، ولكل طريقة «شيخها» المحلوف به ، حتى إذا شاءوا الحنث فى اليمين تذكروا الله ، فحلفوا باسم العلى الكبير ! ! . فى حين كان يقول كل من ابن عباس ، وابن عمر ، وابن مسعود رضى الله عنهم « لأن أحلف بالله كاذبا خير من أن أحلف بغيره صادقا » فالحلف كذبا بالله معصية آثمة والحلف بغيره ـ مع الصدق ـ شرك دنىء . وشتان بين معصية قد تنالها مغفرة ، وبين شرك حرم الله عليه المغفرة ، ويغلو العوام فى الوثنية ، فيزعمون أن من « عدّى » يمين النبى كفر !! وأن يمين « النبى » ليست له كفارة . يقصدون الحلف بالنبى ! ! نعم ليس له كفارة ؛ لأنه شرك ، ولكن لايشعرون ! ولقد تنبه إلى هذه الظاهرة الوثنية فى الجماعات الإسلامية ـ ويالالأسى ـ مستشرق يهودى لئيم دنىء هو « جولدزيهر » فسجلها فى كتابه « العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٣ » إذ يقول ـ وهو بصدد الحديث عن الولى الخاص بكل بلد ـ « إليه يؤتى بالقرابين ، وفى سبيل مرضاته تنذر النذور لكسب نياته الحسنة . . . كما أن أتباعه ومريديه يعدونه عماد الحق والصدق ، وأنه الحارس لهما الكفيل بهما ويخشى الواحد منهم أن يحنث فى يمين حلف فيه باسم الولى ، أو أن ينكث

بعهده فى مكان يراه الولى ذا طهارة وقداسة ـ أكثر مما يحمر خجلا عندما يحلف بالله » أفلا يخزى دعاة الشرك أن يسجل عليهم مثل هذا اليهودى الماكر

---

(١) الصحيحان : أبو داود الترمذى . النسائى . ابن ماجة

تلك الوثنية البغيضة ، استعانة بها على الكيد لدين الله ؟ ! وما يستطيع أولئك تكذيبه ؛ لأنه حال الوثنية الحاضرة فى كل يوم !! غير أن دين الله الحق يبرأ إلى الله ممن يستعين بهم هذا اليهودى وغيره على حرب الله ورسوله . ويجعل من عقائدهم عدته فى حربه الخادعة ،

ولقد نهى الله سبحانه عن كثرة الحلف (٣ : ٢٤٤ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) أى لا تجعلوه معرضا لأيمانكم ، فتبتذلوه بكثرة الحلف به ، وجعل سبحانه ـ كثير الحلف موضع ذمه (ولا تطع كل حلاف مهين) .

وأضع أمامك منارا مشرقا من هدى الرسول فى اليمين لنقتدى به ، ونرد به كيد هذا اليهودى فى نحره . فما يُحْكَم على الإسلام إلا بكتاب ربه وسنة رسوله ، أما الذين يحاجون الإسلام بعمل أهله الذين نابذوه الخصام ، فهم الذين يعلمون أن هذا الدين فى كتابه وسنة ورسوله هدى وحق وتسامٍ إلى الآفاق الروحية العليا ، فلم يستطيعوا الكيد للاسلام إلا بعمل المسلمين . عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أكثر ما كان رسول الله يحلف بهذه اليمين : « لا ومقلب القلوب[1] » إنه الإيمان يبتهل إلى الله فى خوف المحبة أن يثبت قلبه على توحيد ربه ، واليقين المتمكن من القلب المؤمن الموحد بقدرة الله التامة ، وإرادته الكاملة . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان رسول الله إذا اجتهد فى اليمين . قال : « والذى نفس أبى القاسم بيده[2] » توحيد يمتلك نواصى القلب والنفس وإخبات مستسلم بالعبودية الخاشعة ، وإقرار بنعمة الله ، وأنه الآخذ بناصية كل مخلوق . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حلف يقول : « لا . واستغفر الله[3] » إنابة مؤمن شديد الخوف من

---

(١) البخارى ، أبو داود ، الترمذى ، النسائى ، ابن ماجة .

(٢) أبو داود وابن ماجة .. (٣) أبو داود .

ربه قوى الرجاء فيه ، يحلف ، ويستغفر ـ رغم ثقته من أنه الصادق ـ مخافة أن يكون قد بدر منه مالم يشعر به ، أو يعلمه ، ولكن عَلِمه الخبير علام الغيوب . فياللعبودية التى تضع لها الملائكة أجنحتها ! ! :

« مظاهر الشرك »

لست فى سبيل الإحاطة بما يتفشى اليوم بين المسلمين من صور الوثنية الجاهلية وعاداتها ، بل بسبيل إشارة تغنى عن العبارة . ومن مظاهر الشرك غير ما قدمت .

الإفتاء بغير الكتاب والسنة : من الشرك الآثم ، وادعاء الربوبية الإفتاء فى دين الله بغير كتاب الله وسنة رسوله : فإذا أفتى عالم بحكمٍ يعلم أنه يخالف الكتاب والسنة كان ممن يفترون على الله الكذب ، والله يقول : (١٦ : ١١٦ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال ، وهذا حرام ؛ لتفتروا على الله الكذب . إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) ويقول : (٦ : ١٤٤ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) (٦١ : ٧ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟) ويتوعدهم سبحانه بالويل واستئصالهم بالعذاب (٢٠ : ٦١ ويلكم . لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى) والمفتى بغير ماشرع الله ـ وهو على بينة من كتاب الله وسنة رسوله ـ أخبث من يفترون الكذب على الله .

ولهذا حكم الله ـ سبحانه بكفره (١٦ : ١٠٥ إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله) أما إذا نصب نفسه للإفتاء بدين الله وهو لايعلم أحكام الشريعة من الكتاب والسنة ، فهو ممن يقولون على الله بغير علم . والقول على الله بغير علم أشد وأخبث من الشرك (٧ : ٣٣ قل : إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها ومابطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ،

وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ، ذِكْرُ تحريم القول على الله بغير علم بعد ذِكْرِ تحريم الشرك دليل على أنه أخبث وأشد خطرا ؛ لأن أثره يتعدى إلى غير صاحبه ممن يتخذون هذا المفتى ربا ، فيشركون كما أشرك ، ويقولون للناس ما قاله على الله بغير علم ؛ ولأنه عمل الشيطان ؛ إذ يحذرنا الله منه بقوله (٢ : ١٦٨ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون). ويقول عليه الصلاة والسلام ، كما جاء فى مسلم : «قال الله تعالى : إنى جعلت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم ، أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا [1]» .

أخذ الدين من الأحبار والرهبان : ومن الشرك فى الألوهية ، بل فى الربوبية أخذ الدين مما يشرعه الناس ، لا مما شرعه الله ، وبينه فى كتابه ، وفصلته سنة رسوله وبمعنى أصرح : من العلماء الذين يتقيدون فى دينهم بمذهب خاص يرونه الحق كله ، والهدى كله ، فالله سبحانه يقول عن اليهود والنصارى (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وما قال واحد من اليهود أن ربه حَبْرٌ ، ولا من النصارى أن راهبا ربٌّ . ولكن الله سبحانه وصفهم بذلك ، لأنهم تركوا ما شرع الله سبحانه ، وراحوا يأخذون أحكام دينهم من أولئك الأحبار والرهبان قال ابن كثير فى تفسير الآية : روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرقٍ عن عدى بن حاتم رضى الله عنه ، أنه لما بلغته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام ـ وكان قد تنصر فى الجاهلية ـ فأُسِرت أخته ، وجماعة من قومه ، ثم مَنَّ رسول الله على أخته ، وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها ، فرغبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عدى إلى المدينة ـ وكان رئيساً فى قومه ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ـ فتحدث الناس بقدومه ، فدخل

(١) حنفاء : طاهرى الأعضاء من المعاصى ، واجتالتهم أى استخفتهم ، فأضلتهم .

على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وفى عنق عدى صليب من فضه ـ وهو يقرأ عليهم الآية (٩:٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال : بلى . إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» . . . وهكذا قال حذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسير (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) إنهم اتبعوهم فيما حللوا ، وحرموا ، وقال السدى : « استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ولهذا قال تعالى (٩ : ٣١ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً) أى الذى إذا حرم الشىء ، فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وماشرعه اتبع ، وما حكم به نفذ» . وما بعد بيان الرسول صلى الله عليه وسلم بيان ، ولا بعد معرفته بكتاب الله معرفة ، وما إخالك إلا مؤمناً مع الحق بأن أخذ أحكام الدين من غير كتاب الله وسنة رسوله شرك فى ربوبية الله سبحانه ، بما بين لك الرسول الصادق الأمين فى تفسير الآية ، وبنص قوله تعالى (٤٢ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟) والفرق بين هذا النوع والذى قبله . أن الأول يتعلق بالمفتين أصالة ، وبالمقلدة بالتبعية ، وأن هذا يتعلق بالمقلدة أصلا ، وبالمفتين تبعا . وكلا النوعين يتلازمان ويتبادل كل منهما الدلالة على صاحبه .

العرافة والكهانة وادعاء معرفة الغيب : ومن الشرك ادعاء معرفة الغيب ، أو اعتقاد أن إنساناً ما يعلم الغيب ـ والعرافة ، والتنجيم ، والكهانة من ادعاء معرفة الغيب ـ فالله جل شأنه يقول : (٢٧:٦٥ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيبَ إلا الله) ويقول : (٣ : ١٧٩ وما كان الله ليطلعكم على الغيب) (١٠ : ٢٠ فقل : إنما الغيب لله ، فانتظروا . إنى معكم من المنتظرين) ، ونفى عن الملائكة والرسل معرفة الغيب ، فلا يعرفون منه إلا ما شاء الله أن يعرفوه ؛ لتبليغ رسالته جل شأنه إلى خلقه (٧٢ : ٢٦ عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول) (٢ : ٢٥٥ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) أما غير

ذلك فلا يعلمون عنه شيئا (٦ : ٥٠ قل : لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) (٧ : ١٨٨ قل : لا أملك لنفسى نفعا ، ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون) (٤٦ : ٩ قل : ما كنت بدعا من الرسل ، وماأدرى ما يُفْعَل بى ولا بكم) هذا شأن أفضل الخلق عند الله ، وأدناهم منه منزلة يوم القيامة محمد صلوات الله وسلامه عليه . ينفى معرفته بغيب الماضى ، وغيب الحاضر ، وغيب المستقبل ومعرفته بما يُفْعَل به صلى الله عليه وسلم. فما بالك بالفساق الزنادقة المخابيل يقسمون لك بالله ـ الذى عنده وحده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو سبحانه ـ أنهم يعلمون الغيب ، وأنهم يطلعون على اللوح المحفوظ ، وأنهم ما يقترفون الفاحشة إلا لأنهم رأوها مكتوبة عليهم فى اللوح ، وأنهم يؤلفون أورادهم الملحدة بإذن ربانى كريم ؟ أليسوا بهذا الزعم يفترون أنهم عند الله أفضل من خاتم رسله ، وصفوة خلقه ؟ لقد قال لهم ابن عربى : إن الولاية أفضل من النبوة ، فَكُذِّب الله ، وصُدِّق هذا الشيطان ! ! ونفى الله سبحانه عن الجن معرفة الغيب ، فيقص لنا قصة الجن يعملون بين يدى سليمان بإذن ربه (٣٤ : ١٤ فلما خَرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) . مات سليمان ، والجن فى عذاب مهين ، فما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل عصاه ، فأين من ذلك يا عبيد الجن ما تزعمونه لهم ؟ و يحاول بعضهم أن يكون وسطا فى الدعوى ، فيزعم أن الجن يعرفون غيب الماضى فحسب ، أما المستقبل ، فلا يعرفونه . بَيْدَ أن هذه الآية تَمْحَقُ هذا الباطل . فهذا سليمان نبى الله يموت . والجن يعملون بين يديه ، ويرونه كل لحظة ، وللموت دلائله التى يحسها البصر . ولكنهم زعم ذلك كله لم يعلموا بموته إلا حين خر على الأرض ، بعد أن أكلت الدابة عصاه ، أى بعد زمن غير قصير . فإذا كانوا قد جهلوا ما كانوا يحسونه ويرونه جيداً ، على قربِ دانٍ منهم . فكيف يعرفون غيب مامضى ، فضلا عن الحاضر والمستقبل ؟

ويقول سبحانه : (٤:٥١ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) « والجِبت : الصنم ، والكاهن،والساحر ، والسحر ، والذى لاخير فيه ، وكل ماعُبِدَ من دون الله » القاموس المحيط : والكاهن « هو الذى يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان ، ويدعى معرفة الأسرار» والعراف « هو من يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله » نقلا عن ابن الأثير فى النهاية . وأنت لو تأملت فى هذين التعريفين لرأيتهما يدلان أوضح الدلالة على كثير من أولئك الذين يصطنعون من الأشياء التى ما هى فى حقيقتها إلا عرافة وكهانة رغم اختلاف الأسماء !! وقال صلى الله عليه وسلم : « من أتى عرافاً ، أو كاهناً ، فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد[1] » هذا شـــأن آتى العراف والكاهن . فما شأن العراف أو الكاهن نفسه ؟! ويقول : « من أتى كاهنا ، فصدقه بما يقول ، فقد برىء مما أُنْزِل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أتاه غير مصدق له ، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة[2] » . وهذا رد على من يزعم أنه يذهب إلى هؤلاء « للفرجة » أو يتعاطاها لهواً فقط ، ويقول : « العِيافة ، والطِّيَرَةُ ، والطَّرْق من الجِبْت[3] » . والطيرة : هى التشاؤم من الفأل الردىء ، وأخس مظاهرها الوثنية الآن : فتح المصحف ليأخذ الشخص فَأْلَه من أول آية يقع عليها بصره ، والعيافة زجر الطير ، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها ومرها ، والطرق : الضرب بالحصا الذى يفعله النساء أو الخط فى الرمل « ضرب الرمل والودع » ولهذا كله نظائر وأشباه ، وإن اختلفت الأسماء . وكلها منتشرة اليوم ـ لا بين الجهلة أو الدهماء ـ بل بين ذوى الجاه العريض ، وذوى الشهادات الكبيرة ! ! وبخاصة « قراءة الكف ، وتحضير الأرواح ، ولست أدرى أى رجل هذا الذى يقدم كف امرأته لشيطان

(١) أحمد . أبوداود . الترمذى . النسائى. ابن ماجة . الحاكم (٢) الطبرانى
(٣) أبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه .

يطالع فيها الإثم والفتنة ، و يثيرها ؟! أما التنجيم ، أو مايسميه الفلكيون « طوالع المواليد » فإليك من هدى الرسول مايكشف لك عنه « من اقتبس علما من نجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد مازاد[1] » .

السحر : ومن الشرك السحر . وقد عرفه الراغب فى مفرداته فقال « والسحر يقال على معان . الأول : الخداع ، وتخييلات لا حقيقة لها نحو مايفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله بخفة يد ، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع ، وعلى ذلك (سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم) (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) والثانى استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه كقوله (٢٦:٢٢١هل أنبئكم على من تَنَزَّل الشياطين ؟ تنزل على كل أفَّاكٍ أثيم) وعلى ذلك قوله (٢:١٠٢ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) والثالث : مايذهب إليه الأغتام « الجهلة والدهماء » وهواسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور ، والطبائع ، فيجعل الإنسان حماراً . ولا حقيقة لذلك عند المحصلين» ويقول ابن فارس فى معجمه « السحر . قال قوم : هو إخراج الباطل فى صورة الحق ، و يقال : هو الخديعة » ويقول صاحب القاموس المحيط : « والسحر كل مالطف مأخذه ودَقَّ ... وَسَحَر — كمنع — خدع » ويقول ابن الأثير : « والسحر فى كلامهم صَرْف الشيء عن وجهه » وقال الرازى « ولفظ السحر فى عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ، و يتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع » هذا هو معنى السحر فى اللغة التى شرفها الله فنزل بها كتابه . وهو غير ما يفهمه الناس فيه ، إذ يفهمون فى السحر أنه قوة خفية تدمر وتنسف وتهلك ، ولا يقف فى وجهها حتى القدر !! ويفهمون فى الساحر أنه مارد عملاق طاغية مرهوب الجبروت ، يزلزل الأرض ، و يفزع الجبال و يشقق السماء ! ولقد

(١) أبو داود ، وابن ماجة ، وغيرها .

وسوس الشيطان بهذا إلى أوليـائه ، وادعاه من البشر جنوده وغلفوا نفوسهم بالرهبوت والطلاسم والأساطير ، فاندكت تحت سَطَاهم الزائف كل نفس تأخذ بها نأمة الطائر . ومضى عبيدهم يرجفون بأنباء قدرتهم الزائفة التى تستطيع — فى زعم شركهم — تغيير القضاء ، وتقييد القدر ، فرجفت لهذه الأنباء قلوب النَّوَّكَيَ والمأفونين ، ومخابيل الأحلام . وهول لهم شياطين السحر ، وأبالسة السحرة فى أثره وتأثيره . امرأة يموت أولادها كلما ولدت ، فتلطم نادبة : سحر ! وأخرى ترى زوجها مصروفاً عنها ، فتبث الشـكاة الحزينة : سحر !! وترى زوجاً آخر يذيبه الحب حنواً على زوجه ، فتتحسر قائلة : سحر !! زوج يستشعر الوهن والضعف ، فيطوى نفسه على حسرة الذل والانـكسار ، ويهمس فى أذن زوجه : سحر !! تاجر كسدت تجارته ، وقد نفقت تجارة جاره ، فَيُدَمْدِم بالغيظ والحنق : سحر !! وهكذا ينسب الناس إلى السحر القدرة العارمة المطلقة ، ولو تأملت فيما تقرره لغة القرآن عن معنى السحر ، لعلمت أن السحر ماهو إلا تمويه وخداع ، وإلباس الباطل شفوفاً من الحق الجميل ، وتزيين المنكر بِوَشْى المعروف ، وصرف النفوس بالشبهـات عن تفهم الحق ، والـكيد الخفى ، والنميمة الشيطانية تحيل الحب بغضاً ، وصفاءَ مَوَدَّةِ الأخوة مقتـاً وكراهية ، ولـكن . من ذا يُدْخِل ذلك الحق مدخله فى نفوس النساء اللاتى يعبدن السحر والسحرة ؟

ولقـد حذر الله سبحانه من السحر والسحرة ، وأخبر أن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر بالوسوسة إليهم كيف يوقعون بالوشاية بين الزوج وزوجه ، فَيُؤَجِّجُون بالـكيد فيما بينهم سعيرَ خصام ، ونار حقد وبغضاء ، وكيف يقطعون بالنمائم أرحام المودة ، وعلائق القـلوب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يارسول الله ماهُنَّ ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم

والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات[1] » وقال : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلّق بشىء وُكِلَ إليه[2] » ذلك لأنه بما اقترف من عقد ونفث يخدع الناس بالباطل ، ويوحى إليهم بهذه التهاويل الوثنية أنه القادر القهار . أما النفث والعقد فلا أثر لهما فى الحقيقة ، بل فى أوهام النساء . هذا هو السحر ، وهذا هو الساحر ، وإن شئت الحق ، فقل : هذا هو الكفر ، وذلك هو الكافر !!

الزار : من الشرك الخسيس وعبادة غير الله . ففى الزار باسم الجن تُقرَّب القرابين وتنحر الذبائح ابتغاء رضاها ، وصرف أذاها ، واستعاذة بها من شرها . واستعانة بأرواحها على شفاء المرضى ، فالزار بهذا كله أو ببعضه تأليه للجن وعبادة وهكذا يؤرخ الشرك لنفسه فى عصر المدنية مما أرخه لنفسه فى عصر الجاهلية (٧٢ : ٦ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) (٣٤ : ٤٠ ، ٤١ ويوم يحشرهم جميعا ، ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إيانا كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك . أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن . أكثرهم بهم مؤمنون) الله سبحانه يأمر عباده أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، فيأبى إبليس إلا أن يجعل بعض الخلق يستعيذون بالشيطان من الرحمن الرحيم !! .

وكنت أحسب الزار تُباع آثامه وفواحشه فى الأكواخ ، وبين الدهماء . غير أنه — ويا أسفى — أصبح اليوم من مواخير القصور يُدْعَى إليها الملأ من ذوى الجاه العريض ! ! وثَمَّ تُنتهك الحرمات ، ويمنح الشيطان دَنَسَ فحشه لعبيده ، وتنتهك أقنعة القداسة الزائفة . فإذا اللائى كن يُحْسَبْن حرائر المحصنات لحوم شهوة يضعها الشيطان تحت أضراس ذئابه ، وأنيابها ! ! وتتخلّع ربات الخدور عرابيد

---

(١) البخارى ، مسلم أبو داود ، النسائى (٢) النسائي .

الخطو . وقدَ تَلَبَّسَهُنَّ سُعَارُ الحيوانية المكبوتة ، وتلظت فى عيونهن الجرائم الفواجر ! ! وأين الأزواج ؟ أَهُنَّ رجال ؟ هل بِهِنَّ أوهام من حَمِيَّة ؟ لا والذى يعتز المؤمنون بعبادته !! إلا أن يكون فى عرف هذه المدنية حسبان الشرف الذى يتفل عليه الإثم والخسة رجلا ! !

« الرقى والتمائم »

من الشرك تلك الرقى الوثنيـــــة التى تنفثها أفاعى الشيطان . ويالِلنساء الغريرات !! يسطو الكاهن المُشَعْبِذ على عقولهن بتهاويله وطلاسمه . فيصور لهن مرض الإبن مسَّ جنٍّ ، أو صعقة عين حاسدة !! فيدخل الكاهن الدار ، يقود الشيطان خطامه ، ويضع فى يده خنجر الجريمة المسَمَّم ثم يُتَمْتِم بوساوسه ، ويثَّاءب طويلا ، زاعما للأم الملهوفة المخبولة أنه يخرج « العين » من ابنها لجسمه هو ! ! فيالِلتضحية ! ! أو يصرف الجن عن ابنها ! فيالِلقدرة المعجزة! ثم يسطر لها فى ورقه الشيطانى مايسطر ، زاعما لها أن فيه ، وفى رقياه الشفاء . وقد يبتلى الله إيمان الأم فيشفى لها ولدها . فتؤمن بالدجال الدنىء أكثر مما تؤمن بالله . مما يوسوسه لها الشيطان أنها يا طالما دعت الله ، فلم يجب !! أما الكاهن ! فمن بركة رقياه شُفِىَ الوليد العزيز ! ! فماذا يكون جزاء الكاهن الأثيم ؟! أأدلك على الجزاء ، وأنت تعرف أن أقله شأنا كَدُّ الزوج ،وكفاحه،وعرقه ، ودموعه ، ودمه للكاهن الزنيم؟! ولكم نشرت الصحف أنباء مآس دامية ، وفواجع ضحايا ضَرَّسهن الذئب الدجال وأوغل فيهن أنيابه ! ! وإليك من هدى الرسول ما يكشف لك عن حقيقة هذه الرقى والتمائم . قال عليه الصلاة والسلام «إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك » «أحمد وأبو داود » « والتمائم : جمع تميمة،وهى خرزات كانت تعلقها العرب على أولادهم يتقون بها العين فى زعمهم ، وإنما جعلها الله شركا ؛ لأنهم أرادوا بها دفع المقادير المكتوبة عليهم ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذى هو دافعه» عن ابن الأثير و«التِّوَلة» شىء تصنعه النساء يتَحَبَّبْن إلى أزواجهن جعله الله من الشرك لاعتقادهن

أن ذلك يؤثر ، ويفعل خلاف ماقدره الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم : «من علق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علق وَدَعَة فلا وَدَعَ الله له » « أحمد والحاكم وأبو يعلى » يدعو الرسول ـ وهو الموصوف بالرأفة والرحمة ، ولين القلب لأصحابه وسماحة الروح فى معاملته لهم — على مُعَلِّق التميمة أن لا يتم الله له ما يأمله ويرجوه ، وعلى معلق الودعة بالقلق الروحى ، والحيرة النفسية ، واضطراب أمور الحياة فى وجوده !! فهل يفهم الكهان ؟

هدى الرسول فى الرقى : قال أنس لثابت البنانى : ألا أرقيك برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى ، فقال : « اللهم رب الناس ، أذهب الباس ، اشف أنت الشافى ـ لا شفاء إلا شفاؤك ـ شفاء لايغادر سقما » «البخارى وأبو داود والترمذى ، والنسائى » وأنت إذا تأملت قليلا فى هذا وجدته دعاء تفيض به أصدق مشاعر النفس وأزكاها ، ويقينَ إيمان ، وقُدْسِيَّةَ توحيد ، وذل عبودية طاهرة ، تحب الله بتوحيده ، وترجوه باليقين والتوكل والإيمان ، فما هو بكلام يكتب فى وعاء ، ثم يشرب بماء ورد ، أو فى ورقة ، ثم تُعَلَّقَ بين السَّحْر والنَّحْر ، وما هو بتمتمات تَمْرُبها يَدٌ يُرْعِشها فَوَرَانُ الإثم فوق جسد المريض ، وإنما هى تبتُّل ، وابتهال وتوسل إلى الله بدعائه وحده ، وماهى بطلسمات مجوسية ولكنها بيان يتألق فيه إشراقُ الفصاحة يضىء الأفهام . فأين من هذا الدعاء الذى تُفَتَّح له أبواب السماء ما أقصه عليك الآن « بطد زهج واح ياجى أنت هو نقسم عليك بسيدنا محمد أن تسخر لى الخلق كلهم ، ونقسم عليك بحق طهور بدعق سقفاطيس أحون ، قاف ، آدُمَّ حُمَّ هاء آمين . أقسم عليك اللهم بهذه الأسماء أن تلطف بى » لعلك مما قرأت مَشْدُوهٌ بالغ الحيرة تحسب بى مَسًّا من خبال ، أو تحسب نفسك بين أبالسة تُدَمْدِم بالشر ، وتزبد ! لا ياأُخَيَّ : فإنى نقلتها لك والذى نزل الكتاب بالحق ـ أتعرف من أين ؟ أتحسبها طقوساً عبرية يهودية ، أو

زمزمات كهانة كنسية ؟ لا لا ، ولكنها « صلوات صوفية » ! ! نقلتها لك من «مجموع الأوراد الكبير» الذى يُطَرِّب به الصوفية للشيطان تحت أَقْبِيَةِ الأسحار، وغلائل الحُلَكُ ! ! .

أفتستطيع أن تسأل الصوفية عن هذا ؟ سيزمون شفاههم فى تهكم ساخر قائلين لك « مسكين أنت ياأعمى البصيرة ! » وان يستطيع « درويش » سؤال شيخه عن هذا . إذ قالوا لهم : إن من يعترض على هذا يُطْرَد من حظائر القدس ودواوين الولاية ، ويطاح به من فوق عروش القطبانية ! ! وبهذا الوعيد الأُسْطُورِىِّ حالوا بين أتباعهم و بين أنوار الحق ، وقداسة الربانية .

وقال صلى الله عليه وسلم « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب. وهم الذين لا يرقون، ولا يسترقون ، ولا يكوون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون » «متفق عليه» ألا و إن من أوقح مظاهر السخرية بكتاب الله أن يحمل تميمة «حجابا» تحت الإبط الأذفر ، أو على الصدر العِرْبيد ، أو على النحر نحرتة الرذيلة أو يوضع تحت الوسائد ـ تَوَسَّدَها الإثم ـ حتى لاترى الأحلام المزعجة ، أو حتى يصرف عُمَّار البيت من الجن ، ومن مشابه شرك الجاهلية مايحمل الناس من مِزَقَ لفائف الأضرحة ، وخرق أستارها ، وعمائم أصنامها . وقد تسامت فى الوثنية بعض الغوانى المترفات اللاتى لاهَمَّ لهن إلا تدليل الكلاب ، فحملن الصليب ـ وهن مسلمات الأسماء ـ على صدورهن التى يا طالما حمل عليها الشيطان أوزاره ! ! تلك بعض مظاهر الشرك فى الجماعات الإسلامية . وحسبى تذكيرك بالبعض الذى تعرف به الكل . وقد بينت لك من القرآن والسنة حكم الله على جارميها ، وإنى لَأَكاد ألمح الآن ما سَيُؤَجِّجُه الحقد فى بعض النفوس من ثورة ثائرة على هذا الكاتب الضعيف يحاول بصرخاته أن يُسْمِع صوته لمن يجرفهم الطوفان ، حتى لا تهوى بهم لُجَجُه إلى أغوارها السحيقة . ولكن لهؤلاء أقول : إنها كلمة حق طيَّبَها ذكر القرآن ، فَخَلُّوا الطريق للحق مرة واحدة فى الحياة !! .

عن أبى واقد الليثى قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ـ ونحن حديثو عهدٍ بِكُفْرٍ ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها،وينيطون بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط ـ فمررنا بسدرة ، فقلنا يارسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر إنها السنن . قلتم ـ والذى نفس محمد بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى (٧ : ١٣٨ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون) لتركبن سنن من كان قبلكم » « البخارى، مالك ، النسائى . الموطأ » مجرد الرغبة فى مشابهة المشركين فى عمل لا يمس فى ظاهره حقيقة التوحيد جعله الرسول صلى الله عليه وسلم كطلب بنى إسرائيل أن يكون لهم مع الله آلهة أخرى ! ! أفعتبر المسلمون ؟ ! .

دعوتنا : إنما ندعو الناس بدعوة الله التى جاهد من أجلها رسوله صلى الله عليه وسلم ، ندعوهم إلى التوسل إلى الله بتوحيده فى ربوبيته وإلاهيته ، والإيمان الصادق به ، وإخلاص الدين كله له ، وصدق الجهاد تُحَبُّ فيه التضحية ، ويسمو الفداء،والتسامى عن الجاهلية عقيدة وفكراً وأخلاقاً . ندعوهم إلى التَّوَحُّد الشامل الكامل بروح الحب الإلهى . ولن يكون ذلك كله إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة . وتسألنى — مشفقاً أو هازئاً — لم تُلِحُّون دائماً فى محاربة ماتصمونه بأنه شرك . وأجيبك صادقا مخلصا . ما بيدنا الحكم على المشركين بأنهم مشركون ، بل بيد الله سبحانه . ونحن نذكر الناس بما حكم به رب العالمين على من يقترفون تلك البدع، والمنكرات، وآثام الوثنية ، وماسمى ووصف به هذه الأشياء. ونُنَبِّهم بأنا نلح فى محاربة الأولياء،وأئمة الدين.وأقول : كيف نحارب من يوالى الله وحده،ودعوتنا هى موالاة الله وحده ؟! وإنما نحارب عبادة الأولياء ، واتخاذهم آلهة مع الله ، وجعل قبورهم وموالدهم ، أصناما وأعياد جاهلية ، وما نحارب إماما جليلا ، بل نحارب العصبية المذهبية التى فرقت الجماعة الإسلامية ، واتخاذ كتب البشر أئمة يحكمون بها

على كتاب الله الإمام المبين ، وسنة رسوله خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه .

بماذا ننتصر ؟ : إننا الآن نبصق فى وجوه المستعمرين ، ونرجم باللعنات الغِضاب شرف «الإنجليز» الزائف ، ونتحدى — فى شعور قَوِىّ — قُوَى الشر التى يستحوذون عليها ، بَيْدَ أننا لانملك القوة التى تعين ، وتثبت الأقدام فى الحومة ، وتدفع العزائم إلى مداومة النضال والكفاح . إنها قوة الإيمان والثقة الموقنة بنصر الله ، وعونه لنا فى مجالدة عدوه ، فما زالت النفوس تركم عليها أوثان القبور ، وتنشد الحياة فى ظلال الموتى ، والقلوب لايصلها بالله من كتابه النور ، وما زالت الأيدى تلوثها الجريمة ، والأفواه تطفح بدنس الخمور . ألا فاسمعوا الله يهديكم إلى سبيل النصر والعزة (٢٢ : ٣٨ ، ٣٩ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لايحب كل خوان كفور ، أُذِن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا ، وإن الله على نصرهم لقدير) ويقول : (٢٢ : ٤٠ ، ٤١ ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور)

فإذا شئتم أن يدافع الله عنكم ، وينصركم . فاعملوا بما يبينه لكم . وإنا لنؤمن بأن قوة الإيمان تنداح أمامها كل قوة متجبرة الطغيان ، ونؤمن بأنا لن نكون جديرين بنصر الله إلا حين تُخْبِتُ له منا القلوب ، وتخشع النفوس فى محاريب العبودية الخالصة له سبحانه ، ومن دلائل الإيمان إعداد العدة ، وحب القتال فى سبيل الله لإعلاء كلمته ، والثبات فى الميدان ، وعدم الفرار يوم الزحف ، فلنؤمن بالله ، ولْنُجَنِّد الجنود باسم الله ، ولنندفع إلى الميدان ابتغاء إعلاء كلمة الله ، وثمت ترون ماذا تفعل قوة الإيمان . لن تروعها طائرات تدمر ، ولا ناسفات تنسف ، ولا بارجات تحيل البحر ناراً تتلظى ، ولا قنابل تنشر الموت والدمار . بل ستسمعون أصواتاً يخشع لها قصف المدافع ، ورعود القنابل « يامنصور أَمِتْ »

كما كان يهتف الصحابة ـ والحرب سعير يُدَمْدِم ـ وسيعيد لكم التاريخ ذكرى أنس بن النضر ، مندفعاً إلى الحومة الملتهبة المستعرة ، صائحا صيحة المؤمن ، ينشد الشهادة « واها لريح الجنة ! إنى أجدها دون أُحُد »

عبرة حزينة : مازال العرب والمسلمون فى غمرة الذهول مشدوهين يتساءلون : كيف استعلت عليهم كلمة الكفر ، واستباح حماهم بَغْيُ اليهود ؟.

ولكن اسمعوا أيها التائهون الشاردون عن الحق . وأصيخوا للرسول صلى الله عليه وسلم ينبئكم من أربعة عشر قرناً « يوشك أن تَدَاعى عليكم الأمم كما تَداعى الْأَكَلَةُ على قَصْعَتِها . فقال قائل : ومن قِلَّةٍ نحن يؤمئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ . كثير . ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الْوَهَن ـ قال قائل : يا رسول الله ما الوهن ؟ قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت[1] » .

تلك هى العلة أيها المنداحون بالهزيمة أمام اليهود . لقد قاتلتم اليهود ، وفتون الدنيا تنازع إيمانكم بالله. قاتلتموهم حمية وذياداً ، لا لإعلاء كلمة الله . وكان ماترفهون به عن جنودكم فتن الآثام . وزَبَد المجون !! أربعمائة مليون مسلم يجرعهم غِسْلينَ الهزيمة حثالةٌ من اليهود ضمَّت أوغاد العالم وأوباشه ، ويسحقهم عدو الله الظلوم سحقا . ويملك كرامتهم ، ثم يرمى بها مضغة ذليلة تستنجد ، وتستصرخ !! وما زلتم ياهذه الأربعمائة مليون تزعمون أنكم مسلمون !!

إن بضع نفر من أسود الصحراء ، ونسور الجبال آمنوا حقاً برب محمد ، وبرساله محمد ، وجعلوا الحياة كلها معبداً يُطَيِّبُون محرابه باسم الله ، ومن كل شبر مسجداً يُذْكَرُ فيه اسم الله وحده ، . إن هذه الحفنة القليلة هزت العالم كله ، ومضت تنشر النور والخير والسلام، والمحبة فى الوجود. فالتقى شرقه بغربه ، ومضيا

(١) أبو داود والبيهقى فى الدلائل . والأكلة جمع آكل ، والغثاء مايحمله السيل ويلقيه من الزبد والعيدان ونحوها وتداعى أى ينادى بعضها بعضا لقتالكم وحربكم

يتساءلان عن تلك القوة العالية الجبارة التى لا تقهر ؟ و يسمع الوجود من وراء الغيب صوتا يناديه : « إنها قوة الإيمان الموحّد ». وما هى إلا مائة عام تمضى بعد وفاة الرسول « حتى يصل أتباع محمد غرباً إلى أسبانيا ، وشرقا إلى أن عبروا نهر السند ، فما لبثوا أن وجدوا أنفسهم سادة على إمبراطورية أعظم من إمبراطورية روما فى أوج قوتها [١] » . هذا عمل قلة مؤمنة . ونحن اليوم كثير . ولكننا كغثاء السيل !!.

« الجهاد الأول »

يغلو بعض من لايأخذ القرآن بنواصيهم ، فيزعمون أنا لانبذل الجهد فى محاربة المنكرات ؛ كالسفور والخمر والقمار . ثم يقولون فى لهجة التهكم الظالم : ماسمعنا منكم إلا الدعوة إلى التوحيد ، و إلا اتباع الكتاب والسنة !! واها لهذا الزاعم اللائم !! آو مايقول سُبَّةٌ نُعَيَّر بها ؟ أَوَمَا يقيم أصول الدين ، ويصلح النفوس ، ويسمو بالأخلاق ، يحق لك أن تتهكم بمن يدعون الناس إليه ؟! وهل ذلك لايسمى أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر ؟ ثم أقول : باسم من ننهى عن الفحشاء والمنكر؟ أباسم الأخلاق ، أم باسم الضمير ، أم باسم الإنسانية وكرامتها ، أم باسم القانون ؟ أما القانون فهو الذى مجّد السفور ، وأباح الخمور ، وحمى من يبيعونها ليبنوا بها مسجداً . وسخر قواه لحماية الميسر ، وغير ذلك . أما الأخلاق والضمير والشرف الإنسانى . فما لهذه قِيمٌ فى حقيقتها إلا حين يكون الدين الحق منارها ، والهاديها السبيل ، والمسيطر عليها ، والموجه لها فى عرفان حقائق الخير والجمال ، وتثبيت سلطانها فى النفوس ، فلم يبق إلا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر باسم الدين بل بمعنى أحكم باسم الله . ولكن . كيف ننهى عن المنكر باسم الله قوماً لايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ؟ كيف نأمرهم بمعروف باسم من لايعرفونه ؟

---

(١) ص ١٨ من كتاب الدعوة الى الإسلام تأليف « أرنولد »

ونخوفهم من عذاب من لايخافونه ، ونطمعهم فى ثواب من لايرجونه ؟ كيف ندعوهم إلى طاعة من لايدعونه ؟ كيف نقول للمرأة السافرة : خافى الله ، وهى لاتعرف الله ؟ ولشارب الخمر : اتق النار ، وهو لايؤمن بأن ثَمَّتَ مايسمى بالنار ؟ فليكن الجهاد الأول فى سبيل دعم قلوب هؤلاء المارقين بالإيمان الصادق بالله ، فى ربوبيته وإلاهيته ، والتوكل عليه ، والخوف منه ، والرجاء فيه ، والعمل له ، والقول ابتغاء رضاه . فإذا تمكن سلطان الإيمان والتوحيد من القلوب كانت العقيدة التى لاتمسها الحياة بفتنة ، ولا يخيفها طغيان . وعن هذه العقيدة تتجلى أشرف الأخلاق ، وأسمى الفضائل ، وأزكى المشاعر . فما الأخلاق فى مثاليتها العليا سوى قبس من إيمان القلب الصادق بالله . فمتى شَعَّ فى الروح توحيد الله فى الربوبية والإلاهية استهلَّت الأخلاق نوراً صافياً من النفس والضمير ، وسعد الفكر بعرفان الحقائق . إذ لم يبق فى القلب إلا حب واحد ، هو حب الله ورسوله ، وخوف واحد هو الخوف من الله وحده ، ورجاء واحد ، هو الرجاء فى الله الرحمن الرحيم ، فيعمل المؤمن ويقول ، مخلصاً محسناً صادقاً ، ليس له من باعث إلا محبة الله ، ولا غاية إلا رضاه سبحانه . لايشوب عمله نفاق أو رياء ، ولاعلمه أساطير ، أو خرافات ، ولايقينه شك ، أوشبهات . وذلك هو السبيل الذى أمر الله رسوله أن يسلكه فى دعوة الناس إلى الله ، فركز الدعوة أول أمرها فى تصفية النفوس من دنس الشرك والقلوب من لوثة الوثنية . فكان يتنضر فى نفوس أصحابه جمال الأخلاق من جلال التوحيد . ألم تر إلى نفر منهم كانوا قبل توحيدهم لله بلحظات يترعون من الدنيا مايترعون ؟ ويهيمون فى شتى أوديتها مايهيمون ؟ إذ أشرقت بصائرهم بنور الحق ، ودانت نفوسهم خاشعة للحق واستشعروا كأنما هنالك فى الأعماق الطاهرة من قلوبهم قوة روحية غلابةً تحول بينهم وبين شهوة الإثم ، أو حتى تَوَهُّم الرغبة فيه ، وأحسوا بروح علوية مسيطرة توجههم فى الحياة وجهة الخير والهدى والحق ، وتحلق بهم فوق أسمى الآفاق من البر والرحمة والسماحة ، وتحبب إليهم التضحية فى سبيل

الله ، والفداء لدين الله ؟ ! إنها قوة الإيمان ، وإنها روح التوحيد .

ومضى هؤلاء فى صفاء النية ، وتقوى الروح ، وإخلاص العبودية يتلقون أمر الله ونهيه بقلب خشوع ، ونفس قانتة . لالشى إلا لأنها أوامر الله ونواهيه وكفى . فلايسألون لم أمر بهذا ، أو نهى عن ذلك ، ولِمَ لَمْ يأمر بغيرها وينهى ؟! وقدأمرهم الله بالجهاد فى سبيله ، والقتال لإعلاء كلمة الحق ، فباعوا نفوسهم ، وأموالهم لله ، وقاتلوا وقُتِلوا ، وما قَرَّ لهم قرار حتى ركزوا عَلَمَ الحق الإلهى فوق القمة العليا من الوجود . ذلك مايجب أن نعمل له ، ونجاهد فى سبيله ، ونسلك صراطه فى الدعوة إلى الله إذا كنا نريد أن يكون المسلمون مسلمين حقاً . أما أن تتكون جماعات إسلامية تختص كل واحدة منها بالنهى عن منكر خاص ، أو الأمر بمعروف خاص دون أن تعمل لدعم القلوب بتوحيد الله فى العبادة ، وجمع المسلمين على كلمة واحدة فى الدين ، واعتصامهم بالكتاب والسنة ، يقبسون منهما هدى الدين والدنيا ، وصلاح الفرد والجماعة محتكمين إليهما إذا شب بينهم خلاف ، راضين بحكمهما العدل والحق . أقول : أما أن تتكون جماعات هذا شأنها . فإن الفشل مصير كل دعوة لاتبدأ جهادها من حيث بدأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه . لاتقولوا نحن مسلمون . بل اعترفوا بالحق ، وإن يك مراً علقماً . وقولوا : إننا نعيش فى عصر الجاهلية بعقائده ، وأخلاقه ، وسَوْءاته ، ولن يُدَاوَى الداء إلا بما داواه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولن ينقشع ليل هذه الجاهلية إلا بالنور الذى انقشع به أول مرة ، فإذا لم تتجه هذه الجماعات وجهة الحق فى الدعوة إلى الله وإذا لم تقتد بالرسول فى جهاده معتصمة كما اعتصم بحبل الله . فلن يكون معروف ، ولن ينتهى أحد عن منكر ، ولن يوجَد حكم إسلامى صحيح . لن تنتهى السافرة عن سفورها . بل ربما انحدرت فأسفرت عن سوءتها . ولا شارب الخمر عن دنانها ، ولا جارم القمار عن هلكته ، ولنتخيل رجوع الغاوين عن غيهم . فلن يكون هذا خيراً فى نظر الإسلام ؛ لأنه لم يكن باسم الله ، ولا من خوف عقابه ، أو الرجاء فى

ثوابه . فطالما كان لبعض المشركين سماحة خلقية ، ونبل عاطفى ، وجود سمح فى المعاملة ، ولكنهم رغم ذلك كله عند الله مشركون ؛ إذ ليس فى نفوسهم مايجعل لهذه الفضائل قِيَمَها الصحيحة الحقة ، وهو توحيد الله سبحانه .

فلنجاهد أولا فى سبيل تمكين سلطان الإيمان من النفوس بأن الله وحده هو الذى يجب أن يعبده خلقه ، ويحبوه ، ويخافوه ، ويوجهوا إلى رضاه الغاية والرجاء ، وبأن لا حق إلا فى كتاب الله وسنة رسوله ، وألا دين إلا ما أُخِذَ منها . وثَمَّتَ يعتز المسلمون بعزة الله (٦٣ : ٨ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ويستحقون ماوعدهم به الله من النصر ، وتثبيت الأقوام فى ميادين الجهاد(٤٧ : ٧ إن تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم) . فهل تسمع هذه الجماعات لشاب أوجب الله عليه ألا يتعصب إلا للحق ؟ وهل تصغى فى هدوء لما يذكرهم به من آيات الله ؟ ! ولكمْ ذا نضرع إلى الله أن يشرق صباح ذلك اليوم الذى يتألق بالمجد ، والذى نرى فيه كل الجماعات الدينية فى مصر ، وغيرها وقد توحَّدت تحت اسم واحد سمينا به من قبل ، كما فى القرآن ، وهو «المسلمون» على أن تكون القلوب والنفوس مسلمة ، والعقائد والأخلاق مسلمة ، والعزائم عزائم المسلمين الأولين . لئن حدثت هذه المعجزة،فسنكون قوة يمدها الله بالنصر ، ويدافع الله عنها ، ويسدد لها ما ترمى به صدور عدوه . قوة جبارة رحيمة تُدَوِّى إعصارا على الشرك ، وعاصفة على الفسوق ، وزلزالا يدك الطغيان ، وحربا تدمر الظلم الذى رزح المسلمون تحت أعبائه من عدوهم ، ورحمة تنشر فى الوجود الخير والعدل والسلام والمحبة والجمال .

(٥٧ : ١٦ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون !)

على أى أساس تتحد الجماعات : يقول الله سبحانه داعيا أهل الكتاب :
(٣ : ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا ، فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون) . هذه دعوة الله إلى أهل الكتاب ، وَأَوْلى أن تكون اليوم إلى المسلمين الذين ضرب بينهم الشيطان ، فأصبحوا شِيَعًا تلعن كل شيعة أختها ، فعلى هذا الحق يجب أن تقوم وحدة المسلمين ، وعلى نوره يجب أن تسير كل دعوة إلى الله ، و بهداه يجب أن تسعى الجماعات الدينية ؛ ليتوحدوا جميعا تحت أمر الله ، و بهذه الوحدة ننادى ، و إليها ندعو . وفى هذا السبيل كفاحنا حتى نموت ، لا يضيرنا اتهام بأننا نفرق كلمة المسلمين ، فقد اتُّهِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه فرق بدعوته كلمة قريش ، حتى عادى الولد والده ، والأخ أخاه ، والصديق صديقه !! ولكن ما منعه افتراء ذلك الباطل عليه من أن يمضى قُدُمًا فى الدعوة إلى الله مجاهدا أصدق الجهاد فى سبيل الله ، مقاتلا حتى علت كلمة الله ، لائذا بالصبر الكريم حتى توحدت قريش مرة أخرى ـ لا تحت حكم الطاغوت ـ بل حكم الله رب العالمين . وهل تَرْك الجماعة متوحدة فى ردغة الجاهلية خير من دعوتها إلى التوحد الحق تحت راية القرآن ، وفى قدس هداه ؟! والذى يعد نفسه للدعوة إلى الله وهو يخشى أن يختلف عليه من يدعوهم ، أو يتفرقوا بدعوته . فَأَوْلى له أن يُسْكِت صوته ، ويجرى مع التيار الدافق الباغى يجرفه حيث يجرف الناس إلى الغور السحيق .

السياسة : يعيب علينا بعض المشفقين ، أو الأغرار أننا لا نشتغل بالسياسة !! ولست أدرى ماذا يعنون بمفهوم هذه الكلمة ؟! أيعنون بها أن نسير فى مواكب الأحزاب نهتف بحياة من ماتت فيه الحياة ؟ وننادى بسقوط من التقمه فى جوف غَوْره السقوط ؟ أو يعنون بها تلك المقالات ذات الطنين الذبابى ، التى يزعم

أصحابها أنهم يحاربون بها الفساد وهم المفسدون ؟ ويجالدون الطغيان وهم الذين دانوا به ، ومكنوا له ، وعبدوا أصنامه ؟ ويحاربون الفسوق : وهم سقاة خمره ؟ أو الرأسمالية وهم سَدَنَتُها الطاغون ؟ ويلبسون مسوح الرهبانية ، ويدعون الزعماء إلى الاستقامة وهم الاعوجاج الأول فى بناء أولئك الزعماء ؟ أليس ذلك هو مفهوم السياسة فى مصر ، وحقيقتها فى الشرق ؟ لئن كانوا يريدون منا ذلك . فنحن نبرأ إلى الله أن يمسه صَغار الذل فى موكب الهتاف الوثنى ، أو لوثة الشرك من الرياء الْمُخَاتِل ، والنفاق المداهن ، والحزبية المقيته ، والقول بالحق ، فى حين أن عمل القائل حَرْبٌ عليه . وإن كانوا يعنون بالسياسة العمل فى سبيل رقى الوطن ، واستقلاله وحريته ، فنحن نعمل لما هو أسمى وأكمل وأشمل . إذ لا ننظر إلى الوطنية هذه النظرة القصيرة البلهاء ، ولا ننظر إلى مصر إلا على أنها جزء من الوطن الإسلامى الأكبر ، فالإسلام ليس له وطن خاص ، بل العالم كله يجب أن يكون وطنا له ، وهو ليس دين المصريين ولا دين العرب فحسب . وإنما هو دين يجب أن يتوحد الشرق والغرب تحت حكمه ، ويدين بالطاعة لسلطانه ، ويعمل بشريعته ، ولست بالمسلم إذا كنت حرا ، وكان أخى المسلم فى وطنه القصى مستعبدا لاأعمل فى سبيل تحطيم قيده ، وفك أغلاله ، ولهذه الغاية يجب أن نعمل ، ونوطد النفس على الجهاد فى سبيل تحقيقها . فى سبيل أن يكون للإسلام وحده حكم الشعوب والأفراد فى كل زمان ومكان ، وأن يكون كل شعب يدين به حرا مستقلا تجمع أفراده الألفة ، ويوحدهم فى سبيل الله الجهاد ، ويعصمهم من الفرقة حب الله . وليس فى حكم الإسلام مِنْ خَوْفٍ على من لا يدينون به ، ما داموا لا يحاربونه ، ولا يكيدون له ، ولا يعملون على الانتقاض عليه ، فحكم الإسلام عدل وحق وبر ورحمة . يقتص من المسلم إذا ظلم غير المسلم ، ويحرم البغى والعدوان على من يسالمه وإن كان غير مسلم . وَالسبيل لتحقيق تلك الغاية تربية كل فرد تربية دينية صحيحة تستمد من الكتاب والسنة هداها ومُقَوِّماتها ، وثَمَّ تتكون

الجماعة القوية المثالية التى تدفع بهم هذه التربية إلى تحقيق المثل العليا لكل قيم الدين والفكر والأخلاق ، وتجعل منهم قوة عاملة مسيطرة على كل قوى العالم الإنسانى ، تقاتل دون الحق والعدل ، وتستذل جبابرة الباطل ، وَمَرَدَة الظلم ، وتحطم عن أسارى البطش أغلالهم وقيودهم ، وتعدهم لحياة كريمة يستمتعون فيها ببر الإسلام وعدله .

ولقد فشلت كل نظم التربية ـ وفشل معها القانون الوضعى ـ فشلا ذريعا فى سبيل إيجاد جماعة تجعل من الضمير حاكما عليها قبل الحاكم الزمنى . أما التربية الإسلامية فنجحت نجاحا باهراً هلَّلَ له الزمان وكبر . حكمتْ الضمير بالدين ، فحكم الضمير صاحبه حكما يشل من سطوة الشهوة على النفس ، وهى خطرات تهمس مذعورةً فيها ، فالتاريخ الصادق يحدثنا أن الجماعة الإسلامية الأولى كانت جماعة مثالية فى الأفراد والجماعات ، فى الحكام والمحكومين ، وفى المساواة الكاملة بين هؤلاء جميعا . جماعة انعدمت فيها الجريمة الجماعية ، وكادت تنعدم فيها الجريمة الفردية حتى كان من يستزله الشيطان مرة ، فيقترف جرما ـ دون أن يحس به أحد ـ يشعر بقوة قاهرة تدفع به إلى الإقرار بذنبه بين يدى الحاكم لينفذ فيه حكم الله فيتطهر بالعقوبة ، وهو يعلم أنه سيلقى حتفه فيما سيحكم به عليه ، ولقد كانت تتاح له الفرصة لينكص على عقبيه ، ويرجع عما أَقَرَّ به ، فلا تراوده النفس بالفرار ، ولا يغريه نداء الحياة شجى الضراعة إليه . تلك هى قوة الإيمان الصادق سخرت وجود صاحبها وحياته ودنياه لله وحده ، فلم تحاول الدنيا تسخيره لفتونها .

فإذا وجدت مثل هذه الجماعة مرة ثانية ، فسيتحق وجود الوطن الإسلامى الأكبر ، وذلك هو السبيل الذى سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جهاده بوحى من ربه . ربى أفراداً تربية دينية صحيحة ، رباهم على طاعة الله ورسوله وتقوى الله وحده ، حتى تكونت جماعة قوية ، لا تعبد غير الله إلها ، ولا تتخذ

سواه ربا ، ولا ترضى بغير الإسلام دينا ، ولا بغير الجهاد فى سبيل الله غاية .

وبهذه الجماعة المؤمنة الموحدة المتوحدة المعتصمة بحبل الله سيطر الرسول إمام الدعوة ، وقائد جندها على كل الجماعات التى كانت شِيَعَ أصنام ، وأحلاس آلهة متباينة ، فدخلت فى دين الله أفواجا . . وتجمعت آزال وآباد من تواريخ البطولة والجهاد ؛ لتنظر ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أيامه المعدودات . فيأخذها العجب المشغوف مما صنع . ثم تمضى فى الوجود تمجد اسم هذا النبى الأعظم ؛ إذ أقام صرح دين قويم ، ودولة إسلامية كبرى يتساوى فيها الحاكم والمحكوم فى أيام معدودات من عمره المبارك ، وشيد ما لم يستطيع أن يقيمه عباقرة أبطال العالم وزعماؤه مجتمعين فى دهور داهرة ، ولا عجب فى هذا . فإنما كان يدعو إلى الله ، ويشيد — ما يشيد — باسم الله ، متوكلا على ربه ، فأمده الله بروح منه وأيده بجنوده ، وكان الله معه فى كل لَبِنَةٍ يضعها فى صرح هذا البناء الأعظم ، هذا هو العمل إن كنتم تريدون عملا ، أما العمل لرقى الوطن واستقلاله وحريته فما هو إلا جزء من الكفاح الأكبر .

من أثر السياسة : تذهب حكومة فيرجمها الفريق الأكثر باللعنة ، ويسوطها بالنقمة . ولماذا ؟ لا يدرى ! ثم يسيرون فى موكب الحكومة الجديدة ، وهتافهم صخّاب بحياتها ، وأكفهم راعدة بالتصفيق لها ، وبشائرهم مُعَرْبِدَة بعدالتها ، فلماذا — وهى صنو الذاهبة ؟ لا يدرى ! ! وما هى إلا لحظات ينشط فيها الذاهبون حتى ترى هذا الفريق نفسه يهب مطالبا بغيرها ، فإذا ذهبت شيعها بما شيع به الأولى فوار مَرَاجِل الغضب ، لاعنا إياها بنفس الشفاه التى سبحت بحمدها ، هادرا متوعدا بنفس الأكف التى أدماها التصفيق فى بَهْرَج مواكبها ، ناعتا حكمها بالجوار بنفس الألسنة التى نصبت من كثرت ما بشرت بعدالتها !! لماذا ؟ لا يدرى !! ولكن أتعلمون لماذا يحدث ذلك ؟ لأن هذا الفريق المظلوم ضحية تعسة لأحباره ، وكهانه ، وزعمائه ، استعبده بالهوى الكهان ، ورماه فى الفتنة الأحبار ،

وضل به عن الحق زعماؤه ، فلا هو بدينه الحق يحفل ، ولا بقيمة العليا يؤمن ، ولاهو ينظر إلى ما حوله النظرة الإسلامية الصائبة المسددة التى تفصل ، وتميز بين الحق والباطل ، أو العدل والظلم ، أو الخير والشر ، فلا يعنيه من حكومته أتقيم الدين ، أم تدك قواعده . أتحيي أمجاد الإسلام، أم تجهز على زهراتها اليتيمة ، وهى لمّا تنس دِفْءَ الأكمام؟ أتعين على الدعوة إليه، وإلى الحكم بشريعته ،أم تكبت بِطَغْوَاها حتى الهمسة الحالمة ، والهتفة المذعورة من سطوة الإرهاب ؟ فيا للجريمة النكراء التى اجترحها كهان هذا الشعب وأصنامه !! ويالهذا الشعب القتيل تحسب عليه ظُلْمًا جناية قاتله!!فى حين أن طبيعة التدين مستقرة فى أعماق هذا الشعب، ولكنها تريد التقويم بالحق،والتوجيه الصحيح،وأقرب شاهد على ما أقول . ذلك الموقف الإجماعى من هذه الأشربة الغريبة ، فليت القادة وعلماء الدين يلتفتون إلى هذه العظة بالاعتبار ، فيقودون الشعب بالحق من الدين ، ويعلمونه ألاَّ حكم إلا لله ، وألاَّ دين إلّا ما أخذ من الكتاب والسنة ، وأن شريعة الإسلام أسمى وأعدل ، وأهدى من كل قوانين البشر .

ذلك مانريده ، وندعو إليه ، ونعمل له . فهل يعاب علينا إذن أننا لا نشتغل بالسياسة وماذا يُسَمَّى هذا الذى نجاهد فى سبيله ؟ ! ثم إن من يعيبون علينا ذلك يزعمون أنهم باشتغالهم بالسياسة يحاربون من يدجلون باسم الوطنية ، ويُشَعْبِذُون باسم السياسة ، فيجنون على الوطن ، وعلى السياسة . أفأولئك خير ، أم من يسوسون الناس بالحق من الدين ، ويحاربون من يدجلون باسم الدين ، ويجنون بشعبذتهم على الدين ؟ إننا نقتحم على الطاغوت معبده ؛ لتدميره على من يتحاكمون إليه ، وعلى الصنم هيكله لتحطيمه على رءوس عابديه ، ونناضل الكهنوت الذى اسْتَشْرَى خطره الداهم ، يتراءى للناس بما يسميه الروحية فى الإسلام ، فيجتث عقائد المسلمين باسم الإسلام ، ونهتك قناع القداسة الزائفة عن وجوه قوم صنع لهم عُبَّادُهُم سِيَرَ القديسين والشهداء ، وسموهم حجج الإسلام

وأقطابه وماهم — بعد مامزقنا سِتْرَالرَّهَبُوت المطلسم عنهم — إلاحجج أعداء الإسلام على المسلمين : ونبصِّر ضحايا التصوف التعساء ، ليروا أيَّةَ هوة من الإلحاد فاغرة فاها تحت أقدامهم ، تُرَدِّيهم فيها طقوس التصوف ، فى حين يصورها لهم طواغيته أنها الذورة العليا من قدس الربانية ! ! فنحن إذن نحمى الوطن بحماية دين الله ، ونُعْلى من شأن الوطن بإعلاء كلمة الله ، وكلما اعتز المسلمون بالله اعتزت شعوبهم وأوطانهم ، فلنعمل لإقامة الوطن الإسلامى الأكبر بإقامة الدين قبل كل شىء .

كمال الشريعة الإسلامية وسموها

الإسلام توحيد ، وعدل ، وإحسان ، وإخلاص ، وصلاح للعباد فى الدنيا والآخرة ، وفى القرآن والسنة تفصيل بيِّن واضح لذلك كله ، لما يجب أن نعتقده فى الله ، ونعبده به ، ونقوِّم به الأخلاق ونصلح النفوس ونحكم به ، فى قضايا الدين والدنيا ، فليس للإنسانية من حاجة بعده إلى فلسفة ، أو قانون ، أو مذاهب يزعمون لها أنها تقيم أسس الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية على أسس من العدالة والمساواة والنظام ، فى الإسلام تقويم للشخصية الإنسانية ، وتحقيق لوجودها الذاتى ، فلاهو يدعوها إلى الاِمِّحَاءِ الكُلِّىِّ فى الآخرين ، ولاهو يدعوها إلى التفرُّد فيما تعمل لبناء الحياة ، ومن مظاهر هذا التقويم . التكليف . فلابد للفرد من أن يعمل ، ويكدح ، ويجِدَّ دون أن يتوا كل ، أو يتخذ من الآخرين سناداً يغنيه عن العمل . ثانيا : المسئولية المباشرة ، فكل فرد مسئول عما يعمل . ولن تتاح له الفرصة لإلقاء تبعاته على الآخرين ، ثالثا : رفع الحجب والوساطات بين العبد و بين ربه ، فلا يخاف ظلماً ولا هضما ، ولا يستعبده الخوف من سلطان ولا يسْتَذِلُّه الرجاء فيه . رابعاً : المساواة الكاملة بين أفراد الجماعة البشرية ، فلم يجعل قِيَماً للتفاضل بين الناس ، سوى الإيمان بالله ، وتقواه ، والعمل الصالح له (٤٩ : ١٣ إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أنسابكم هذه ليست

بسباب على أحد ، وإنما أنتم ولد آدم طف الصاع لم تملؤه ، ليس لأحد فضل على أحد إلا بالدين أو عمل صالح أحمد والبيهقى . وقال « إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبيَّة الكبر ، الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجُعْلان التى تدفع بأنفِها — أى أنوفها — النَّتْن » أبو داود والترمذى . وقد تسامت شريعة الإسلام فى تقرير المساواة إلى أفق لا تحلم به قوانين البشرية ومذاهبها . وإليك من السنة ما يبين لك عن ذلك الأفق الرفيع الذى تسامت إليه المساواة فى الإسلام ، عن المعرور بن سويد رضى الله عنه قال : دخلت على أبى ذر بالرَّبَذَة ، وعليه بُرْدٌ ، وعلى غلامه مثله ، فقلنا : يا أبا ذر . لو أخذت برد غلامك إلى بردك ، فكانت حلة وكسوته ثوباً غيره ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه ما يَغْلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه » أبو داود . هذا حق المملوك على مالكه أُخُوَّة ومساواة فى المأكل والمطعم ، وبر ، ورحمة ، وتعاون فى العمل الشاق !! وبين الرسول ما يجب أن نعامل به الخدم « إذا صنع لأحدكم خادمُه طعامَه ثم جاءه به — وقد وَلِىَ حَرَّه ودخانه — فليقعده معه ، فليأكل ، فإن كان الطعام مشفوهاً — أى على قدر الشفة — قليلا فليضع فى يده أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَين » البخارى ومسلم وحدد القرآن موقف المسلمين من مجهولى الآباء ، فقال : (٣٣ : ٥ فإن لم تعلموا آباءهم ، فإخوانكم فى الدين ومواليكم) أى : حلفاؤكم ونصراؤكم ، ومثل ذوى قرباكم ، وفى يقين الحق لن تتسامى فى الوجود عدالة ، أو رحمة ، أو مساواة إلى هذا الأفق الرفيع .

وقوَّم الإسلام الجماعة بدعوتهم إلى التكافل ، والتضامن ، والتعاون والتآخى ، وموالاة كل مسلم لأخيه المسلم ، وحذر من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، ومن ازدراء

المؤمن بأخيه أو تحقيره ، قال تعالى : (٤٩:١٠ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) (٥: ٢ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) (٩ : ٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

تلك هى خصائص الجماعة الإسلامية فصلتها الآية الكريمة تفصيلا هاديا وما من جماعة تعمل بها إلا وتتوحد فى المشاعر ، والنيات ، والغايات ، والأعمال ، وكان الله وليها وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا ، وقال صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يَحْقِرُه ، . التقوى هٰهنا ، « ثلاث مرات » ــ مشيراً إلى صدره ــ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وعرضه وماله » « مسلم » وليس انطواء الفرد على نفسه من خصائص الإسلام ، ألا تراه يفضل صلاة الإنسان فى جماعة على صلاته ، وهو منفرد ؟ ألا تراه فرض الجمعة ، وسن العيدين ، وفرض الحج ، وفرض الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ؟ !

والإسلام يدعو إلى العمل ويحث عليه دائما (٩ :١٠٥ وقل اعملوا ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) (٢٣ : ٥١ ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) (٦٧:٢ الذى خلق الموت والحياة ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وأوجب الإحسان فى العمل ، وأن تكون النية فيه ابتغاء وجه الله ، وأن لا يظلم به غيره (٢ : ٢٧٩ لاتَظْلِمُون ولا تُظْلَمون) (١٠:٦١ وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تُفيضُون فيه) . وقد ذُكِرَت كلمة « عمل » فى الآية مُنَكَّرَة مطلقة ، فيدخل تحت مفهومها كل عمل فى الحياة سواء أكان عمل دين ، أم عمل دنيا من تجارة ، وصناعة ، وزراعة وغير ذلك ، فما قيد الله سبحانه العمل إلا بما يُزَكِّيه ، ويقوِّمه ، ويسمو به :

أن يكون صالحا حسنا ، وأن تكون النية فيه لله خالصة . وهكذا يوجب الله على المسلم أن يعمل لله ، وأن يعمل — باسم الله — كل ما فيه صلاح ، وإصلاح ، وإحسان ، للفرد والجماعة مما يقوِّم الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية وغيرها . حتى ليجعل من هذا العمل عبادة يثيب سبحانه عليها رغم أنه واجب ، ورغم أن المنفعة فيه تعود بالذات على العامل نفسه ، ويحث الإسلام على القيام بكل ما على الإنسان من حقوق — لا حق الله وحده فحسب — بل حق النفس ، وحق الأهل ، وحق الجار ، وحق الجماعة التى يعيش معها «إن لربك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً . فأعط كل ذى حق حقه » « البخارى » وفرض الزكاة على الأغنياء للفقراء ، وندب إلى الصدقات ، وجعل المتصدق بماله كمن يقرض الله قرضاً حسنا ، ذلك ، لأن مال الغنى إنما هو فى الحقيقة مال الله ، أعطاه إياه ، فلا يحق له أن يتصرف فيه إلا بما يحب الله (٢٤ : ٣٣ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) ، وحرم الإسراف والتقتير ، وحرم الربا ، وأحل البيع والتجارة ، وفصل الحلال والحرام تفصيلا بيناً فى هذا وغيره حتى يقوم بناء الجماعة الإسلامية على أسس مكينة ، وتصلح عقيدتها ، وخلقها وعملها ، ودينها ، ودنياها . فمن الجهل بالإسلام ، والضلال فى فهم شريعته أن ننزل به حتى نَصِمَه بمصطلحات البشر ، فنقول عنه للناس : إنه اشتراكى ، أو رأسمالى ، أو غير ذلك فالإسلام فوق كل أوضاع البشر ، ومذاهبهم عدلا ، وهداية ، ورحمة ، وحكمة ، وسمواً . إنه حاكم لا محكوم . يُحْكَم به ولا يحكم عليه بما يصطنع البشر . يقاس به و بقيمه ولا يقاس هو على أهواء الناس . بل الإسلام ليس من هذه المذاهب الاجتماعية ، والأوضاع الاقتصادية فى شىء (٦ : ١٥٩ إن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً ، لست منهم فى شىء) حتى و إن كانت هذه المذاهب عدلا و إحساناً ، بل و إن كانت آثارها الخير كله ، فإنها أوضاع بشرية لا يسمى حقها وعدلها وخيرها — إن كان فيها شىء من ذلك — باسم الله ، وليست الغاية منها طاعة الله ، بل إن

المبشرين بها أنفسهم لا يحبون أن تكون لله وما لم يكن العمل كله لله ، أو باسم الله ، ومن دين الله ، فهو عمل للشيطان ، و باسمه ، وابتغاء وجهه . ألا ترى الشريعة تبيح أكل الذبيحة إذا ذبحت باسم الله ، وتحرمها إذا لم يذكر عليها اسم الله . وما تغيرت الذبيحة فى الحالين ، بل هى هى بلحمها ، وشحومها ، وعظامها . وإنما الذى تغير نية العامل ، وغايته من عمله ، فهى حلال بنية وغاية ، حرام بنيه ، وغاية لا تستهدفان الحق ، وهو طاعة الله وابتغاء رضاه . والله سبحانه يرضى بدرهم المسلم ويضاعف له ثوابه عليه ، ولا يرضى بملايين المشرك يقيم بها مئات المشافى والمدارس ، ويحبط له كل ما عمل . فالقاعدة التى وضعها الإسلام لكل عمل هى التى بينها الرسول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » وكما توحى الآية : (٢٢ : ٣٧ لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم) فمن الواجب أن ننظر إلى كل هذه الأوضاع البشرية التي يبشر بها خصوم الإسلام وعدوه نظرة التحقير والازدراء ، ونؤمن إيمانا لا ريب فيه أن الإسلام هو الذى يجب أن يحكم ، ويشمل سلطانه كل مقومات الحياة ، اقتصادية كانت أو اجتماعية ، فكرية كانت أو خلقية ، وأن تكون لشريعته الكلمة العليا ، والحكم على كل القيم وإلا كنا ممن يتهمون الله — جل شأنه وتعالى وتنزه — بأن شريعته لا تصلح الحياة ، ولا شئون الدنيا ، ولا نظم الوجود ، وممن يتخذون بعض خلق الله آلهة وأرباباً .

أما القانون الوضعى ، فالإسلام أعدل منه ، وأحكم ، وأقوم تهذيباً ، وتأديباً وتربية فالقانون يحاسب على الظاهر ، فحسب ، أما الشريعة الإسلامية ، فحسابها على الظاهر والباطن ، لأن الجريمة الظاهرة ما هى إلا فعل الجريمة الباطنة ، وعقوبة القانون دنيوية فحسب ، أما العقاب فى الشريعة ، فدنيوى وأخروى ، القانون يعاقب المجرم ، ولا يثيب المطيع أما المطيع فى الشريعة فله ثوابه فى الدنيا ، إذ يمده الله بالبركة تشمل وجوديه الروحى والمادى . وله ثوابه الأسمى فى الآخرة : جنة

ورضوان من الله . القانون يحدد مفاهيم الشر ، وينهى عن عمله ، ومفاهيم المنكر ويحذر منه ، وقد يكون الشر والمنكر اللذان حذر منهما خيرا ومعروفا فى ذاتيهما ولكنه لا يحدد مفاهيم الخير ولا المعروف ، إذ لا يهمه أن يُفْعَل الخير ، بل أن يُجْتَنَب الشر فحسب ، أما الشريعة فتنهى عن المنكر ، وتأمر بالمعروف ، وتحذر من الشر ، وتحث على الخير ، فعناية القانون بهذا إنما هى بالأخلاق السلبية ، أما الشريعة فتعنى بالسلبية وبالإيجابية ، فتنهى عن الزنا وتأمر بالزواج ، وتنهى عن السرقة ، وتأمر بالصدقات ، وتنهى عن عبادة غير الله ، وتأمر بعبادة الله ، وتأمر بالصوم ، وتحث على الجهاد ، وتنهى عن المعصية ، وتأمر بالطاعة . وقد يفلت المجرم إذا استخفت جريمته من عقاب القانون ، ولكنه فى الشريعة لا يفلت من عقاب الله الذى يعلم السر ومايخفى ، والقانون متطور بتطور الجماعة ؛ لأنه من وضع البشر ، ففيه ما فى البشر من نقص وعجز عن بلوغ مراتب الكمال . وقد يتطور ، فيظلم بعد عدل ، وينقص بعد تمام ، أما شريعة الإسلام فثابتة كاملة ؛ إذ هى وحى الحكيم العليم الخبير ، خالق الأزمنة والأمكنة ، الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص . والقانون يختلف تبعا لاختلاف وضّاعه ، وزمانه ومكانه . أما شريعة الله فواحدة يكلف بها الشرقى والغربى على السواء ، وتسأل من سيجىء ، كما سألت من مضى ، وكما تسألنا الآن وقد يحرم القانون الجريمة بوصف ، ويبيحها بوصف آخر ، أما شريعة الإسلام فتحرمها تحريما قاطعا ، غير أنها تخفف من عقابها إذا ما انعدم فيها ركن النية وتصفها بالخطأ (٣٣ : ٥ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ماتعمدت قلوبكم) والقانون لا يحاسب على الجريمة التى يعود أثرها على الفرد فى ذاته ، ولا على الجريمة النفسية كالحقد والحسد والبغضاء ، ألا تراه يبيح للفرد تناول بعض ما حرم الله من طعام وشراب مما لا يضار به سواه من تناوله إياه . ذلك ؛ لأنه يهدف ـ أكثر مايهدف ـ إلى وقاية الجماعة لا الفرد فتراه لا يعاقب شارب الخمر ـ وفيها هلاك الفرد ، وتدميره ـ على تعاطيها ، ولكن

على آثاره التى تلحق الضرر بالجماعة إذا عربد السكير ، أما شريعة الإسلام ، فوقاية للفرد من نفسه ، ومن الجماعة ، وللجماعة من نفسها ومن أفرادها . فتعاقب على نفس تعاطى الخمر ، وعلى آثاره المترتبة عليه ، وتأمر بعقاب قاطع الطريق ، أو الثائر على الجماعة المسالمة عقابا صارما ، والجماعة المسالمة التى تبغى على الأخرى . أما دعاة الخير والإصلاح ، فليسوا بثوار فى نظر الشريعة بل هم العباد المكرمون عند الله . فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كالصلاة على كل مسلم ومسلمة والله يصف المؤمنين بأنهم المتواصون بالحق ، فلا تفتنهم شبهات ، وبالصبر فلا تستزلهم شهوات ، وتعاقب الشريعة على الجرائم النفسية . فتتوعد الحاسد أو الحاقد وغيرها بغضب الله ولعنته ، وذلك ، لارتباط الظاهر بالباطن عند الشريعة فى الإنسان المكلف (٣٣:٧ قل : إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق) هذا بعض مابين شريعة الإسلام ، وبين القانون الوضعى من فروق ، وما يجوز فى الحق أن تكون بينهما مقارنة ، فالمقارنة لا تصلح إلا حين يكون الشيئان من جنس واحد ، أو يكون الفرق بينهما غير بين ، والقانون ليس من جنس الشريعة ، فهو من أهواء البشر ، وشهواتهم وعواطفهم ، أما الشريعة فمن وحى الحكيم العلى الخبير خالق البشر . رب السموات والأرض ، فإذا حكم القانون ، وبلغ ذروة العدالة والقوة فى حكمة ، فلن يصلح ممن يحكمهم إلا ظواهرهم ، ولن تطهر من لوثات الجريمة سوى جوارحهم . وإذا حكمت الشريعة صلح الظاهر والباطن ، وزكى من كل فرد سره وعلانيته ، فيصبح فى ذاته وحدة تتجاوب مع الخير والحق والهدى ، باطنها كظاهرها ، ونيتها كعملها ، وباعثها كغايتها صفاء وتساميا وطهارة .

ويتسامى الإسلام فى إيجاب العدالة والمساواة ، فيوجب على الحاكم الحكم بما أمر الله ، وأن يكون هو أول عامل بشريعة الله ، حريصا أشد الحرص على الاستقامة كما أمر الله ، مقيما حدود الله حتى على نفسه وأهله ، ولهذا كان الرسول

صلى الله عليه وسلم أعظم حاكم كما كان أعظم رسول ، كان أحرص الناس على دينه، وأولهم تنفيذاً لما تأمر به شريعة الله ، مقيما حدودها بالقسط ، آخذاً بحق الفتى من مولاه ، والحقير من الأمير ، والوضيع النسب من شريفه ، لايحابى فى حكمه ولا يداهن ، ولا يبتغى بما يحكم به إلا وجه الله . حتى لم يرض له ربه أن يكون خصيما للخائنين،ولا أن يمنعه بغضه لخيانتهم من أن يعدل بينهم (٤:١٠٥ ولاتكن للخائنين خصيما) (٥ : ٨ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى) ولم يرض الله لرسوله أن يستغفر لبعض ذوى قرباه ، ممن لم يؤمنوا بالله سبحانه ، وكانوا أبر الناس بالرسول فى طفولته وشبابه ، وأحناهم عليه قلبا فيما يعالج من شئون الحياة ، بل كان منهم من كان له العون على تأدية رسالته والحماية القوية من كيد خصومه !! وكان صلى الله عليه وسلم يحث أهله على العمل، ويحذرهم من التوكل على أنهم أهله وأحباؤه فيتواكلون ، ولا يعملون . صادعا بالحق فى قوة يؤكد لهم أنه لن يغنى عنهم شيئاً من الله ، ويحذرهم من أن يعتدوا حدود الله ، وإلا أقام عليهم حدود الله جل شأنه ، دون أن تشفع لأحدهم بنوة ، أوعمومة أو خئولة . أو غير ذلك مما يدنيهم من رحم قرباه صلى الله عليه وسلم . فقد جاء أسامة حِبُّ الرسول يشفع فى شأن المرأة المخزومية فقال عليه الصلاة والسلام « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ـ ثم قام فاختطب ، ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لوأن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سرقت لقطعت يدها « متفق عليه » وفى رواية « فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: أتشفع فى حد من حدود الله ؟ فقال أسامة : استغفر لى يارسول الله . قال : ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها »فهل فى القوانين الوضعية ـ يبشر وضاعها بسمو عدالتها ـ مايدنو قليلا من قمة هذه العدالة السامية ؟

« وسائل التوحيد أو دلائله »

لتوحيد الله فى الربوبية والإلهية وسائله أو دلائله . فهى وسائل لمن شاء أن يكون خالص التوحيد اعتقاداً وعملا ، ودلائل يفصل بها المؤمن الصادق بين الموحد والمشرك وتلك الوسائل هى حسب ما فهمته من كتاب الله واستنبطتها منه .

أولا : طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : تقوى الله سبحانه وتعالى وحده فيما يطيع به الإنسان ربه ، والرسول ليكون لله الدين الخالص.

ثالثاً : اتباع الكتاب والسنة ، حتى تكون الطاعة عن بيِّنة هادية ، والعمل خالصاً من كل شائبة ، والاعتقاد فى الله حق اليقين .

رابعاً : الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله كلما وقع بين المسلمين خلاف سواء أكان فى شئون الدنيا ، أم فى شئون الدين ، حتى تظل وحدة المسلمين ثابتة مكينة ، والتآخى بينهم قوياً صادق الشعور .

خامساً : الحكم بكتاب الله وسنة رسوله بين المختلفين ، أو المتخاصمين مسلمين أو غير مسلمين ، حتى تظل الدولة الإسلامية، قوية العماد ، لاينتقض عليها أفرادها ، ولا يختلف فيها محكوم على حاكم ، مادام حكم الله يشمل الجميع ، ويطبَّق عليهم تطبيقاً صحيحاً عادلا .

سادساً : الرضى بحكم الله ، والصبر عليه ، والإذعان الكامل له .

تلك هى ذلائل التوحيد ، أو هى وسائله التى يجب على المسلمين أن يتوسلوا بها وحدها إذا شاءوا أن يكونوا أولياء الله وأن يكون الله وليهم ، وأن يسودوا العالم كله بالحق والعدل والسلام والرحمة والخير والحضارة والعمران .

وتلك الوسائل متلازمة لاتنفصل إحداها عن الأخرى ، فلن تكون مسلماً ، إذا ادعيت طاعة الله ورسوله ، وأنت تتبع فى دينك غير الكتاب والسنة ، ولن

تكون الدولة مسلمة ، إذا لم تحكم بالكتاب والسنة ، ولن يكون المسلم مسلماً إذا مااتقى فى عمله غير الله ، أو ابتغى به غير وجه الله . و إنى لشديد العجب ممن يفترون على الله الكذب ، و يقولون عليه بغير علم ، فيزعمون أن الدين لاصلة له بشئون الحكم ، ولا بشئون الحياة !! كأنما الدين تشريع للفرد فى نفسه ولا صلة لأحكامه بشئون الجماعة !! أو كأنما الدين عبادة للصومعة ، أما خارج الصومعة فمباح للفرد أن يعمل كيف شاء ، وأن يحكم بما شاء أن يجعله قانوناً له فى الحياة يسير بمقتضاه ، (٤ : ٦٠ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، و يريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً » . هذا ما يريده أولئك المفترون ، ببغاوات التقليد لوثنية الغرب و إلحاده عُبَّاد المرأة وسفورها الماجن .

(الوسيلة الأولى : طاعة الله ورسوله[1])

(٣ : ٣٢ قل أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين) والذى يقترف البدعة يزعمها حسنة متولٍّ عن طاعة الله ، جاحد بسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهو ممن عناهم الله سبحانه — والله أعلم — بقوله : (٣:١٠٦ فأما الذين اسودت وجوههم . أكفرتم بعد إيمانكم ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وماوجبت طاعة الرسول إلا بأمر الله و إذنه (٤:٦٤ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) وقد نبتت للشيطان فتنة جديدة دفعت بعض من ختم الله على قلوبهم إلى حمأة جديدة من الكفر ، إذ يفترون الكذب على الله ، فيزعمون أن القرآن وحده هو مصدر التشريع ، أما السنة فلا !! وهؤلاء أشد على الدين خطراً ممن يُنَابذونه العداوة جهراً ، إذ يتراءون بالتقديس الخاشع لكتاب

---

(١) الذى ارتضيته هنا منهجاً هو التذكير ببعض ما يتعلق بكل وسيلة من الآيات القرآنية ومن أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، معقباً فى اختصار على كل آية بما وفقنى الله سبحانه إليه فى فهمها .

الله ، فيحسبهم الغرُّ المفتون من ذوى الفكر الثاقب الحر ، والتجديد الموهوب !! ولا أدرى كيف تصدق طاعة الله إذا عصيت سنة رسوله ؟! كيف يتحقق الإيمان بالقرآن إذا كفر بسنة من نزَّل الله عليه القرآن ؟ أيؤمنون به رسولا جاء بالقرآن ، ويكفرون به رسولا بين مافى القرآن؟ والأمين الذى ائتمنه الله على كتابه، فبلغه ، وشهد الله له أنه بلغه ، أليس هو الأمين الذى بين وفصَّل أحكام أمانة ربه ؟ (٥٣ : ٣ وما ينطق عن الهوى) (١٦ : ٤٤ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ماتُزِّل إليهم) (١٦ : ٦٤ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) ويقول صلى الله عليه وسلم : « لاأعرفن الرجل منكم يأتيه الأمر من أمرى إمَّا أمرت به ، أو نهيت عنه ، وهو متكىء على أريكته . فيقول : ما ندرى ماهذا !؟ عندنا كتاب الله . وليس هذا فيه !! وما لرسول الله أن يقول مايخالف القرآن و بالقرآن هداه الله » « أبو داود ، الترمذى » و إن هذا الحديث ليعد من أعلام النبوة فما أخبر به واقع اليوم !!

جزاء الطاعة : كل نفس إنسانية يشغفها الظفر بالخير الدائم حبا ، وتصور لها أحلامها الشاعرة أن تظفر بذلك الخير فى مكان تباكره الآمال ، وتغاديه السعادة ، وزمان يطول كالأبدية ، ترف بالطمأنينة أنهاره ، وتمسى على السلام لياليه ، بين أخلاء أمجاد أعزة ، خُلَّص القلوب ، يحيُّونه بالإيثار ، ويصافحونه بالمحبة . غير أن هذه الآمال النفسية لن تكون فى هذه الحياة إلا صوراً يسحر بها الخيال صاحبه ، ولكن الله سبحانه وعد المطيع ـ ووعده الحق ـ بما هو أسمى وأجل وأصدق من تلك الآمال . وعده أن يظفره بالخير العظيم الدائم الثابت السليم العواقب (٣٣ : ٧١ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما) .

ولكن ما هذا المكان الذى ينعم فيه المطيع بهذا الفوز العظيم ؟ (٤٨ : ١٧ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار) فوز عظيم يسعد به المطيع فى مكان كريم هو جنة الله الخالدة . ولكن تُراه يمضى مع الديمومة فى

الخلود تسئمه الوحدة ، ويقلقه التفرد فى مجاليه الوضاء الفساح ؟ كلا . بل سيكون مع صحاب آخرين . فمن هم أولئك الصحاب البررة ؟ وما مكان ذلك المطيع السعيد بينهم ؟ (٤ : ٦٩ ومن يطع الله والرسول ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا) .

فوز خيره دائم ثابت ، وعاقبة كلها أمن وسلامة ، ومكانة ما فوقها للسمو مكانة ، وصحاب هم المصطفون الأخيار عند الله . كل هذا فى جنة الله الخالدة .

الوسيلة الثانية : تقوى الله

الطاعة نية قبل أن تكون قولاً أو عملاً . وقد يكون الباعث النفسى عند المطيع خشية الناس ، وتكون الغاية من طاعته ابتغاء الذكر الحسن ، فيجهد نفسه فى الطاعة ، حتى يسلم من التقول عليه بما يسىء إلى مكانته التى يحرص عليها ، ويشيدها بالنفاق والرياء ، ويكدح فى العمل ليعبق ذكرها بين لِدَاته وأشياعه بالصلاح والتقوى ! ! والله سبحانه يحب أن يكون عبده ملكا له لا يشركه أحد فى نيته ، وقوله ، وعمله ، واعتقاده ، فإذا كان قد أذن للعبد فى طاعة رسله ، فإنه لم يأذن له أن يتقى أحداً غيره سبحانه ، بل أوجب أن تكون تقوى الله وحده هى الباعث على الطاعة والغاية منها. والتقوى هى جعل النفس فى وقاية مما تخاف . وأشد ما تخافه النفس البصيرة غضب الله ، وسوء المصير يوم القيامة . والله وحده هو القادر على أن يقى عبده من كل ما يخاف ، فإن الغضب غضبه ، والرضى رضاه ، والملك كله ملكه جل شأنه ، ولئن كان بعض الملك فى الدنيا عارية لبعض خلقه فى الحياة ، فالملك كله للرحمن يوم القيامة (٢٥ : ٢٥ الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً) .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يخشى عبد الله إنسانا ، أو يرهب سلطاناً ، أو يتقى فى طاعته غير خالقه ومالكه ومولاه ؟ .

ولهذا وجه الله الأمر بتقواه إلى الإنسانية ممثلة فى إنسانها الأعظم محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : (٣٣ : ١ يأيها النبى اتق الله ، ولا تطع الكافرين والمنافقين) أمر لأول المتقين، وأفضلهم أن يتقى الله وحده . فما بالك بسواه ؟! . ولو أن التقوى كانت تجوز لأحد غير الله لجازت لرسوله ؛ إذ جعل طاعته طاعة لله جل شأنه ، ولكن الله تعالى يهديك إلى الحق إذ يقول : (٢٤ : ٥٢ ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه ، فأولئك هم الفائزون) يأذن الله فى طاعة رسوله ويوجبها . أما التقوى فيوجب أن تكون لله وحده . ويقول (٨ : ١ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله)

وهكذا فى كل آية قرآنية تذكر فيها الطاعة والتقوى تجد الأمر بتقوى الله وحده مع الأمر بطاعة الله ورسوله ، ولذا كان رسوله يأمر قومه بتقوى الله وحده وإن كانت طاعته واجبة عليهم بأمر الله مع طاعة الله . أمر بها نوح أول الرسل عليه السلام قومه (٢٦ : ١٠٨ فاتقوا الله وأطيعون) وأمر بها هود (٢٦ : ١٢٥ ، ١٢٦ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون) وصالح (٢٦ : ١٤٣ ، ١٤٤ إنى لكم رسول أمين ؛ فاتقوا الله ، وأطيعون) ولوط (٢٦ : ١٦٢ ، ١٦٣ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون) وشعيب (٢٦ : ١٧٨ ، ١٧٩ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون) .

واجب الآمر بالتقوى : يوجب الله سبحانه على من يأمر الناس بالتقوى أن يكون لله متقيا قبل من يدعوهم إلى تقوى الله ، وأن ينأى بدينه عمن لا يتقون ربهم ، فلا يشركهم فى مجلس طعام ، أو شراب ، أو سمر ، أو غير ذلك (٢ : ٤٣ أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب . أفلا تعقلون ؟) والبر فى العبادة تقوى الله وحده .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول له : يا هذا اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه

لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد ـ وهو على حاله ـ فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم لبعض ، ثم قال (٥ : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود ، وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصوا. وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ـ إلى قوله ـ فاسقون) ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، وَلَتَأْطِرُنَّه على الحق أطرا ـ أى تردونه إلى الحق ـ ، أو لتقصُرُنه على الحق قصرا » أبو داود والترمذى . وكما دخل النقص على بنى إسرائيل دخل علينا نحن المسلمين ، وما زال يدخل ولن يبرأ المسلمون من هذا النقص الذى أباحهم عبيدا لعدو الله إلا إذا أمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وأخذوا على يد الظالم بقوة وشدة .

جزاء التقوى : يقول سبحانه (٣ : ١٧٩ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) ترك الجزاء هنا مجملا موصوفا بالعظم ليثير فى النفس أشواق المتشوف إليه ، ولكن الله سبحانه فصل لنا ثواب التقوى بعد ذلك فى كثير من آيات كتابه المبين ، والمتأمل فيها يدرك أنه سبحانه جعل للتقوى ثوابا فى الدنيا وثوابا فى الآخرة ، وأن منه الحسى المادى تشهده الحواس وتنعم به ، والمعنوى الروحى تشهده الروح ، وتسعد به النفس ، ويغنم به الفكر .

فثواب التقوى فى الدنيا (٧ : ٩٦ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وثوابها فى الآخرة (٥ : ٥٦ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وهذا هو الثواب الحسى المادى ، أى المتقوم فى ذوات تدرك بإحدى الحواس ، أما الثواب المعنوى الروحى . فمالى إلا أن أذكرك بآياته ، فهو فوق كل بيان بشرى موهوب (٣ : ٧٦ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) فمن ثواب التقوى حب الله لعبده ، وما بعد

حب الله ثواب فى الدنيا والآخرة ، ولا أمل تتشوف إليه روح المؤمن الشهيد . وهو ليس بالحب الذى يولى الجميل والنعمة مرة ، أو مرات ثم يقطع جوده وفيضه بل هو حب يعد المتقين بأن الله دائما معهم (١٦ : ١٢٨ إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون) أما الثواب الذى تسعد به النفس (٧ : ٣٥ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون) اطمئنان رضيٌّ الآمال ، رفاف البشائر إلى المستقبل ، وذكريات تثير فى النفس الرضى عن الماضى والنفس — بين اطمئنانها ورضاها — صفاء مشرق ، وسعادة غامرة ، لايمسها خوف من الغد ، ولا حزن على أمس . فأية نفس تسمو إلى أفق هذه السعادة ؟ إنها نفس من يتقى الله . إن النفس الإنسانية فى الحياة يربطها الماضى بذكراه ، ويربطها المستقبل بالرجاء فيه أو الخوف منه ، وكمال السعادة النفسية أن يكون رباطها بماضيها الرضى عنه ، و بالمستقبل الرجاء المحقق ، وانتفاء الخوف من صروفه ، فهل توجد هذه السعادة النفسية الكاملة التى يكون المستحيل أحيانا تخيلها ؟ . وهل يوجد فى الحياة البشرية من ينعمون بهذه السعادة؟ إنها توجد فى التقوى ، والذين ينعمون بها هم المتقون ، أما ما يغنمه الفكر والعقل من التقوى ، أو ماتغنمه المعرفة الإنسانية ، وهى تجد فى البحث عن الحقيقة : (٨ : ٢٩ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وما يغنم الفكر البشرى فى الوجود شيئاً ، أجل من أن يكون له فرقان يفرق به بين الحق والباطل ، و بين الخير والشر ، و بين الهدى والضلال ، أى يفصل بالحق بين حقائق الأشياء ، ويقوِّم بالقسط والحكمة كل قِيَم الدين والمعرفة والأخلاق ، فلا تخدعه ظنون ، ولاتفتنه شبهات ، ولاتزيغه شكوك . هذا هو الثواب العام يكفله الله سبحانه لمن يتقيه ، ويفيضه نعما تشمل وجوديه المادى والروحى .

ثوابها المخصص ببعض الأحوال : للنفس الإنسانية فى دنياها آمال وأمنيات تسعى إليها وتكدح فى سبيلها ، وقد يعترض سبيلها الذى ارتضته مسلكا للرزق

عقبات تجعل الرحب الفسيح ضيقا حتى لتكاد تشعر النفس بانسداد الطريق عليها وقد تتوجه آمال النفس إلى أمر جليل تحسبه يسيرًا حتى إذا شارفت حماه استعصى عليها ، وألفته عسيرا لاتستطيع بلوغه إلا بعون كريم ، وقدرة أخرى فوق إمكانيات قدرتها . فهل يدعه الرحمن للضيق يستنفد قوته وصبره ، وللعسير يعذب شعوره وحسه وفكره ؟ كلا فالله أرحم بعبده من أمه وأبيه ؛ إذ جعل للتقوى ثواباً يرعى به عبده فى مثل هذه الأحوال الخاصة كما جعل لها ثوابها العام فى كل أحواله العامة ، لقد وعده الله أنه معه ، فإذا أحاط به الضيق ، أو أجهده العسر ، جعل له من الضيق مخرجا ، ومن العسر يسراً (٦٥ : ٢ ، ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً) فالمتقى الله لا يجد من الضيق مخرجا فحسب ، بل ينعم بالرزق من سبيلٍ كان لا يحتسب فيه رزقا ، لأنه على الله متوكل ، والمتوكل على الله يكفيه الله كل شئونه ، ويبلغ له كل أمر يريده (٦٥ : ٤ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً) لقد اتقى هذا العبد ربه ، فكان الله معه ، فكيف يستشعر بعد ذلك ضيقاً أو عسرا ؟ ! والمؤمن التقى يجاهد قوى الشر التى تحارب إيمانه وتقواه ، وهى شهوات نفسه ، وفتون دنياه ، ووسوسة الشيطان إنسانا كان أم جنا ، وقد يمس التقى طائفٌ من الشيطان ، فيلقى على بصره غشاوةً تختلط بها أمامه الأشياء وقيمُها ، فيقترف الذنب ، أو يكتسب السوء . ولكنه يلوذ بذكر الله ، فيبصر الحقيقة التى غشى بصره عنها الشيطان ، فيستغفر الله (٧ : ٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون) (٣ : ١٣٥ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب إلا الله . ولم يصروا على مافعلوا ، وهم يعلمون) ولقد وعد الله من يتقيه بمحبته — والحب الكريم فياض السماحة والرحمة والمغفرة — ومحبة الله لعبده فوق كل حب وأسمى وأعظم كرما ، وأبر جودا ، ولهذا

يثيب سبحانه عبده التقى ـ إذا أذنب ـ بثوابين، أحدهما : مَحْوٌ أو سلبي ، والثاني: إثبات،أو إيجابي : فالأول تكفير ذنبه ومغفرته ، والثاني إعظام أجره على حسناته حتى يوارى به كل ذنو به وسيئاته (٦٥ : ٥ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا) ذلك كله ثواب التقوى العام الشامل لكل حال ، وثوابها الخاص ببعض الأحوال .

تحقق وعد الله بالثواب على التقوى : ولما لثواب التقوى من عظمٍ وجلال وجمال ، فإن الله سبحانه يؤكد لعبده التقى أنه بالغ ـ ولا ريب ـ ثواب تقواه ؛ لكيلا يمس الشيطان بالشك يقين العبد فى صدق وَعْد الله ، أو يخيل إليه أن هذا الثواب العظيم تهاويلُ شاعريةٍ ، وتصاويرُ خيال ، كما يصنع الشيطان مع من لايثقون بوعد الله ، ولا يؤمنون بكلماته (٤٧ : ٣٦ و إن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم) فكيف يرتاب عبد تقى بعد ذلك فيما وعده الله به من الثواب على تقواه ؟ .

جلال فضل الله سبحانه : أنت تؤمن مع الحق أن تقوى الله سبحانه حق له على عباده واجب عليهم أداؤه. ولكن يأبى الله ـ بفضله ـ إلا أن يثيب عبده على حق أداه ، وواجب قام به ، فتأمل جود الله وكرمه ورحمته، وفضله، وبره ، واسأل من يتقون غير الله ويدعون غير الله ويتوسلون بالموتى ، سلهم جميعا : أعند آلهتهم بعض هذا الثواب الذى يعد به ، ويوليه الإله الحق، الله رب العالمين ؟ ! .

الوسيلة الثالثة : اتباع الكتاب والسنة

عبادة الله سبحانه قائمة على أصلين : أن يُعْبَدَ الله وحده ، وأن لا يُعْبَدَ إلا بما شرعه جل شأنه ، ولهذا فرض الله سبحانه على كل مسلم أن يتبع فى دينه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ففيهما مايحب الله أن يُعْبَدَ به ، ويرضاه ، ويثيب عليه . فإذا لم تكن طاعة المؤمن ، وتقواه لله عن بينة منهما ،

وعلى نور من هداهما ، كانت طاعته معصية شرك ، وتقواه رجس وثنية ، وكان ممن يجحدون بآيات الله ، ويكفرون به ، ويتهمون الكتاب والسنة بالنقص والقصور ، وأنهما لا يهديان النفس فى عبادة الله إلى سواء السبيل ، وأن مايشرعه الناس لعبادة الله أهدى مما يشرعان ، وأقوم سبيلا ، وأصدق قيلا . وهذا هو شأن المذهبيين اليوم . يضربون آيات الكتاب ، وأحاديث السنة بما سجلته لهم القرون الوسطى من ألغاز فقهية ، ورموز وحيل يصفونها بأنها شرعية ، ويتعصبون لما يتلون من كتبهم تعصباً أحمق الجهالة ، لا يرضى لآية قرآنية بينه ، ولا لحديث نبوى صادق أن يقف فى طريق حكم فقهى سجل فى هذه الكتب .

أليسوا بهذا يزعمون أنه لا يحسن أن يعبد الله بما شرع ، ولكن يحسن بما يفترى الخيال من أساطير الكهان والأحبار .

يقول العلى الكبير العليم سبحانه : (٤٥ : ١٨ ، ١٩ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين) (١٠ : ١٠٩ واتبع ما يوحى إليك ، واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) . هذا الرسول العظيم ، هذا العبد القانت الذى كان لا يقشعر إلا من خشية الله ، وإن رجفت الدنيا به ، أو زلزل بطش الطاغين بناء الحياة حوله ! ! هذا العبد الكريم الذى غفر له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر ، والرسول الذى شهد ملكوت السموات فى تجليه الأعظم يصلصل الوحى الأمين فى سمعه بقول الله : (واتبع ما يوحى إليك واصبر) ! !

وبهذا يتوجه الأمر والنهى إلى العالم كله ، إذ وُجِّه إلى أعظم عبد كريم طيب الوجود كُلِّه برسالته ، وأمر المؤمنون بالصلاة عليه . ولكن فى كتاب الله من الآيات ما يتوجه به ذلك الأمر والنهى إلى كل مسلم توجيهاً مباشراً ..

(٧ : ٣ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا

ما تذكرون) يجمع أسلوب هذه الآية المعجزة بين الإثبات والنفى ، أو بين الإيجاب والسلب ، أو بين التحلية والتخلية كما يعبرون . إنها تثبت وتوجب اتباعا ، وتنفى وتسلب آخر . وفيها تحلية النفس بنور الحق ، وصفاء الإيمان الموحد ، وتخليتها من ظلام الباطل ، ودنس الشرك . فما ينفع المريض غذاء ، إذا لم يشف من الداء بالدواء .

والاتباع الذى توجبه الآية هو اتباع ما أنزل إلى العبد من ربه ، فليس فيه مسَّة من غضاضة على كبرياء النفس الإنسانية ، ولا وخزة لكرامة البشرية التى تحمد الخير ، وتشكر النعمة ، ولا إذلالٌ بالباطل لحرية الفكر الذى يسمى الشيء باسمه الحق ، بل فيه ما يسمو بالنفس ، ويعلى من شأن الكرامة ، ويهدى الفكر إلى حمى الحقيقة العليا ؛ لأنه اتباع ما أنزله « الرب » الذى ربانا بالحق والرحمة ، وغمرتنا فيوض جوده ، وهو وحده العليم بما يقيمنا ، ويصلح لنا الدين والدنيا ، ويكفل لنا السعادة فى الحياة الأولى ، والحياة الآخرة ، فيستحق الله وحده بهذه الربوبية أن نعبده بما شرعه هو سبحانه ، إذ لا يشركه أحد فى تلك الربوبية . ويا ما أشد العجب من أولئك الذين يتعشقون ذل التبعية للعبيد ، ويستنكفون عن عزة التبعية لله رب السموات والأرض سبحانه ! !

النهى عن اتباع غير كتاب الله : للنفس البشرية عواطفها ومنازعها ، ولكل فرد بيئة يعيش فيها ، ولكل بيئة تاريخها وخصائصها واتجاهاتها فى الحياة ، وتجاوبها بالمشاعر والوجدانات مع الوجود ، ولها أفراد تصور لهم أوهام عشاقهم صور النساك والقديسين ، وتكسوهم الخيالات بِوَشْى الأساطير ، وتوشيهم العواطف بسحر الفتنة ، فإذاهم محاريب القلوب عند المحبين ، ومعابد الفكر عند المفتونين ، وإذاهم لتلك البيئة أرباب وآلهة . وينشأ الفرد فى بيئته ، ويصله بما فيها ، ومن عليها حاجة النفس والقلب والحياة ، فتفرض عليه البيئة سلطانها الجبار ، فيسلك ماتسلك هى من سبيل ، ويتخلق ويتدين بأخلاقها ودينها ، ويقيس الأمور ،

وينظر إلى الأشياء بمقاييسها ونظراتها ، فلايصنع هذا الفرد فى تاريخ تلك البيئة إلا قصة هى فى بدئها ونهايتها ككل ماطوى التاريخ من قصص أشياع بيئته الذاهبين . ولكن الإنسان الحر الذى يأبى أن تستعبده الأوهام ، والشاعر بوجوده ، وقيم ذاته ، والذى يأبى أن يفنى وجوده ، ويمحو ذاته فى وجود الآخرين وذواتهم . هذا الإنسان يأبى أن يطفىء بيده ما أودع الله فطرته من نور يميز به بين الخبيث والطيب ، وبين الشر والخير ، ويأبى أن يعطل ما منحه الله من عقل ، يفصل به بين الحق والباطل ، فيستعلى بهذا على العبودية للعبيد ، ويسمو بكرامته أن تنحط بها التبعية لبشرى مثله لا يميزه إلا شهوات تصرف دنياه ، وأوهام تسيطر على فكره ، ويزعم لها أنها إلهام من نور الحقيقة وكذلك يأبى الحر الشاعر بإنسانيته ، وكيانه الذاتى أن يكون إمَّعَة ساقط الهمة يقود خطامه الظن الذى جسده له الشيطان فى هيكل ولى ، وبهذا يتعالى بالصدق عن بيئته ، ويوجه الفكر إلى الحق ، والنفس إلى الهدى ، والأخلاق إلى الخير والحياة إلى الجهاد فى سبيل ذلك كله ، فيسجل فى تاريخ بيئته سيرة البطولة ، وقصة العبقرية ، والحرية الفكرية الملهمة من اليقين ، والاستشهاد النبيل الكريم فى سبيل المثل العليا . فى سبيل الإيمان الذى حماه من الطاغوت ، ثم حلق به فوق ما تستشرف النفس المؤمنة من آفاق السمو والجمال . ولا يكفيه أنه حطم القيد عن نفسه ، ودمر الأغلال التى كانت تمسك به عبدا ذلولا للعبيد ، بل إنه يمضى جبار القوة رحيمها يحطم القيود الظالمة ، والأغلال الطاغية عن الأسارى الآخرين سجناء الأوهام .

ذلك ماتهدى إليه الآية الكريمة فى تحذيرها ونهيها عن « اتباع الأولياء من دون الله » تريد من كل فرد أن يكون بنفسه لله ولياً ، وأن يسمو بذاته عن ذل التبعية لبشرى مثله ، وأن يكون هو بقوله وعمله واعتقاده البطل الذى يقود إلى الحق ، لا الإمعة التى تقاد إلى الباطل ، وأن يمحو عن فكره غشاوة التقليد ،

ونزعات التأليه للبشر ، و بهذا تقوِّم الشريعة الإسلامية ذات الفرد تقويماً كريماً ساميا يربيها على الرعاية لكرامتها ، والعمل لما فيه عزتها ، ويثبت فى قرار يقينها الإيمان بالمساواة المطلقة بين الناس جميعاً .

قليلا من التذكر : تنهى الآية عن اتباع الأولياء من دون الله ، وتحذرنا من فتنة العاطفة التى تسخرنا لبعض عبيد الله عبيدا أذلة ، ثم تختم بالملامة « قليلا ما تذكرون » ! حقا قلما نتذكر أن الإنسان ليس له فى وجوديه وحياتيه من ولى سوى الله . وهذه حقيقة يؤمن بها الفكر البصير ، والنفس التى لمست خبرتها سرائر الحياة ، بل قليلا من التذكر يمكن للإيمان بهذه الحقيقة من يقين النفس ، و إيمان القلب . قليلا من تذكر النشأة الأولى ، حيث كانت الإنسانية قدراً من الله فى التراب ، أو فى الطين، ثم خلقا سوياً بيدى الله ؟ تلك هى انتفاضة البشرية الأولى من العدم إلى الوجود ، فمن رب القدر حيث كانت الإنسانية عدماً ، ومن رب الخلق إذ استوت ذاتاً يقوم بها الوجود ؟ قليلا من تذكر الحياة الإنسانية الأولى وهى تكافح على الأرض . فمن ألهمها الكفاح ، وعلمها سبيله ، وحقق لها الغاية منه ؟ لمن تلك الربوبية الرحيمة التى كانت تمدها بالعون و بالقوة ، وهى تجالد الزلازل ، والأعاصير ، بين هزيم الرعود ، ودمدمة البراكين ، وزئير الوحوش يتلمَّظ على أضراسها الموت ؟ ! قليلا من تذكر النطفة والعلقة والمضغة ، والحياة تسرى فى العظم واللحم من الجنين !! قليلا من تذكر الجنين غيباً مجهولا !! تُرى من كان يمده بالرى والغذاء ، ويحميه من ظلمة الليل ، وضوء النهار ، ووهج الحر ، وزمهرير البرد وصَخَب الحياة حول أمه؟ من كان يربيه وهو بين فرث ودم وماء؟ ويحفظ عليه سمعه و بصره ، ويجعل له من مكانه الضيق رحاباً أوسع من رحاب الوجود ؟ قليلا من تذكر ذلك الجنين وهو فى اللحظة الفاصلة ، إذ أذن الله له بالخروج . من الذى ألهمه أن يهبط إلى حيث ينفتح له باب الحياة ، وأن يناضل برأسه الصغير لينفذ من بابها الضيق ؟ومن الذى ألهمه حينئذ أن يبحث عن غذائه

فى ثدى أمه ؟ ومن الذى أودعه له نقياً خالصاً سائغاً فى ثدى أمه الرءوم العطوف الحنون ؟ ! يا للجنين الوليد يُجرِّع أمه العذاب ، فتسيغه برحمة الله شهداً صافى الرحيق وتستشعره أنساما من رحمات الخلود !!

قليلا من تذكر الإنسان نفسه، وهو فى مدارج الحياة طفلا وصبياً وشاباً وكهلا وشيخاً !! قليلا من تذكره النظرة الأولى يستقبل بها الحياة ، والنظرة الأخيرة يودع بها الحياة والأحياء ، وإغماضة العين على الحق الذى سطع عليه روعته وجلاله ، وهو فى البرزخ الدقيق الفاصل بين الموت والحياة (٥٠ : ١٩ ، ٢٢ وجاءت سكرة الموت بالحق . ذلك ما كنت منه تحيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد) .

قليلا من تذكرك هذا ، أو بعضه يدفعك إلى الإذعان المؤمن بقول ربك : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون)

نص الكتاب على وجوب اتباع السنة : كل آية تنص على وجوب اتباع الكتاب، تتضمن الدلالة على وجوب اتباع السنة ، فما لم نتبع السنة، فقد تركنا من القرآن بيانه . وفوق هذا نصت آيات كثيرة على وجوب اتباع السنة (٤٣ : ٦١ و إنه لعلم للساعة فلا تمترن بها ، واتبعون هذا صراط مستقيم) (٧ : ١٥٨ فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون) (٥٩ : ٧ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) (١٠ : ٣٥ أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أَمَّنْ لا يَهِدِّى إلا أن يُهْدَى . فما لكم كيف تحكمون ؟) وغير ذلك كثير فى القرآن ، وفى هذه الآية الأخيرة قضية جلية الطرفين تعرض على العقل الإنسانى ، وهذه القضية هى : هادٍ يؤمن العقل ، و يقر له بأنه يهدى بذاته ، وعامه إلى الحق . وآخر يوقن العقل بأنه لا يملك أن يهدى نفسه ، و إذا هُدِى فإنما بهداية الأول ، فهو بالأَوْلى لا يملك أن يهدى غيره ، فأى الطرفين

يحكم العقل بوجوب اتباعه ؟ لن يتردد العقل لحظة فى الحكم ، ولن يرتاب فى وضوحه وجلائه ؛ فالحكم بيِّن يدركه حتى الأمي الجهول ، ويحكم به حتى الجحود إذا خلا إلى نفسه . فى الآية هزة جبارة القوة توقظ الفكر البشرى من سباته العميق ، ليفزع إلى اليقظة البصيرة ، حتى يدرك أنه فى غفلته سمى النور ظلاما ، وسمي الظلمة نوراً ، فى الآية قضية الدين والوحى في سمو جلال نسبتهما إلى الله ، وقضية الخرافة والأسطورة ينسج عنا كبهما الأحبار ، وينازعان بهما كتاب الله . فأما وحى الله الهادى بذاته ، فيدعو إلى الإذعان المطلق لما يشرع ، والاستسلام التام إليه بالفكر والقلب والشعور ، والنية الصادقة ، والعزم المصمِّم يتجلى عملاً إيجابيا ، لا يبغى غير وجه الله ذى الجلال ، وأما أولئك الكهان والأحبار ، فيدعون إلى أخذ الدين من كتبٍ ما فيها من الحق سوى أنها ورق سودته المطبعة بباطل وضلال ، أو أمشاج من باطل وحق ، فأى الفريقين خير مقاما . وأيهما أولى بالطاعة والاتباع ؟ ألا إن وَضَح الحق أجلى من وضح الشمس فى الضحوة الصافية . ولكن شهوات السوء ، وفتون الجاه تأبى إلا أن تجعل الواضح غموضا مستغرقا فى الإبهام ، وأن تطمس الحقائق البينة ، فتفسد على الناس الفِطَر والعقول .

مناقشة مع المذهبيين : مما ذكرتك به من آيات الله يتجلى لك أن اتباع الكتاب والسنة واجب على كل مسلم وجوب اعتقاد أن الله واحد أحد لاشريك له ؛ لأنه وسيلة التوحيد ، والهادى الروح إلى محبة الله ورسوله . ولست أدرى بعد هذا كيف يرتاب إنسان به مسكة من عقل ، أو له أثارة من علم فى هذا ، وكيف يتوانى عن العمل بما يوجبه ، غير أن المذهبيين والطريقيين يفترون لك ظنا يحسبونه حجة تدحض الحق ؛ إذ يزعمون لك أن ما يقتدون به من مذاهب ، وما يعبدونه من كتب إنما هو مستمد من الكتاب والسنة ، فهم متبعون لهما باتباعهم لهذه الكتب ! وزاعم هذا إما جهول ورث تراثا وثنيا يحسبه علما لدنيا ، وإما مُمْتَرٍ

لا يقلع عن امترائه ، ومُفترٍ لا يدين إلا بما يفتريه ؛ فإن دعوى استمداد كتبهم من كتاب الله وسنة رسوله توجب كون هؤلاء المدعين لذلك عليمين بالكتاب والسنة ، حتى يمكن أن تستقيم لهم الدعوى ، ويكون حكمهم بذلك عن بينة ، فالحكم على شيء أنه من جنس هذا الشيء ، أو نوعه يقتضى المعرفة بالمحكوم به والمحكوم عليه عند الحاكم ـ والحكم على الشيء فرع عن تصوره كما حفظنا منهم ـ فهل من يحكمون باستمداد كتب مذاهبهم من الكتاب والسنة قرأوا القرآن، وتدبروا معانيه،وكتب السنة، واستوعبوا مافيها ، ثم قارنوا بين كتبهم ، و بين الكتاب والسنة فحكموا بأن ما فيها هو ما فى هذين ، أو أن أحكامها تستمد الهدى منهما ؟ يقينى أنهم لا يزعمون ذلك . ولكن لنفترض وجود المستحيل ، فنصدق أنهم فعلوا ذلك ، وعلى بينة صادقة من الكتاب والسنة و بمقتضى هذه البينة والمقارنة ادعوا أن كتبهم أنوار من القرآن ، ومن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، لنفترض هذا .. ولكن !! أليس الأجدر والأولى إذن ترك هذه الكتب الوضعية ، واستمداد أحكام الشريعة مباشرة من الكتاب والسنة ما داموا على علم بهما ؟ فما ينبغى أن تطفىء بيدك السراج الوهاج المتلألىء النور ؛ لتستضىء بوَصْوَصَة اللمحات الخابية من عود الثقاب ! ! وما ينبغى أن يكون النهر الصفى ببابك ؛ ثم تجهد نفسك فى السير ؛ لامتياح البئر العميق !! وأليس الأجدر كذلك — ماداموا عليمين بالكتاب والسنة — أن يقولوا إنهم أتباعهما لا أتباع حجة الدهر ، وعلامة العصر ؟ ذلك كله على فرض أنهم قارنوا بين شريعة الله التى بينها كتابه ، وفصلت أحكامها سنة رسوله ، و بين ما شرع لهم شيوخهم فى كتبهم ، فوجدوا شرعهم يقاسم شرع الله الحق والهدى ، أو يستمدها منه . أمّا وهم على غير ذلك — بإقرارهم ، وبما نشهده من تخبط وتناقض واختلاف ذريع بينهم — فلا تسلم لهم دعوى ، ولا يصح لهم الحكم باستمداد كتبهم من الكتاب والسنة ، إذ لم يدرسوا — باعترافهم — أحكامهما ، فلم

يقارنوا تبعا لهذا بين الطرفين . فكيف — إذن — يزعمون أنهم باتباع كتبهم متبعون للكتاب والسنة ؟ ألا إنهم ليقتدون بشيوخهم عن جهل وعمى ، يحرمون ما حرموا ، ويحلون ما أحلوا ، دون معرفة بأدلة التحريم والتحليل من الكتاب والسنة ، ولهذا ترى المذهبي إذا طالبته بدليل على فتواه — يربَدُّ وجهه ، لأنك لم تثق بعلمه ، ويزم شفتيه ، ويخرج لك من جعبته ورقه الأصفر المهلهل ، ويضع على عينيه منظاره المذعور ، ويشير لك بخمسة الأصابع ، أو عشرتها على الدليل من كتابه الذى ألف فى القرون الوسطى حيث الألغاز والطِّلَّسْمات أجلى أنواع البيان . هذا إذا لم يجد فى الكتاب الذى صنعته وزارة الأوقاف !!

ثم إن الحق واحد لا يتعدد ، لأنه من الله الواحد الحق ، ولأنه نزل به جبريل على رسول واحد حق ، هو محمد عليه الصلاة والسلام . ولكن ما بالنا نرى شيعا متعددة ، وطرائق قدداً متخاصمة ، ومذاهب متباينة ، كلما قام تابع راح يقسم بكل محرجة من الأيمان أن الحق فى مذهبه وحده ؟ وما بال كيفية الصلاة فى مذهب غيرها فى مذهب آخر ، ولا تجوز فيه ؟ وما لشروط النكاح فى مذهب هذا تخالف شروطه فى مذهب ذاك ؟ فى حين يرى كل منهما أن الحق معه وحده ؟ ما بالنا نرى قضاة مصر حنفية ولا يمكن أن يكونوا — مثلاً — حنابلة ؟! فأى مذهب يا ترى فيه الحق وحده ؟ لا يجوز القول بأنه فى الجميع ، وإلا جاز القول بتعدد الحق ، وتباين مفاهيمه ، وتناقض ما يصدق عليه مما يدخل تحت هذه المفاهيم . فلم يبق إلا القول بأنه فى واحد منها على التعميم لا على التخصيص فهل يجوز اتباع كتب لا ندرى أيها الذى يحتوى على الحق ؟ أو القول بأن الحق وغيره قسمة بين الجميع أى فى كل واحد منها جزء من الحق ، وجزء من غيره ؟ هل تجوز عبادة الله بما هو قسمة بين الحق ، وغير الحق ؟ ألا إن الله يقول سبحانه : (١٠ : ٣٣ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ،

فأنى تصرفون) وقد تجد حلالا فى مذهب ، حراما فى مذهب آخر ، بل قد تختلف كتب المذهب الواحد فى هذا الشأن ، والشىء الواحد لا يمكن أن يكون حلالا وحراما فى وقت واحد ، و بشروط واحدة! وقد يكون الفرض الواجب أداؤه فى مذهب سنة فى مذهب آخر يجوز أداؤها وعدمه ، وقد يكون ما يفسد الصوم، أو ينقض الوضوء، أو يوجب الغسل ، أو تصح به الصلاة عند جماعة ليس كذلك عند غيرهم !! أليست النتيجة المحتومة لهذا هى الريبة والشك عند من ندعوهم إلى جعل الشريعة الإسلامية هى المصدر الوحيد الذى يستمدون منه أحكام الدين ونظم الحياة ؟ ثم ما بال « مأذونى » الحكومة يزوجون ، و يطلقون على مذهب معين ، لاتجوز مخالفته أو الإفتاء بغيره ؟ ثم ما بال كتب الدين فى المدارس تؤلف على مذهب خاص ، ولا يسمح للتلاميذ عند الامتحان أن يجيبوا عن الأسئلة بغير ماحفظوه من هذه الكتب ؟ ولو جرؤ واحد منهم، واستدل بحديث لكان نصيبه الرسوب !! ثم ما بال ذلك الشيخ الكبير صاحب العزة تسأله الإذاعة عن حكم الأضاحى ، فيجيب بأجوبة متناقضة ، مقدما لكل جواب بقوله : « والله ياأستاذ هذه المسألة فيها خلاف بين الأئمة ، ففلان قال كذا ، وفلان قال كذا » حتى لقد خزيت والله نفسى حينذلك من أن يسمع المتربصون الشر بالإسلام هذا الشيخ الكبير ، فيعتدُّون بقوله فى وصم الإسلام ظلما بأنه دين خلاف ، ويحرض على الخلاف !! فى حين يقول الله الحكيم الخبير (٤:٨٢ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فهو يجعل البرهان والحجة على أن القرآن من عنده سبحانه أنه ليس فيه اختلاف ، فكيف نقول عن كل حكم شرعى فيه خلاف؟! فيه خلاف بين الأئمة !! ألا ترى القائل بهذا يؤيد بهتان من يقول إن القرآن ليس من عند الله ، وأنه تطور فى المدينة فأصبح على غير ما كان فى مكة ، وأن محمدا ـ ومعاذ الله ـ وضعه حسب ظروفه وأحواله ؟ ! ثم إن الآية تتضمن الدلالة على أن كل كتاب غير كتاب الله لا بد وأن يوجد فيه اختلاف ، وهذا يصدق

على كتب القوم ! أما القرآن فاسمعوا للرسول صلى الله عليه وسلم يصفه لكم : عن علي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها ستكون فتن . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء » وفى رواية « ولا تختلف به الآراء . هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : (٤٦ : ٣٠ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد) من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل : ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » « الترمذى » .

دعوة الأئمة إلى اتباع الكتاب والسنة : سيفترى علينا الخراصون أننا بهذا نحارب الأئمة رضوان الله عليهم ، ونحقر شأنهم ، ومعاذ الله أن نكون من أدعياء هذا البهتان ، فما بنا إلا توقير للأئمة ، وتقدير بالغ الإجلال لما بذلوا من جهد ولما خلفوا من تراث يشهد لهم بالحذق والبراعة والعبقرية ، وإنما نحارب العصبية الجاهلية لهؤلاء الأئمة ، تلك العصبية التى تنزع إلى جعلهم أربابا ، واتخاذهم آلهة نحارب ما ألف أتباعهم من كتب لا صلة لها بالكتاب والسنة ، ولا بآراء أئمتهم الأولين ، ونحن لا ننسى — وقد ينسى المتعصبون — أن الأئمة بشر ، وما زعم واحد منهم لنفسه العصمة ولا سن اتباعه ، والرسول يقول : « كل ابن آدم خطاء » فنأخذ منهم ما وافق الكتاب والسنة ، ونترك ماعدا ذلك مما نعتقد أن الأئمة رضوان الله عليهم لم يتعمدوا الخطأ فيه ، فهل يلام من يفعل ذلك ؟ وهل من يحارب الحمية الجاهلية للأئمة يوصم بأنه يمقت الأئمة ويحاربهم ، إن الله سبحانه لعن من اتخذ عيسى وأمه إلهين من دون الله ، وأوقن أن من يفترون علينا مقت

الأئمة لا يزعمون أن لعن الله لهؤلاء لَعْنٌ لعيسى عليه السلام ، أو تنقيص من مقامه فى الرسالة ؟ ! وقد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، فهل يستطيع المفترون الزعم بأن هذا الغضب ينصب على الأنبياء ؟ معاذ الله سبحانه فما لعن أولئك ، ولا غضب على هؤلاء إلا لأنهم فعلوا ما يكرهه و يسخطه جل شأنه ، وهو أنهم أشركوا به بشراً وصخرا ! ! .

وقد استفاض عن الأئمة رضوان الله عليهم الدعوة الملحة إلى اتباع الكتاب والسنة ، والتحذير من تقليدهم . حتى الإمام أبى حنيفة الذى كان يجل الرأى ، و يحله المكانة التى غلا فيها أصحابه غلوا ضربوا به السنة .

قال الإمام أحمد : « من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال » وقال أبو داود : قلت لأحمد : « الأوزاعى أتبع أم مالك ؟ قال : لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء ، ماجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخذ به ، ثم التابعين بعدُ الرجلُ فيهم مُخَيَّر » وقال : « لا تقلدنى ، ولا تقلد مالكا ، ولا الشافعى ولا الأوزاعى ، ولا الثورى ، وخذ من حيث أخذوا » .

وقال إمام دار الهجرة مالك : « إنما أنا بشر أخطىء وأصيب ، فانظروا فى رأيى ، فكل ماوافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل مالم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه » وقال : « من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعى فإنه يستتاب »

وقال الإمام الشافعى : « إذا قلنا قولا ، وكان عن النبى صلى الله عليه وسلم خلاف قولى ، فما يصح من حديث النبى صلى الله عليه وسلم أولى ، فلا تقلدونى »

وقال الإمام أبو حنيفة « ماجاء عن رسول الله فعلى العين والرأس ، وما جاء عن أصحابه اخترنا ، وما كان من غير ذلك فنحن رجال وهم رجال » وقال تلميذه الأكبر أبو يوسف : « لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا » .

وتلك كلمة حق وحكمة ، فهل يصدق المذهبيون فى هذا أئمتهم ؟ !

حث الرسول على اتباع الكتاب والسنة : قال صلى الله عليه وسلم : « إن مثلى ومثل مابعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه ، فقال : إنى رأيت الجيش بعينى ، وأنا النذيرُ العُرْيان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأَدْلَجوا ، «ساروا الليل كله» فانطلقوا على مهلهم ، فنجوا ، وكذبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش ، فأهلكهم ، واجتاحهم « أهلكهم » فذلك مثل من أطاعنى ، واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى ، وكذب ماجئت به من الحق » « الصحيحان » . وقال : « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس فيه فهو رد » « الصحيحان وأبو داود وابن ماجة » وفى رواية « من صنع أمراً على غير أمرنا فهو رد » وقال يهدى أمته سواء السبيل : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله » « الموطأ » وقال : « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » « أبو داود والترمذى » ولكن كبار الشيوخ يقولون لك : البدعة قسمان : حسنة وسيئة ! ! فى حين يقول الرسول « كل بدعة ضلالة » فأيهما نصدق ؟ .

جزاء اتباع الكتاب والسنة : أوجب الله سبحانه على كل مسلم اتباع الكتاب والسنة، وهذا الواجب المفروض حق لله سبحانه على عباده، ولكن فضل الله الأسمى يجعل للعبد الذى أدى حق الله عليه ثوابا بالغ الجلال والجمال والعظم وإليك من آى القرآن مايدفعك تدبرها إلى تطييب لياليك بالتهجد له سبحانه ، وتقويم حياتك بالجهاد فى سبيله و إخلاص عبادتك له باتباع كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (٢ : ٣٨ فمن اتبع هداى ، فلاخوف عليهم ، ولاهم يحزنون) (٢٠ : ٤٧ والسلام على من اتبع الهدى) (٢٠ : ١٢٣ فمن اتبع هداى ، فلا يضل ولا يشقى) (٧ : ١٥٧ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه . أولئك هم المفلحون) حياة رضية يفيض عليها الأمن والسلام ، ونفس صافية

البشائر ، طيبة الآمال لا يمسها حزن على ماض خلا ، ولا يقلقها الفكر الخائف من غد مغيب ، بل يلتقى ماضيها وحاضرها ومستقبلها على الرضى والبشر والسعادة وفكر رشيد بصير لا تشتبه عليه قيم الأشياء ، ولا يلتوى عليه الحق منها . هذا بعض مايجزى به الله من اتبع رضوانه ، واقتدى برسوله ، وهذا الجزاء ليس فى الآخرة فحسب ، بل فى الدنيا كذلك . فالمتبع للكتاب والسنة قد أصبح الفلاح من صفاته المقومة لوجوده فى الحياة الأولى والآخرة .

حب الله وسبيله : وأسمى من ذلك الجزاء وأجل محبة الله سبحانه لمن يتبعون هداه، والنور الذى أنزل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (٣ : ٣١ قل إن كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم) .

يتسامى الحب جلالا وصدقا وكمالا بفعل ما يرضى المحبوب ، وتجنب ما يسخطه والتزام هذا حتى فى النظرة العابرة، والهمسة الخافته،واللمسة الذاهلة . الحب شعور وعمل ، وأجل أنواع الحب مالمتلأ به القلب ، واستكانت رضية لسلطانه النفس، ووجّه القول منك والعمل إلى ما يرضى الحبيب ، ويُشهِده على صدق الحب منك وصفائه ، وإلى الإصغاء ـ يسكن به وجودك كله ـ إلى ما يريده ، ويأمر به ؛ لتعمل ما يحقق إرادته فيك ، ويمضى أمره لك . وليس ثم من يحب لذاته ، ومن كل وجه إلا الله سبحانه وتعالى ، يُحَب مبتليا بالسراء ويحب مبتليا بالضراء يحب معطيا ، ويحب مانعا ، يحب باسطا ، ويحب قابضا ، فهو الله الرحمن الرحيم الحكيم الخبير رب السموات والأرض ، ندين له بالحمد على المكروه ، كما ندين له بالحمد على المحمود ، والمؤمن الحق من يحب الله فى ذل الفقر ، كما يحبه فى عز الغنى ، يحبه ولياليه بشائر آمال ، كما يحبه ولياليه مآسٍ حزينة ، فالكل من سنن الله الكونية ، وأصدق الأدلة على حب الله ، الصبر على ابتلائه سبحانه بالنعمة وابتلائه بغيرها ، فالله يقول : (٤ : ١٩ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه

خيرا كثيرا) إذلا يعلم حقائق الأشياء على ما هى عليه فى علم الله إلا خالقها العليم الخبير ، أما شكره على النعمة ، وشكاة أقداره فى غيرها ، فكفر وجحود بالرب الرحيم (٨٩ : ١٥ ، ١٦ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ، فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقة ، فيقول : ربى أهانن) جعل الله الحالين ابتلاء للانسان فشكر فى النعمة ، وكفر فى غيرها ، فكان شكره كفرا ، ومن صور المستحيل أحيانا أن يجمع الحب الصدوق بين السيد وعبده فى الدنيا وحسب العبد سعادة ـ تغمر وجوده كله ـ بَسْمة يُرَنِّحها زهو الخيلاء على فم سيده . أو كلمة حلوة يتفلها طرف لسانه ، أو لمسة حانية من كف سيده المترفة النعيم ، و إذا تناهت محبة السيد لعبده ناداه باسمه ، فيحسب المسكين أن سيده يقول له : يا سيدى ! ! صور فى ذهنك ـ بالخيال ذى الشاعرية المجنَّحة بالتهاويل ـ ملكا يقول لعبده من فوق عرش ملكه : عبدى إنى أحبك !! ألا يشعر ذلك العبد حينئذ ـ من نشوة السعادة ـ أن الوجود كله بعض ملكه ؟ وقد يكون فى الملك هذا من هنات البشرية ما فيه ، ومن بغى الجور ما يرجف منه الجماد ، فما بالك ـ ولله المثل الأعلى ـ بالله يجزيك عن صدق اتباعك للكتاب والسنة ـ بحب إلهى كريم ، وشتان ما حب العبد لله ، وحب الله لعبده . ذاك حب العبيد ، وهذا حب مالك العبيد وخالقهم .

وليس هذا فحسب ، بل ثم فضل يسابق فضلا ، فاسمع للرسول صلى الله عليه وسلم يبشرك : « إذا أحب الله العبد نادى : يا جبريل إنى أحب فلاناً ، فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء ، إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » « متفق عليه » تتبع الكتاب والسنة ، فيصدق منك الحب لله ، فيحبك الله ، ويأمر جبريل أن يحبك ، وأن ينادى فى السماء أن الله يحبك ، فيحبك أهل السماء ، ويضع لك الله فى الأرض القبول فى قلوب الناس . فهل فى قدرة البيان البشرى — يكاد يعجز البلاغة —

أن يصف هذا الثواب ؟ ! أو يبين عن لمحة من نور حب الله ، إذ ينادى « إنى أحب فلاناً فأحبوه » ؟ لو أنا فرضنا وجود المستحيل ، وزعمنا حباً يجمع بين ملك وعبده . فلن يبلغ تصور المستحيل حداً نتصور فيه أن الملك يشيع فى مكان ذكر حبه لعبده ، ولكن الله يحب عبده ، ويذكر لملائكته أنه يحبه ، ويأمرهم أن يحبوه معه ! ! ترى أعند من يتبعهم الناس من دون الله حتى حلم من هذا الثواب ؟ أيمكن أن تسمع ممن تدين بكتابه النداء لك من قبره : إنى أحبك ؟ ! ! أيمكن أن تتنزل وزارة الأوقاف التى تتعبد بكتابها ، فتقول لك : ياهذا إنى أحبك ؟! ياللتهكم المرير يقترفه الشيطان من نفوس عَبَدِه وأحلاسه !! .

حب غفور : ومن شيمة الحب تناهى فى السمو والصدق عدمُ الذنب فيه أو قلته ، ولكن الله سبحانه القوى يرعى ضعفك البشرى الذى يلمسك بالذهول لحظات عن حبك لربك ، ويدفعك — بفتنة الشيطان لك — إلى اقتراف الذنب . يرعى الله القوى ضعفك هذا ، فيعدك — حين يصدق حبك بصدق اتباعك — بغفران ذنبك ، إذ يقول فى الآية : (٣ : ٣١ إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم) فليس ثواب اتباع الكتاب والسنة حب الله وملائكته لك فحسب ، بل حب الله ومغفرته. ولذا تختم الآية بالاسمين الجليلين اللذين يفيضان على قلب المؤمن المذنب طمأنينة الرجاء ، وأنوار الأمل فى مغفرة الله ورحمته (والله غفور رحيم) . فلا تعجب من الحب الإلهى الغفور ، لأنه حب ربك المنان بالمغفرة ، الجواد بالرحمة سبحانه . وجلال الحق لولا حاجة من يحبك فى الدنيا إليك ، وافتقار روحه إلى أنس هواك وعذاب نفسه من هجرك ما غفر لك ذنبا ، ولا صفح عن إساءة ولكن الله غنى عن العالمين جميعا . فسبحانك اللهم كتبت على نفسك الرحمة !!

الوسيلة الرابعة : الاحتكام إلي الكتاب والسنة

ربنا الله ـ جل شأنه ـ واحد يحب أن يكون الناس أمة واحدة ، تدين بالعبودية الخالصة لرب واحد ، هو الله رب العالمين ، ولهذه المحبة الإلهية نزل الله سبحانه للإنسانية جمعاء كتاباً واحداً عربياً مبيناً فصل لهم فيه كل شيء يقيم الدين على الحق واليقين ، ويقوِّم الحياة بالخير والسلام والمحبة ، ويجمع على توحيد الله العقائد ، وعلى حبه القلوب ، وينزل على حكم الله الفصل كل حاكم فى الدنيا ومحكوم. ولكن فى الجِبِلَّة الإنسانية هوى المغالبة ، والنزوع إلى المخالفة ، وللفكر الإنسانى متاهات يهيم بها ، فتشتبه عليه حقائق الأشياء وقِيَمها ، وللعواطف البشريه أهواء تستزلها عن الخير العام ، وللنفس نزوات تثير فيها الأثرة الباغية فتسعى إلى جعل الكل للبعض ، وفى الدنيا فتون يُرَقِّصها الشيطان للناسك فى صومعته ؛ ليضله عن ذكر الله . أفيترك الإله الواحد الرحيم عباده يبدد جماعتهم الخلاف ، وتفصم عرى وحدتهم المنازعة ؟ كلا . فإنه الله الرحمن الحكيم . ولذا يبين لهم ما به يرأبون الصدع ، ويلمون الشعث ، ويجمعون الشتات ، إذا ما لوى الخلاف عن الحق والحب أعنَّة القلوب والعقول ، ذلك هو الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فلم يتركهم لسبحات الخيال ، ولا لتهاويل الشاعرية ولا لأساطير الفكر وخرافاته ، ولا للطواغيت والأصنام البشرية يحكمون فيهم بالهوى والفتنة والشهوة ، وفى إيجاب الله سبحانه ذلك تسام بالكرامة الإنسانية وإعلاء من شأنها ، إذ يوقفها بين يديه يحكم فيها برحمته التى سبقت غضبه ، وبعدله الإلهى الأسمى ، لا بين يدى فرد منها يوجِّه حكمه الهوى ، وتفتن عدله الشهوة ، وتسكته عن قول الحق عاطفة . فى إيجاب الله ذلك حجة من الله على خلقه وبرهان ، على أن فى الكتاب والسنة حكم كل شيء يختلف فيه عباده من شئون الدين والحياة ، وإلا ما أمرهم بالاحتكام إليهما ، وإليك من آى القرآن

ما يوجب ذلك ، ويهديك إلى الإيمان بوجوبه (٤ : ٥٩ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء[1] ، فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا) فليس الاحتكام إلى الكتاب والسنة واجباً حين يختلف المسلم مع أخيه المسلم فحسب ، بل واجباً كذلك حين تهم همسات الخلاف بإيقاع الفتنة بين المسلمين و بين أولى الأمر منهم ، وهكذا تدك الشريعة الإسلامية هيا كل الظلم والطغيان والاستبداد ، وتعلى من شأن الحرية والعدالة والكرامة ، والمساواة إلى أفق علوى لا يحلم بالوصول إليه قانون بشرى . إذ جعلت للمحكوم هذا الحق ، وعلى الحاكم هذا الواجب .

ومعنى الرد إلى الله فى الآية ، هو الاحتكام إلى كتابه ، ومعنى الرد إلى الرسول الاحتكام إليه فى حياته ، و إلى سنته صلى الله عليه وسلم بعد مماته ، وقد جعل الله سبحانه هذا من أصول الإيمان وموجباته ، فإذا ماانتفى الرد إلى الله ورسوله انتفى الإيمان بالله واليوم الآخر . (٤٢ : ١٠ وما اختلفتم فيه من شىء ، فحكمه إلى الله ، ذلكم الله ربى عليه توكلت و إليه أنيب) وردت كلمة « شىء » هنا موردها فى الآية السابقة ، وهذا يمكن للإيمان واليقين من القلوب بوجوب الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فى قضايا الدين ، و قضايا الحياة ، و يقرر أنه ما من شىء يختلف فيه المسلمون إلا وفى الكتاب والسنة بيان حكمه ، والفصل فيه .

---

(١) والمتأمل فى كلمة « شىء » يجدها نكرة فى سياق الشرط فتعم كل مايتنازع فيه المسلمون صغيراً كان أو كبيراً ، دقيقاً أو جليلا ، من شئون الدين أو من شئون الحياة . إذ وردت كلمة « شىء » موردها هذا ، ومطلقة غير مقيدة بقيد يخصصها بشئون الدين فقط . فهل يفهم عبيد المرأة ، وعبيد الطواغيت إعجاز القرآن فى بلاغته ، وشفاء الفصاحة فى بيانه ؟ هل يؤمنون بأنه لايجوز فصل الدين عن الحياة؟

(٥ : ٥٠ أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) لا أحد ؛ فما ثَمَّ إلا حكمان : حكم الله ، وحكم الجاهلية . وإن الطفل ليدرك أن طرفى هذه المقابلة لا يلتقيان ، ولا يكونان معا ، يدرك أن ليس بينهما تضاد فحسب ، بل تناقض حاد . فإذا حكم بوجود أحدهما ، حكم بعدم الآخر . فإما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية . (فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟) فمن يحتكم إلى غير الكتاب والسنة ، فهو ممن يحتكمون إلى الجاهلية ، فبماذا تحكم على من يوجب الاحتكام إلى كتب مذهبه ، وعلى من يستفتى فى دينه رجلا لا يدين بما فى الكتاب والسنة ؟ وعلى من يقلد زنديقاً يزعم أنه الله كما تلحد الصوفية ؟! كتاب الله مهجور لا يذكره الأحبار إلا فى مأتم ، أو عند قبر أو لتسطير تميمة ، والسنة — ويا أسفى — يطغون عليها بالبدع ، يسمونها « حسناوات » !! وصاحب السنة الأمين الصادق يقول : « كل بدعة ضلالة » . أما الكتاب والسنة عند الصوفية ؟! أسمعت بأبى جهل يحب الرسول ، ويصلى عليه ؟ وبالإلحاد يؤمن بالله ؟ وبالشرك يدين بالتوحيد ؟ وبالنفاق يخلص الدين ، وبالكفر يقيم وجهه لله خاشعا الصلاة فى المحراب ؟ يريد منك زعماء الصوفية وأقطابهم أن تسمع بهذا ، وأن تؤمن به ؟ .

الموجبون للتقليد :

أتعلمون لم يهجر الأحبار الكتاب والسنة ؟ لأن رجلا قاءلهم كلمة ضالة « وواجب تقليد حبر منهمو » فآمنوا بقوله ، وادعوا أن التقليد لإمام واجبٌ لا يتم إلا به الإيمان !! تُرى أينسحب هذا الوجوب على الرسول وأصحابه ، والتابعين لهم بإحسان أولئك الذين كانوا قبل هؤلاء الأحبار ؟ إن لم يقولوا بهذا تناقضوا ؛ إذ يكون الواجب ليس بواجب ، أو يكون واجباً فى زمان ، غير واجب فى زمان آخر ، واجباً على بعض ، غير واجب على البعض الآخر ، صادق الوجوب فى حال ، غير صادقه فى حال آخر . وليس ثَمَّ قرينة مادية ، ولا معنوية تفيد هذا التخصيص . فهل يجوز القول بأن من الدين ما يجب على قوم دون أن يكون هو بعينه واجباً على

آخرين مكلفين عند الشرع كالأولين ؟ بل الدين كله ؛ إذ هم يوجبون التقليد فى كل شىء !! وهل يجوز الإيمان بصحة قول سداه ولحمته التناقض المتوتر ؟! ثم من الذى فرض هو الواجب ؟ آلله رب العالمين أم غيره ؟ مافى الكتاب ولا فى السنة تلك الفرية الأسطورية (واجب تقليد حبر منهم) . وهم أنفسهم يقرون بذلك فلم يبق إلا القول بأن موجبه غير الله . فهل نعبد الله بما يوجبه غير الله ، أو بما يشرعه حبر من الأحبار يجعل البدعة الوثنية واجباً فى الدين وهى التقليد ؟ وهل نصدق كتاب « الجوهرة » ونكذب كتاب الله الذى أوجب علينا الاحتكام إلى الكتاب والسنة ، واتباع ماجاء فيهما ، وجعل الرسول وحده هو الأسوة والقدوة والإمام ؟؟ ثم إن فى قول المفترين لوجوب هذا الواجب اتهام لدين الله بالنقص ، وأحكام شريعته بالقصور ؛ إذ لم يرد لهذا الواجب ذِكْر فيها . ثم إن أتباع كل حبر يَصِمُون سواهم بالجهل فى الدين ، والضلالة فى التدين ، ويرون لهذا أن الواجب هو تقليد حبر مذهبهم وحده . فالمؤمنون بوجوب هذا الواجب متنازعون بينهم فيمن يجب له هذا الواجب . أما الصوفية !! وياويل عقائد المسلمين من زندقة الصوفية !! لقد قرر لهم الشعرانى أن من أشرك بشيخه شيخاً آخر كان كمن أشرك بالله !! وأنت ولا ريب قد سمعت بما يحدث حين يعتدى رفاعى مثلا على أحمدى ، فيأخذ منه بعض دراويشه !! وإن شئت فاذهب إلى الريف وسل تسمع ، وأقم قليلا تشهد ماأحدثك به (٢ : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على مافى قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ؛ ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد ، وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد)

ماذا يقرأ الأحبار والكهان : فتش فى كتب الطواغيت معبودة فى مكاتب الأحبار والكهان ، وسيروعك أن تجد بين صفحاتها عيونا خابية ، وجفوناً ذابلة

وأهدابًا متناثرة من كثرة ماحيَّر البصر فيها أولئك وأمعنوه !! يتلمسون من شبهاتها يقين الحق ، ومن شكوكها حق اليقين،ومن طلاسمها فصاحة البيان عما فى الكتاب والسنة ، ومن زندقاتها فى وحدة الوجود حقيقة التوحيد ، ثم انظر فى المصاحف وكتب الحديث ـ إن كانت لديهم ـ فلن تجد أثر عين قارئة ولا فكر متأمل متدبر ، ولا قلب مُسْتَلْهِمٍ هداها ، ولا روح رفَّافة الحنين إليها . ولكن الذى ستجده مصاحف من « كل الطبعات » أبرزوها وَشْىَ زينة ، وفن رياء ونفاق . وابتل أذهانهم !! وستفيض عليك مااستوعبته من كتب الطواغيت حتى أخطاءها المطبعية!!ولكن لن يستهل عليك منها نور آية من كتاب الله ، ولاهدى حديث عن رسول الله ، اللهم إلا ماوضعه الزنادقة ، وافتروه على الرسول . فهذا يحفظونه ويستوعبونه ، يمارون به الحق البين من كتاب الله . ويحفظون من القرآن بعض آيات يحرفون فيها الكلم عن مواضعه كقوله سبحانه : (٣٨:٥ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وابتغوا إليه الوسيلة) تلك هى الآية الوحيدة التى يحفظونها . وتالله لو تدبروها وعقلوها لفتحت لهم أبواب الهداية ، ولنعموا بهدى الإيمان الصحيح ، ولكنهم يفسرون الوسيلة بأنها قبور الموتى وأجسادهم البالية !! يفترون على الله أنه يريد من عباده أن يحيوا فى رحاب القبور ، وفى ظلال الموتى ، وأن يجعلوا الوجود كله مقبرة !! ويحفظون الفاتحة يصلون بها للأضرحة وفيها !! وسورة (يس) يبيعونها بثمن بخس لمن يريد قراءة عدتها « على الظُلاَّم » ! ! و بضع آيات يتلونها على جسد المريضة تشكو رسيس الحمى ، و مسيس الشيطان ، وإن شئت الحق فقل : تشكو « غريزة الحيوان المكبوتة » فجاءت لِتَنْتَهِبَ الرذيلة مُسَمَّاة بالفضيلة !! و يحفظون بضع آيات تكتب تمائم تُعلَّق على رأس طفل سعت به أمه الْوَلْهى إلى رحاب سيدها الشيخ ذى اللحية المرسلة على صدر منافق ، والعمامة البيضاء كالكفن ، السوداء كنية النفاق ، الحمراء كدم العرض المسفوح ، الخضراء كالأعشاب السامة ، وذى الجفن المسبل على جريمة تُوَصْوِص باللهب ، والكف

الناعم يتلوّى فيه أفعوان الإثم . هذا نصيب القرآن والسنة من أولئك الكهنة والأحبار !!

عود على بدء : نعود لتذكيرك بآيات الله التى توجب الاحتكام إلى الكتاب والسنة (٤ : ٦٥ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما) . واجبات ثلاث فرضتها الآية على المسلم ليعمل بها عند النزاع . فإن لم يعمل بواحد منها فسق عن الإيمان : الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، رحابة الصدر بالرضى واليقين بأن حكمهما حق وعدل ، الاستسلام المطلق لحكم الله والعمل بمقتضاه . هذا مايوجبه الله على كل مؤمن حين يحدث بينه ، وبين أخيه المؤمن خلاف ، أو بينه وبين عاماته وأمرائه .. فإذا انتفى واحد من هذه انتفى الإيمان ، وقد أقسم الله على ذلك . أقسم برب محمد الذى يستنكفون عن اتباعه ، ويحتكمون فى دينهم ودنياهم إلى الطاغوت ، فهل يفهم المسلمون فى كل قطر عن الله معنى هذا القسم؟؟

(٦ : ١١٤ أفغير الله أبتغى حكماً ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين» أفنترك كتاب الله الذى فصل فيه كل شىء يقيم الدين والحياة ، ويقومهما بالحق والهدى واليقين ، ونحتكم إلى بشر تُنَازع قلوبَهم أهواء الدنيا والأهل والمال والولد والعشيرة والخلان والأوطان ، وفى نفوسهم حمية جاهلية لهؤلاء ، فيظلمون لهم ، ويغتصبون ، ويجورون ، ويضعون فى قوانينهم مايرعون به هوى أولئك الذين يحكمون بعواطفهم وشهواتهم منهم القلوب ، وبالفتون الساحرة كل رجاء وغاية ونية؟!

المختلفون دائما فى الكتاب : ومن عجب كيد الشيطان ، ولآمة مكره دفعه علماء الدين من كل أمة إلى أن يكونوا هم دائما أول من يختلفون فى كتاب الله ،

ويجادلون فيه بالباطل ، ويثيرون حول يقينه الرَّيب والشبهات ، ويلبسون حقه بالباطل ، ويكتمون منه الحق، وهم يعلمون ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ابتغاء فتنة أو شهوة أو جاه ، أو رضى جبار غشوم ظلوم . يدفعهم الشيطان إلى ذلك ويغريهم به ، ليفتن بهم الدهماء والعوام ، فما أضل الشعوب فى كل زمن إلا أحبارهم ورهبانهم . وهكذا كاد الشيطان ، ولا يزال يكيد . فعل ذلك باليهود والنصارى (٣ : ١٩ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم) (٤:٩٨ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) (٢ : ٢١٣ وماختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم)

وكذلك سول الشيطان للمسلمين ، فاختلف فى هذا الدين القويم أحبارهم ، فى حين يتلون آيات الله . ومنها قوله جل شأنه : (٣ :١٠٥ ولاتكونوا كالذين تفرقوا، واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات) ولكنهم رغم ذلك تنازعوا واختلفوا فتفرقوا أكثر مما تفرق اليهود والنصارى،فقد اختلف اليهود إلى قرَّائين ورابنيين وغيرهم ، والنصارى إلى نَسْطُوريين ويعقوبيين ، وَمَلكانيين ، وغير هؤلاء ، ولكن فى استطاعتك حصر فرق الطائفتين. أما المسلمون ـ وهم خير أمة أخرجت للناس ـ فتفرقوا إلى ما يعجزك حصره،وأخذوا بكل قاتل من التفرق والاختلاف تفرقوا فى أصول الدين إلى فلاسفة ، وصوفيين، وكلاميين ، وتفرقت كل طائفة من هؤلاء إلى مالا يحده حصر ، أو يحيط به عدد ، وتفرقوا فى فروع الدين إلى مذاهب متعددة ، وفى داخل كل مذهب متطرفون ، ومعتدلون، وحفظة على نصه ومؤولة لنصوصه ، فى حين يبرأ الأئمةُ المهتدون رضوان الله عليهم من هذا ، فما كان يبتغى إمام منهم باجتهاده أن يحمل الناس على قوله ، أو يدينوا بما وصل إليه من نتائج باجتهاده ، ولكن الشيطان هو الذى سول للناس فاختصت كل شيعة بمذهب وذهب أشياع كل مذهب ينتقصون من أقدار الآخرين، ويرمونهم

بالتقصير والقصور ، حتى كان يصل بهم النزاع إلى سفك الدم . يقول ابن سعيد فى كتاب المغرب ج ٤ ص ٢٣ « فى سنة ٣٢٦ هـ عاد أصحاب مالك والشافعى إلى القتال فى المسجد الجامع العتيق ، وكان فى الجامع للمالكيين خمس عشرة حلقة ، وللشافعى مثلها ، ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث فقط ، فلما زاد قتالهم أرسل الإخشيد من نزع حصرهم ومساندهم وأغلق الجامع فكان لا يفتح إلا فى أوقات الصلاة ، ثم سئل الإخشيد فردهم » ، ولقد روى التاريخ الصدوق أنباء تلك المجازر الدموية الرهيبة التى استحر لظاها ، وجن سُعارها بين الفرق الإسلامية وسفكت فيها دماء لو أنها كانت فى سبيل الله لكانت راية الإسلام اليوم خفاقة فوق قمة الوجود العليا ، ولكان العالم كله لها جندا ، ولست أدرى لم يختلف أحبار المسلمين فى الدين ، وكتاب الله آيات بينات مشرقات يجلى نورها كل شبهة تغيم على النفس وكل غامض يقلق الفكر ؟ ! كلٌّ يريد أن يكون له الجاه الكذوب وحده ، وأن تظل له الجماهير خاضعة الأعناق ، وأن يلقبه عبد الطاغوت بمفتى العصر وعلامة الدهر ! ! .

بم جازى الله المختلفين من الأمم السابقة ؟ : جازى الله من اختلفوا فى الدين من أهل الكتاب بالشقاق البعيد ، يقطع أرحام المودة ، ويفتك بعلائق الأخوة ويشتت شمل الجماعة ، وجازاهم بإيقاع العداوة والبغضاء بينهم (٢ : ١٧٦ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد) وقال عن اليهود : (٥ : ٦٤ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) وقال عن النصارى : (٥ : ١٤ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) وبمثل ذلك وأشد جوزى المسلمون لما اختلفوا فى الكتاب والسنة ، فاجتالهم عدوهم ، وحازهم فى بقاع صغيرة من الأرض أذلة ، وربط خطامهم ببغيه وجوره ، كلما

ثارت حرب قاتل المسلمون معه ــ لا فى سبيل إعلاء كلمة الله ــ بل فى سبيل أن يزداد الغاصب المستعمر بطشا وعتوا وفجورا ، وأن يستعبد خلق الله لأصنام الكفر وأوثان الطغيان !! .

اتباع سنن اليهود والنصارى : يمارى فى الحق الذين يستعبدون الناس بشهواتهم ، فيزعمون أن المسلمين بخير ، وأنهم مطمئنو القلوب إلى توحيد الله فى ربوبيته وإلهيته ، وإنى أذكر أولئك بما نبأنا به الصادق الأمين من أربعة عشر قرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة[1] حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » « الصحيحان » ويقول : « لاتقوم الساعة حتى تأخذ أمتى مأخذ القرون شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، فقيل : يا رسول الله . كفارس والروم ؟ قال : ومن الناس إلا أولئك ؟ » « البخارى » وهكذا أوحى الله إلى رسوله بما سيقع لهذه الأمة . وصدق رسول الله ، وكذب المفترون ، فقد أخذ المسلمون مأخذ اليهود والنصارى وفارس والروم ، فجازاهم الله بما جوزى به أولئك من قبل ، فلنعترف بالداء الوبيل لعلنا بذلك ننشد الدواء ريَّان الشفاء ، وإنه لفى كتاب الله (٤١ : ٤٤ قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء) أما أن تأخذنا العزة بالإثم ، فنأبى أن يقر المريض بدائه أو نلقى تبعة ما نحن فيه على غيرنا ، أو نسائل عن سبيل العزة ومكانها ، أو نحاول مداواة الداء بالسم الناقع من إلحاد الغرب وفسوقه . أما أن نفعل ذلك ــ وبيننا كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم يقولان للمسلمين عن الداء الذى يفتك بهم ، ويدلانهم على الدواء الذى يشفيهم ، ويبينان لهم سبيل العزة والقوة والمجد ــ فثقوا أيها المسلمون أنكم ستظلون كما أنتم ، أحلاس فتنة ، ومهاوى ذلة وَمغدى ومَراح مستعمر . أما إذا فررتم إلى الله (٢ : ٢٧٥ فمن جاءه موعظة من ربه ، فانتهى ، فله ما سلف) .

---

(١) القذة ريشة السهام يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان

أما أنتم يا علماء المسلمين فى كل وطن فهذا واجبكم تذكركم به الآية الكريمة (٥:٦٣ لولا ينهاهم الربانيون، والأحبار عن قولهم الإثم ، وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) .

افتتان الناس بعلمائهم : يفتتن الدهماء والجهال دائماً بعلمائهم ، فإذا دعاهم إلى الدين الحق داع من غير العلماء صمت الأسماع ، ونفرت القلوب ؛ إذ يسول لهم الشيطان أن ما يدعوهم إليه دعاة الحق ليس إلا جموداً وتنطعا فى الدين ، ومقتا لرسول الله وأولياء الله . ويدلل لهم على صدق وسوسته بما ارتضاه ديناً أولئك العلماء ذوو الجاه العريض، والصيت البعيد ، فلو كان دعاة الحق صادقين ، لكان أولى بهذه الدعوة وتأييدها هؤلاء العلماء المشهود لهم بالكفاية ، والدراية التامة ، وقوة الاستظهار لكل متن وشرح وحاشية ، والذين قضوا نصف قرن يردُون مناهل العلم ، ومشارع المعرفة ! فعدم قول العلماء بقول دعاة الحق برهان على أنهم يرون هذا القول منكراً ، وخطراً على روحانية الدين ، وقداسة الأولياء والأئمة ، فلا يجوز اتباع أولئك العوام دعاة الحق ، وترك الاقتداء بالعلماء ذوى الألقاب الفخمة الضخمة ! ! بهذا يوسوس الشيطان للدهماء ، وبه يفتنهم عن دين الله ، ويغريهم بعداوة الحق .

ولكن ما كان من يسميهم الناس علماء الدين فى كل أمة دائما على حق . ألم أذكرك بآيات الله التى تقرر أن المختلفين فى كتاب الله كانوا دائما ممن هم على بينة منه . من الذين يعقلونه ، ويفهمون معانيه ، فيحرفون الكلم عن مواضعه بغيا وفتنة ؟ ! وأذكرك الآن بقول الله : (٦ : ١١٤ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين) . ثم إليك من آى القرآن ما يبين لك صفات العلماء بحق ، وعلى هديها احكم بالحق : (٣٥ : ٢٨ إنما يخشى الله من عباده العلماء) (٢٢ : ٥٤ وليعلم الذين أوتوا العلم

أنه الحق من ربك ، فيؤمنوا به ، فتخبت له قلوبهم) (٣ : ٧ والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به . كل من عند ربنا) يؤمنون بمحكم الآيات ، ويؤمنون بالمتشابه منها بردها إلى المحكم . ولا يرتابون ، ولا يمارون . (٤ : ١٦٢ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك) هذه هى صفات من يسميهم الله بالعلماء ، ويصفهم بالرسوخ فى العلم . إنها توحيد لله خالص اليقين ، وإيمان صادق ، وعبودية صافية ، وخشوع طَهور ، وتقوى تطيب بها المحاريب ، ويقين بما أنزل الله ثابت ، واتباع صادق له ، ودعوة إليه . ومن علمائنا اليوم فى مصر وغيرها ـ يحمد الله ـ طائفة أنعم الله عليهم بهذا . يصدعون بالحق ، ويعلون من كلمة الله. لا يطمعهم وعد ، ولا يرهبهم وعيد ، ولا تستزلهم عن الدعوة إلى الله فتنة الجاه الكذوب . ولكنهم ـ ويا أسفاه ـ مضطهدون ! ! إنهم النجوم التى بقيت تتلألأ فى ظلمات هذا الليل الرهيب تحاول السحب الدكناء أن تحجب عن الحيارى السارين بريقها المتلألىء . إنهم منارات الحق وأعلامه يهابهم قراصنة البحر ، وقطاع الطريق ، فيكيدون لهم بالبغى والعدوان !! غير أنى أقول لأولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه : ليضطهدكم الأبالسة ، وليؤلب الشيطان عليكم خيله ورجله . ولكنكم بالله تعتزون فستنتصرون ، فاضربوا بمعاول الحق معبد الصنم ، وهيكل الطاغوت . إنه بدأ يهوى ، وآن أن ينهار على رأس كل جبار عنيد من دعاة الوثنية ، وعشاق البغى من جور المستعمرين .

الفتنة بالأكثرية : يفتن الشيطان كل إمَّعَةٍ بفتنة الأكثرية ؛ إذ يسول له أن الحق معها ، وليس مع هذه القلة التى تدعو الناس إلى الدين القيم . وبهذا الخبال الفاتن لا يقيم أولئك الإمعات للحق وزنا ، ولا يقوِّمون قِيَمَ الأشياء وحقائقها إلا بما يقوِّمها به غيرهم ممن عاندوا الحق ، فكانت منهم الأكثرية التى يلوذ بها الباطل . ولكَمْ يستغرق فى العجب أولئك المفتونون بالأكثرية من هذه القلة التى

تدعوهم إلى الحق ، و يبهتونهم بالمروق عما ارتضاه أكثر الناس دينا ! ! وهكذا يجعلون الناس أدلة على الحق والحقيقة ، لا الحق أدلة على الناس ، و يقوِّمون القيم بالأشخاص ، والحق تقويم الأشخاص بالقيم ، فيؤمنون بالشيء ؛ لأن فلاناً آمن به ، و يثقون به ؛ لأن فلاناً قال لهم ذلك ، دون أن يكون لهم حجة على ما آمنوا به ، ووثقوا ، ولا أثارة من علم ، أو شِيَةٌ من التفكير ، فحسبهم على الحق دليلا شخص فلان ؛ ولهذا شدد الله النكير على التقليد ، ووصف المقلدة بأنهم شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، وأوجب على كل مسلم أن يحتكم فى دينه ـ لا إلى ما يؤمن به الناس ـ بل إلى الحق فى ذاته ، والهدى فى ذاته نزل بهما كتاب الله ، ودعا بهما و إليهما رسوله الكريم . ثم إن الأكثرية لم تكن دائماً على الحق دليلا ، ولا سبباً داعياً إلى الإيمان به عن طريقها .

ولهذا ذكر الله فى كتابه من آياته المحكمات ما يحول بين النفس الصافية و بين الفتنة بالأكثرية تؤمن بشيء ، فنتبع ما رضيته ، ونسلك ما سلكته الأكثرية من سبيل عن عمى وجهالة (١٢:١٠٣ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (٢٥ : ٥٠ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا) يبين لنا هذا الهدى والحق أن أكثر الناس لا يؤمنون بالحق ، وأنهم يأبون إلا كفورا بالحق ، فكيف نجعل دين الأكثرية دليلا على الحق وصدق الإيمان ؟. والحق هو مافى الكتاب والسنة ، لافيما آمنت به الأكثرية (١١:١٧ إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)

أفيعقل بعد اليوم عباد الأكثرية ؟ ! ثم إن الله سبحانه يبين لنا أن أكثر الناس فى كل عصر كانوا جهالاً ضلالاً جاحدين للنعمة فساقا ينقضون عهد الله (١٢ : ٢١ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٢:٢٤٣ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ، (٧:١٠٢

وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) (٣ : ١١٠ منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون) ويقرر لنا سبحانه أن هذه هى سنة البشرية يضل الشيطان الأكثرية منها (٣٧ : ٧١ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) ولذا ينهى الله سبحانه ويحذر من طاعة الأكثرية دون بصر أو تدبر ، ومن الفتنة بها حتى لا نضل عن سبيل الله (٦ : ١١٦ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) فلا يفتنك بعد اليوم أحبار ولا أكثرية ضالة .

الوسيلة الخامسة : الحكم بالكتاب والسنة

من شريعة الإسلام تنصيب حاكم يحكم بين المسلمين بأمر الله ، ويجتمعون على طاعته ماأطاع الله فيهم ، وبهذا يسود النظام التام حياة الجماعة الإسلامية ، ويمكن للحاكم من إقامة حدود الله ، ففى الإسلام ـ فوق العقوبة الأخروية ـ عقاب دنيوى ؛ كحد الزانى والسارق وشارب الخمر وقاذف المحصنة ، وقاطع الطريق والباغى على الجماعة الإسلامية التى تحكم بالكتاب والسنة ، والقاتل ظلماً ، ولم يجعل الله حق إقامة الحدود على مستحقيها إلا للحاكم بعد أن يرفع إليه أمرهم .

وفى الإسلام قصاص ، وفيه إيجاب الاحتكام إلى الكتاب والسنة ، فإذا لم يكن ثَمَّ حاكم إسلامى عام ، فمن ذا الذى يقيم الحدود ، ويقتص للمظلوم ، ويفصل بين المتخاصمين ؟ . ولهذا أوجب الله على المسلمين أن ينصبوا عليهم من أنفسهم حاكما عادلا ينفذ بالحق والعدل شريعة الله . حتى لا تكون فتنة ولا فوضى ، ولا ترات فى النفوس ، ولا أحقاد ، ولا أضغان فى القلوب حتى يستتب الأمن ، ويسود السلام ، وتصفو القلوب ، وترضى النفوس ، إذ يرون حكم الله نافذاً فى الجميع ، له السلطان وحده فوق كل حاكم ومحكوم .

حق الحاكم على المحكوم : حق الحاكم أن يطاع ، وأن لا يُنَازَعَ أَمْرَه (٤ : ٥٩ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) فإن

وجد المحكوم عليه، أو له فى حكم الحاكم مايحسبه مخالفاً لأحكام الشريعة الإسلامية راجعه فيما حكم به ، واحتكم و إياه إلى الكتاب والسنة (٤ : ٥٩ فإن تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) ويقول صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا ، و إن أمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » « البخارى » وعن أبى هريرة قال : « أوصانى خليلى أن أسمع وأطيع ، و إن كان عبداً حبشياً مجدوع الأطراف » « مسلم » وعن عبادة بن الصامت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى مَنْشَطنَا وَمَكْرَهِنا ، وعسرنا و يسرنا ، وأثرة علينا ، وألاَّ ننازع الأمر أهله ، قال : إلا أن تروا كفراً بَوَاحاً « جهارا » عندكم فيه من الله برهان » « الصحيحان » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من رأى من أميره شيئاً فكرهه ، فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً ، فيموت إلا مات ميتة جاهلية » « الصحيحان » .

هذا حق الحاكم الإسلامى على المسلمين ، و إن من يتأمل هذه الأحاديث لَيُؤْمِن بأن شريعة الإسلام تقرر مبدأ النظام التام ، والمساواة الكاملة تقريراً يسمو بهما إلى الذروة العليا من السمو مما لا تطمع فى الدنو حتى من قريب منها أسمى قوانين البشر نظاماً وعدلاً ، وأبرها سماحة ونبلا فى تقرير المساواة ، والشريعة الإسلامية لاتكتفى بالدعوة إليهما ، بل توضح مع ذلك السبيل العملى الذى يتحقق به وجودها على أكمل وجه وأتمه .

والواجب أن يكون الباعث على طاعة الحاكم تقوى الله وحده ، لا الرجاء فى ثواب الحاكم ، ولا الخوف من عقابه ، وفيما ذكرتك به من آيات الله ، وهدى السنة المطهرة حجة تدحض بهتان أولئك الذين يزعمون أنه يجب فصل الدين عن الحكم، وعن شئون الحياة . يمهدون بذلك للبغى والجور والسفه والإلحاد ، ونقض قواعد الإسلام ، ودك أسسه ، ولكن الله غالب على أمره ولو كره عبيد المرأة ! !

حق المحكوم على الحاكم : وكما وصى الله المسلمين بطاعة الحكام ، فإنه وصى

الحكام بالعدل والبر والرعاية الرحيمة لكل فرد من أفراد الجماعة المؤمنة ، وجعل كل حاكم مسئولا عن رعيته . يقول صلى الله عليه وسلم :« من ولاه الله عز وجل شيئا من أمر المسلمين ، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره» «أبو داود ، والترمذى » ويقول : «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم . من ترك مالا ، فلأهله ، ومن ترك دَيْنًا ، وضياعاً فإلَىَّ وَعَلَيَّ » « أبوداود والترمذى» ويقول : « من ترك مالا فلورثته . ومن ترك كَلاًّ فإلينا » « الصحيحان » يوجب الله على الحاكم أن يكفل من مات من المسلمين فى دَيْنِه وذريته الضعاف ، وأهله الذين لا يستطيعون ضرباً فى الأرض .

هذا هو الضمان الاجتماعى فى سموه ورحمته ، إنه ليس منحة تتفضل بها الدولة . بل فرضاً مقدساً عليها للمحتاجين .

الواجب على الحاكم : أوجب الله على كل مسلم أن يحتكم إلى الكتاب والسنة عند النزاع ، وأوجب على الحاكم أن يحكم بين المسلمين بالكتاب والسنة ، وأن يكون بهداها بصيرا حتى يكون حكمه عن بينة منهما ، وأوجب عليه ألاَّ يستبد ، أو يتعصب لما حكم به إذا ثبت له أنه على غير الحق من الكتاب والسنة ، وليرد ما نازعه فيه المحكوم عليه ـ أوله ـ إلى الله ورسوله . وإليك من آى القرآن ما يقرر فرض هذا الواجب على الحاكم .

(٥ : ٤٨ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق)

وبهذا يتوجه الخطاب أمراً ونهياً فى قوته وجلاله إلى كل حاكم إسلامى ؛ بتوجيهه إلى صفوة الخلق ، إمام الحاكمين جميعاً عدلا وهداية رسول الله صلى الله عليه وسلم . يأمر الله الحاكم ، ويفرض عليه أن يكون حكمه عن بينة من الكتاب والسنة ، ويحذره من أن يميل به عن الحق هواه مع الناس ، أو هوى الناس معه ، ولو كان بعض من يحكم بينهم من آبائه وأبنائه وإخوانه ، وخلانه وغيرهم ممن

تربطهم به أية رابطة من روابط الوجود الإنسانى ، يحذره من الحكم بغير الكتاب المبين ؛ لأن الله سبحانه جعل لكتابه الهيمنة الكاملة على كل كتاب سماوى ، فما بالك بكتب القوانين الوضعية ، والكتب الفقهية !!؟

معنى هيمنة القرآن : يفصل لنا الإمام الصبار الشكور ابن تيمية هذا المعنى تفصيلا جليلا شافياً، إذ يقول فى كتابه جواب أهل الإيمان : فإنه « أى القرآن » قرر مافى الكتب المتقدمة من الخبر عن الله ، وعن اليوم الآخر ، وزاد على ذلك بياناً وتفصيلا ، وبين الأدلة والبراهين على ذلك ، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين ، وقرر الشرائع الكلية التى بعثت بها الرسل كلهم ، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين ، وبين عقوبات الله لهم ، ونصره المتبعين لها ، وبين ما حرف منها وبدل ، وما فعله أهل الكتاب فى الكتب المتقدمة ، وبين أيضا ما كتموه مما أمر الله ببيانه ، وكل ماجاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التى نزل بها القرآن ، فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة . فهو شاهد بصدقها ، وشاهد بكذب ما حرف منها ، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ، ونسخ ما نسخه ، فهو شاهد فى الخبريات ، حاكم فى الأمريات » .

ثم يقول رضى الله عنه : « ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون فى أصول الدين والعلوم الإلهية ، وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ، وأهل الرأى كالمتفلسفة وغيرهم إلا بعض ماجاء به القرآن ، ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبى آخر وكتاب آخر فضلا عن أن تحتاج إلى شىء لا يستقل بنفسه » وإذا كان هذا هو شأن القرآن بالنسبة إلى الكتب السماوية ، فما بالك بالكتب الوضعية التى يبتدعها

البشر ليحكم بها المسلمون فى دينهم ودنياهم ؟ مابالك بالكتب التى يزعم أصحابها أنها تفصل أحكام الدين ، وفقه الشريعة الإسلامية ؟ ألا يجب أن يجعل المسلمون كما أمر الله للقرآن الهيمنة على كل كتاب يشرع قانونا ، أو يفصل بزعم واضعه أحكاما فى الدين ؟ بلى يجب عرض كل كتاب قانونى ، أو دينى على حق كتاب الله وهداه فإن كان مافى هذه الكتب يطابق ما جاء به القرآن ، ويشرف بالانتساب إليه ، والغاية منه الدعوة إلى الله ، فهو حق وخير ، وإلا فهو شر يجب استئصاله ، والتحذير منه ، والمتدينون لا يفتنون بكتب القوانين الوضعية ، كما يفتنون بالكتب الدينية . فالأولى معروف نسبها وغايتها ومصدرها ، أما الثانية فينسبها أصحابها إلى الكتاب والسنة ، ويزعمون أنها تمثل الناحية الروحية فى الإسلام ، أو تفصل الحقائق العليا فى شريعته الخالدة !! فى حين أنك لو ابتليت مافى تلك الكتب لوجدتها قناع مجوسية ، ولثام إلحاد ينافق بالرياء ، ولا سيما كتب هذه الإمعات التى فتنتها امرأة ، ومن أجلها فسقت عن أمر الله ، وآمنت معها أن المرأة قوامة على الرجل ، وأن الدين عمل فردى لا شأن له بالجماعة ، ولا بنظم الحكم ، ولا بشئون الحياة . قالوا ذلك من أجلها ، فمهدوا لها بهذا إلى الجريمة المستعلنة التى كانت تخفيها ببقية من خوف ، وشِفٍّ رقيق من الحياء . ولكنها وجدت من يعينها على أن تهتك الستر كله ، وعلى أن تعلن الحرب ـ دنيئة مُلْتَاثة البغى ـ على سنة الله وفطرته التى فطر الناس عليها ، وعلى دينه ترميه بالجمود والعدوان الظالم على حقوق المرأة ، وجدت من يعينها على ذلك . وكانوا ـ ويا أسفاه ـ ممن يفترون أنهم من رجال الدين وعلمائه !! .

وجوب الرقابة على الكتب الدينية : يجب مراقبة كل كتاب دينى ، وعرضه على الكتاب والسنة ، والحكم عليه بعد ذلك حكما عادلا مجردا من كل

هوى وعاطفة ، حكما لا يرعى غير وجه الله ذى الجلال ، وذلك حتى نحول بين

الناس ـ وبخاصة الشباب فى هذ العصر العربيد المجون والإلحاد ـ وبين الزيغ والضلال والفتنة ، وسيتهمنا بعض من يعيشون على افتراء الكذب ، والدجل باسم الحرية ، أننا بهذا نقيد حرية الفكر المطلقة المقدسة ونعاديها ! !

ولسنا والله من أعداء الفكر ولاحريته ، وكيف ونحن دعاة إطلاق الفكر من إسار التقليد الوثنى لتراث الجاهلية ، وأغلال العبودية لإباحية الغرب و إلحاده حتى يستطيع الفكر أن ينعم بصرا بالنور الإلهى يهديه إلى الحق ، وهى الحقيقة ؟ ! ولكنا أعداء المجون والإلحاد يسميان حرية فكرية

الحرية بين التقييد والإطلاق : ليس فى الوجود ، ولا عند العقل ما يسمى حرية مطلقة . بل كل حرية مقيدة بقيد قد يكون ظلما أو عدلا ، أما القيود الظالمة فنحن أول الدعاة إلى تحطيمها ، أما العادلة فنحن أول الدعاة إلى بقائها وحراستها حفاظا على الفكر نفسه ، وعلى الأخلاق ، وعلى الدين . فليست حريتك مطلقة فى جمع المال ، بل هى مقيدة بوجوب اتباع السبل المشروعة لجمعه ، و إلا كان الغصب والنهب والسلب والسرقة ، وليست حريتك مطلقة ، وأنت تسير فى الطريق ، بل هى مقيدة بوجوب مراعاة آدابه ، و إلا كانت ضعة الأخلاق . ألا ترى الصحف فى كل ساعة تلح على حماة الآداب من الشرطة أن يبالغوا فى مراقبة الشباب الماجن المستهتر من أحلاس العربدة فى الطريق ، وأن يأخذوهم بالشدة الرادعة حماية للأخلاق وللأعراض ؟ ! فهل حماية هذين أولى عند حرية الفكر من حماية الدين القيم وعقائد المؤمنين به ، وهو الدين الذى تسمو به الأخلاق ، ويجعل المقاتل دون عرضه من الشهداء ؟ ! أحماية المرأة السافرة الماجنة السفور من ذئب تتقتّل له الشاة ليأكلها أولى من حماية الدين ممن يدسون له السم ، وهم خاشعو النفاق فى المحاريب ؟ !

لقد أذنت الحرية المطلقة للمرأة أن تسفر بالفتنة الآثمة فى الطريق ، وأن تبيح

لحمها لشهوة كل ذئب منهوم ، وأذنت الحرية المطلقة لهذه الحيوانات أن تتدين بما شاءت ، وأن تتخلَّق بما تهوى ، فكيف تريد الحرية المطلقة من شبابها المائع الماجن أن يكون على جوع الغريزة صبوراً ، ونهمها جلدا ، فلا يأكل من لحم المرأة مايريد ؟ ! أتؤجج النار ، وتلهب الشعارَ ، ثم تقول : اخمد أيها اللهب واعقل أيها الكلب المسعور ؟ ! ياللحرية المطلقة تلطخ بدم الجريمة يديها ، ثم تسميه أصباغ وجنات وشفاه ! ! .

فإذا حاولنا حماية المرأة بما حماها به الدين ، وتكريمها بما كرمها به ، وسما بشأنها ، وإذا حاولنا دعوة الشباب إلى حمى الدين يحتمى به من فجور الغى ، ويجنى من مجانيه العزة والكرامة والسمو ، إذا حاولنا ذلك قالت الحرية المطلقة : رجعية وجمود فى القرن العشرين !! فلا تطيق الحرية المطلقة وذئابها أن يسمعن كلمة الله ، ولو أن الإسلام دعاها إلى الخير لسمته بغى الشر ، ولو دعاها «مسترفلان» إلى أن تلعق دم الرذيلة لبشرت بدعوته على أنها روح الفضيلة ؟ ! .

تلك هى الحرية المطلقة ، وهذا هو هدفها ، وتلك وسيلتها فى تحطيم الأخلاق ، وتدمير الفضائل !! وليست حريتك مطلقة فى الملكية ، بل هى مقيدة بوجوب مراعاة مايملك غيرك ، وإلا كان البغى والجور ، بل ليست حريتك مطلقة فى التصرف فيما تملك . بل هى مقيدة بوجوب الإحسان فيه ، وإلا كان السفه والخبال ، وأقيم عليك قيم يتصرف لك فى مالك ، وما تملك ، وليست حريتك مطلقة فى الأمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، بل هى مقيدة بوجوب مراعاة ما سماه الله معروفاً ، وما سماه الله منكرا ، هذا قيدها العادل ، أما قيدها الظالم الذى يجب أن يتحطم . فشهوات الباغين ممن يضارون بالدعوة إلى المعروف ، والنهى عن المنكر ، وهكذا لو فكرت فى كل معانى الحرية لوجدت بجانب كل حرية قيدا عادلا رحيما حكيما يقيد إطلاقها . ويخصص عمومها ، ويحدها بحدود ينبغى أن لا تعتديها ، وإلا كانت الفوضوية المطلقة ، وإلا كان عالم وحوش انفلتت

غرائزها ، وجمحت شهواتها ، فاندفع كل وحش منهـا ليجعل الآخرين بغض صيده ! ! وهذا فرق مابين الغاب بحيوانه ، والعـالم بإنسانه ، فالإنسان له عقل يقيده ، وضمير يحكمه ، ودين يحدد له مايصح أن يسلـكه من سبيل . وكل هذه السلطات المعنوية تحد من حرية صاحبها وتقيدها . أما الحيوان المسعور ، فهو زعيم أولئك الذين ينشدون الحرية الفكرية المطلقة ! !

فإذا كانت الجماعة البشرية قد تواضعت على ذلك ، واستكانت لما قيدها به العقل ، والضمير ، والعرف الخاص ، أو العام من قيود ، فلم نتعالى على الحق الذى يوجب أن تـكون الدعوة إلى الله فى حدود ماأمر الله به ، و بينه رسوله ، لا كما يريد الشيوخ وتنمق الشهوات ، وتتشهى امرأة الأساطير ! !

فإذا طالبنا بجعل الهيمنة للقرآن على كل كتاب يؤلف فى الدين ، و بوجوب عرض هذه الـكتب على هداه ، حتى لايصل إلى أيدى الشباب مايحيل يقينهم ريباً ، وما يبتليهم بالشبهات فوق الشبهات ، وما يزلزل فيهم الثقة فى أن هذا الدين هو خير الأديان ، وأسماها هدى وحقا وحكماً وعدلا . أقول : إذا طالبنا بذلك فلسنا بدعاً فى هذا الأمر ، ولسنا أعداء حرية الفكر ؛ إذ ثبت لك مما قدمته أن حرية الإنسانية ، حتى وهى فى ذروة مدنيتها ، وحضارتها العليا رضخت لقيود العقل والعرف راضية ، فـكيف تتعالى هذه الحرية اليوم على الحق ، وتأبى إلا أن تقول فى الدين الإسلامى ماتشاء ؟ و إخال لو أن كتاباً ألف بحرية مطلقة فى الناحية الجنسية لتعالت أصوات دعاة الحرية الفـكرية تلح فى مصادرته و إحراقه ، والبطش بصاحبه ، والتنكيل به ادعاء الحماية للفضيلة ! ! أما الدين الإسلامى ؟ ! ألا إنهم لايدعون فى الحق إلى الحرية الفكرية ، و إنمـا يهدفون من وراء ذلك إلى الإلحاد والتشكيك فى الإسلام باسم الحرية الفكرية

عود إلى وجوب الحـكم بالـكتاب والسنة :

(٥ : ٤٩ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم

أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك) يحث بها الله الحاكم الإسلامى على الحكم بما أنزل الله ، ويوجب عليه الحكم به بين المتخاصمين ، دون أن تكون له غاية من حكمه إلا ابتغاء وجه الله بتثبيت سلطان الحق . وإعلاء شأن العدل . مع الحذر الشديد البالغ من أن يفتنه أحد طرق الخصومة ، فيصرفه بالفتنة عن الحق ، أو الحكم بالعدل ، فقد يكون أحد المتخاصمين ذاجاه ، أو حسب ونسب ، أو ممن لهم بالحاكم صلة ، وقد يكون من سحرة البيان ، وشياطين الجدال ، أو من المرائين بالتنسك والوقار . فيجب على الحاكم أن يحذر فتنة هؤلاء ، وأن يكون شديد اليقظة لمداخل الفتنة ، ومسار بها حتى لاتنسرب فى غفلة إلى قلبه ، فتصرفه عما أنزل الله إليه ، وما يحب الله للحاكم أن يصرفه صارف عن بعض ماأنزل الله ليُحْكَمَ به فى قضايا الدين والحياة .

(٤ : ١٠٥ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ؛ لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما) إيجاب على الحاكم أن يكون نافذ البصيرة فى تدبر القرآن والسنة ، وأن يظل الحياة كلها منفذاً لأحكامهما ، مقيما حدودهما على مستحقيها ، فالكتاب حق نزل بالحق من الحق العلى الكبير ، وَمَنْ نَزَّل عليه الله الكتاب ـ وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ـ علمه الله سبحانه ، وأراه كيف ينفذ أحكام الشريعة الإسلامية ، ويطبقها تطبيقاً صحيحاً حكيما عادلا ، فكانت السنة ـ قولا وعملا ـ من الله وحيا وتعليما ، فالحاكم بالسنة مع الكتاب إنما يحكم بما علمه الله لنبيه المعصوم ، إنما يحكم بمافى القرآن ، وقد تمثل عملا هادياً يقتدى به الحكام المهتدون فيما يحكمون ، والمؤمنون فيما يعملون .

والله يوجب على الحاكم بهذه الآية أن تتسامى عدالته فوق كل الأهواء النفسية ، حتى لو اختصم إليه فريقان : هذا من شيعته ، والآخر من عدوه ، هذا أمين موصوف بالأمانة ، والآخر خائن طبيعته الخيانة . وبمثل هذا يبتلى الله النفس الإنسانية ؛ ليرفعها إلى تمجيد الحق حيث كان رعاية للعدل الكامل فى كل ماتحكم

به ، أو تتناوله من شئون . ألا ترى الآية توجب على كل حاكم أن يحكم بالحق والعدل ، و إن كانا مرة فى جانب عدوه ؟ ! ولو أنه كان عدواً شريفَ بعضِ الأخلاق لأندى ذلك قليلا من غلة العاطفة النفسية ، ولكنه عدو خائنٌ ، لازمته الخيانة فى كل مايقول ، أو يفعل حتى أصبحت صفة ثابتة له ، ومقوماً دائما من مقومات أخلاقه . لمثل هذا الخائن يوجب الله على الحاكم الإسلامى أن يوطىء له من أكناف عدله ، وأن يحكم له بالحق إن كان معه ، ويحذره من أن يحول بينه و بين الحكم بالحق له علمه أنه خائن يخون العدل والحق والأمانة ، مادام ذلك الخائن قد ارتضى الحاكم الإسلامى حكماً ، وجاء راغباً فى النزول على حكم الله !

(٤ : ١٥٨ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعِمَّا يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيراً) إن من يتأمل هذه الكلمة «الناس» وهى فى موضعها هذا المعجز يؤمن أن حقيقة المثل الأعلى للعدالة ماهى إلا شعاع علوى من نور الإسلام . إن الله ـ سبحانه ـ بهذه الكلمة المعجزة فى موضعها من الآية الكريمة يوجب على الحاكم أن يكون حليف الحق ، وولى العدل فى حكمه بين جميع أفراد الجماعة الإنسانية التى تحيا فى ظل الدولة الإسلامية ، سواء فى ذلك مؤمنهم وكافرهم ، مسلمهم وغير مسلمهم ، مهديهم وضالهم ، أمينهم وخائنهم ، شريفهم ووضيعهم ، أمراؤهم وأراذلهم ، غنيهم وفقيرهم ، صديقهم وعدوهم .

يوجب على الحاكم ألاَّ يحول بينه و بين العدل والحكم بالحق عصبية دينية ، أو جنسية ، أو وطنية ، أو حَمِيَّة لذوى قرباه ، وأولياء حكمه ، فكيف يخشى غير المسلمين من الحكم الإسلامى ، وهاهم يرون القرآن ينص نصاً قطعى الدلالة على وجوب العدل والحكم بالحق للمسلم ، وغير المسلم ؟ وهل يرون شريعة أو قانونا أبر بالعدل : وأرعى للحق ، وأرحم بغير أهله من الشريعة الإسلامية ؟! وهل نص

القانون على مثل هذا ؟ وهل فى تاريخ العداله تبشر بسموها قوانين البشر مايَرِفُّ منه شعاع واحد على العالم كنور هذا العدل الإلهى الأسمى ؟؟ .

(٥ : ٤٢ سماعون للكذب أكالون للسحت ، فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين) هم اليهود ترجمهم لعنة الله ، ويهلكهم غضبه سبحانه ، حتى هؤلاء الذين نعتهم الحكيم الخبير بما فيهم من نعوت تنحط بها الإنسانية إلى حضيض الضعة والدناءة والصغار المهين . حتى اليهود السماعون للكذب الأكالون للسحت ، يوجب الله على الحاكم الإسلامى أن لا يمتنع عن الحكم بينهم ، وبين خصومهم ، وأن يحكم لهم بالحق إن كان لهم ، وأن يلتزم العدل التام فيما يحكم به بينهم ، ماداموا يحيون فى ظل حكومة الإسلام ، ويرضون حاكمها بينهم حكما .. وإلى أدنى منزلة من هذا لن تصل يوما عدالة البشر وقوانين البشر ، وإن الآية لتعد الحاكم الإسلامى بالحب الإلهى ثواباً على حكمه بالعدل والحق بين السماعين للكذب الأكالين للسحت ، إذ تقول (فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) فهل يمكن الحاكم الإسلامي ألا يعدل بينهم ، والله يعده بثواب لا يدانيه أبداً ثواب آخر ، وهو محبة الله له ؟ . ترى هل يفهم ذلك عدو الإسلام من ملاحدة الغرب ، وأوليائهم من ببغاوات الإلحاد فى الشرق ، أولئك الذين يفترون على الحكم الإسلامى الجور والبغى ، ويبهتونه بالتخلف عن ركب الحضارة الإنسانية وعدالتها ؟ ! وَلَشَدَّ مايؤلم الحق أن يكون بعض من ينتسبون إلى الإسلام ، ويلقبون أنفسهم بأنهم من العلماء بوقا لهؤلاء الذين يكيدون للإسلام ، ويقترفون عليه المنكر ، فيدفعهم خصيم الإسلام وعدوه إلى المناداة بفصل الدين عن الحكم ، وشئون الحياة ، حتى ينطلق الشرق الإسلامى — فى زعمهم المخبول — إلى أقداس الحضارة ، ويسمو إلى آفاق المدنية بعد أن يحطم عنه هذه الأغلال التى كبله بها الإسلام !! .

لقد سمعت هذه الببغاوات الجاهلة العمياء مايقول عدو الإسلام ، فمضت تردد هذا القول دون وعى أو إدراك ، يقترف أولئك إثم هـذا التقليد حتى يوصفوا بالتجديد والتفكير الحر ، والاطلاع على ثقافة الغرب ، وأحسن ما يكونون سعداء حين يقرأ النـاس لهم قال « جورج » وغير ذلك من أسماء أصنام الغرب ، وأحلاسهم فى الشرق وأشد ما يكونون خزيا حين يضطرون أحياناً إلى أن يقولوا « قال الله . قال محمد » بل يدمجون الآية فى المقال دون نسبة حتى لاتفهم المرأة التى يعبدونها أنهم من الرجعيين الذين يقولون بقول الله ، وقول محمد !! .

ياهذه الببغاوات : تلك هى عدالة الإسلام يُجَلِّيها كتاب الله ، وذلك هو حكم الإسلام وحاكمه . فهل ستظلين على شتم الإسلام وهجوه ؟ ! .

وثَمَّ فريق آخر من الشيوخ أصحاب العزة يحاول تأويل أحكام الشريعة الإسلامية بالاطل ، حتى تتواءم وشهوات الغرب ، وأهواء ملاحدته ، أى يجعل قانون الغرب هو القاعدة ، ويحـاول بعد ذلك الملاءمة بين الشريعة وبينها ، فينزل بشريعة الله إلى حضيض ظلم البشر ، ويزعم هذا الفريق أنه بذلك يذود عن الإسلام كيد الـكائدين له ، ويرفع عنه تهمة أنه لا يمكن الأخذ بأحكامه فى هذا العصر الذى شملت حضارته كل مُقوِّمات الوجود !! ولست أدرى متى كان الفتك بالشىء من أجل عدوه حماية له من خصومه وعدوه ؟ ! . أولى بهؤلاء الناعقين بالإلحاد المجددين فى الوثنية — إن كانوا يريدون حقاً عن الدين دفاعاً — أن يبرزوا للناس — غربيهم وشرقيهم — حقائق هذا الدين كما هى فى الـكتاب والسنة إشراقا وجلالا وسمواً وهداية وعدلا ، دون تأويل لها بما اصطلح عليه البشر من أوضاع ، ودون إلباس حقها بالباطل . أولى بهؤلاء أن يفعلوا ذلك ، وأن يصدعوا بالحق المبين فى قوة ويقين . وهو أن الشريعـة الإسلامية أجل وأسمى من أى قانون شرقى أو غربى ، وأن الفرق بينهما كالفرق بين الحق والباطل ، بل بين الإيمان والـكفر . هذا مايجب أن يعتقده ويصرح به كل مسلم ،

و إلا فليصرح هؤلاء بما يكنون ، وهو أن الطغاة من البشر وملحديهم أحكم وأعدل من أحكم الحاكمين جل وعلا ، فإن مايحاولونه من إخضاع الشريعة لقوانين الغرب ، والحكم عليها بمصطلحاته ، لا يدل على شيء إلا على أن نفوسهم تنطوى على عدم اليقين بالله خلاقاً حكيما هاديا عليما خبيرا ، وعدم الثقة بصلاح الشريعة الإسلامية فى الهداية والإصلاح ، و إرساء قواعد الحياة على أسس من العدل والنظام والمساواة .

(٥ : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون) . (ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) .

فى القرآن والسنة تفصيل مشرق البيان والهداية لما يجب أن يُحْكَم به فى قضايا الدين والحياة ، فلم يبق للحاكم من عذر يبيح له أن يحكم بغير الكتاب والسنة ، وليس فى الآيات مايقيد الحكم بما أنزل الله بقيد ما ، أو يخصصه بقضايا الدين كما يزعم المُتَهَوِّكون ، بل إنها توجب الحكم به فى كل قضية يختصم فيها المسلمون ، أو غير المسلمين الذين يعيشون فى ظل الدولة الإسلامية ، سواء كانت دينية أم دنيوية . ودليلنا على ذلك أن جميع الآيات التى ورد فيها وجوب الحكم بكتاب الله والسنة لايقيد فيها الحكم بقيد سوى مايفيد أنه بالكتاب والسنة . وأقرب شاهد هذه الآيات (ومن لم يحكم بما أنزل الله) ولو كان مقصوداً بها الحكم فى شئون الدين لقيل ـ والله أعلم أحكم ـ « ومن لم يحكم فى الدين بما أنزل الله» ولكن ترك فيها جميعها الفعل « يحكم » مطلقاً ، غير مقيد بقيد سوى أنه (بما أنزل الله) فكيف نقيد بالشهوة ما أطلقه الله ، ونخصص ـ ابتغاء الإلحاد ـ ما جعله الله عاما ؟ ! .

وفى الآيات نذير ووعيد شديد للحاكم يصرفه الهوى عن الحكم بما أنزل الله . فليحذر الحاكم أن يفتنه الشيطان ، أو يضله أولياؤه عن الحكم بكتاب الله

وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإلا فهو « كافر فاسق ظالم » . وُصِفَ بأنه مشرك ؛ إذ الظلم هنا هو الشرك ؛ لقوله تعالى (٣١ : ١٣ إن الشرك لظلم عظيم) ووُصِفَ فوق هذا بصفة إبليس، وهى الفسق لقوله تعالى عن إبليس (١٨ : ٥٠ كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه) والفسق هنا أشد من الكفر ، لأنه المروق من الدين بعد علم . وهذا سر وصف الشيطان به ، إذ كفر بعد علم ، فكان بكفره هذا فاسقا ، ووصف مع هذا بصفة من حادوا الله ورسوله ، وهى الكفر . تلك هى صفات من لا يحكم بما أنزل الله .

على الحاكم دائماً أن يهاب أمر الله : الإمارة عمل كبير ، وعلى الأمير تبعات ثقال شداد لا يستطيع حملها إلا بعون من الله ، وتوكله عليه . ولذا يجب على الأمير أن يكون هيابا لأمر الله ، شديد الخوف من الله ، متواضعاً لا يغره جاه الإمارة ، عادلا رحيما براً برعيته ، مجهداً نفسه فى سبيل خيرهم ، مبيحاً بابه لذوى الفاقة منهم والحاجة ، وغير ذلك مما فرضه الله عليه ، حتى يستحق من الله العون، وأن لا يكله الله فيها إلى نفسه . قال عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن ابن سمرة : « لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت فيها إلى نفسك ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » « الصحيحان . أبو داود . الترمذى . النسائى » وقال : « إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة » « البخارى . النسائى » وقال : « أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقْسِط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى مسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » «مسلم» وقال : « ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه إلا العدل» « أحمد » وقال : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً ، فشق عليهم ، فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً ، فرفق بهم، فارفق به » « مسلم . النسائى » وقال : « ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته ـ إلا حرم الله تعالى عليه الجنة » .

وفى رواية « فلم يحطها بنصحه لم يرح رائحة الجنة » « الصحيحان » .

الوزارة فى الشريعة : أوجب الله على الحاكم أن يكون وزراؤه وزراء صدق يذكرونه دائماً بأمر الله ، ويعينونه على الحكم بما أمر الله سبحانه ، وهكذا يسبق الإسلام بنظامه الحكيم كل نظام ، وبتشريعه الأسمى كل تشريع . قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق . إن نسى ذكّره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء : إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه » أبو داود .

القضاة والولاة : يوجب الله سبحانه على الحاكم أن يكون محسناً فى اختيار الولاة والقضاة ، فلا يختار منهم إلا من كان على بصيرة بأحكام الشريعة الإسلامية ، وعلى نور من الكتاب والسنة ، وبينة منهما ، وكان معروفا بالأمانة فى الدين ، والإخلاص فى العمل ، وتقوى الله (٤ : ١٣٥ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) (٥ : ٨ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا . هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله . إن الله خبير بما تعملون) هذا ما يجب أن يكون عليه كل مؤمن ، وأولى أن يكون عليه قضاة المسلمين وولاتهم وحكامهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « القضاة ثلاثة . واحد فى الجنة ، واثنان فى النار . فأما الذى فى الجنة ، فرجل عرف الحق ، فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم ، فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل ، فهو فى النار » « أبو داود ، الترمذى ، ابن ماجة » ، وقال : « إن الله مع القاضى ما لم يجر ، فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان » «الترمذى . ابن ماجة . الحاكم . ابن حبان»

أما الولاة فإليك ما ينصحهم به الرسول ، ويحذرهم منه « ما من أمير يلى

أمور المسلمين ، ثم لا يجهد لهم ، و ينصح لهم إلا لم يدخل الجنة معهم » « مسلم والطبرانى ، وزاد : كنصحه وجهده لنفسه » وقال: «من ولى أمر الناس ثم أغلق بابه دون المسكين ، والمظلوم ، وذى الحاجة أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته وفقره أفقر ما يكون إليها » « أحمد ، وأبو يعلى »

ذلك بعض ما يقوم عليه نظام الحكم الإسلامى الرشيد العادل فكيف يُفْتَرى أن الإسلام يجب أن لا تكون له صلة بالحكم ؛ إذ لا يصلح نظام حكمه فى القرن العشرين !!؟ إن من يزعم هذا ممن يتزيا بزى العلماء يجمع ـ فوق الإلحاد ـ بين الجهالة والغباء ، ولا يعرف من الإسلام أصلا ولا فرعا . فليتكلم هؤلاء للمرأة ، وليحدثوها عن جمال الأصباغ ، وليدعوا الكلام عن الدين الذى لا يؤمنون بر به ، ولا برسالة رسوله .

الوسيلة السادسة : الرضى بحكم الكتاب والسنة

إذا احتكم المتنازعان إلى الكتاب والسنة وجب عليهما الرضى بما يحكمان به والاستسلام التام له ، فكما أن الاحتكام إليهما واجب لا يتم الإيمان إلا به ، فكذلك الرضى بالحكم من موجبات الإيمان التى لابد منها (٤ : ٦٥ فلا وربك لا يؤمنون ، حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، و يسلموا تسليما) .

إنما يملك أمر الإنسان خالقه ، يملك عليه نفسه ، ومن حوله ، وما حوله مما هو فى حاجة إليه ليقوم به حياته ووجوده ، والله وحده هو الخالق لكل شىء ، وهو الذى يعلم وحده حقيقة الخير ، وحقيقة الشر ، وهو الخبير بظواهر الأشياء و بواطنها ، لا تخفى عليه خافية . وما شرع سبحانه لعباده إلا ماهو الحق والخير والصلاح ، وما يحفظ على الإنسان دينه ونفسه وعقله وماله ونسله . فإذا ما قضى الله بأمر لا يرضاه هوى النفس :فواجب المؤمن أن يلتزم بطاعته ، وليطامن النفس

على الرضى به ، فما هو بالمختار حينئذ فى تنفيذ ما حكم به الله ، أو عدم تنفيذه . كلا ، بل يفرض عليه أن يتوجه بكل ما فيه ، أو يملك من قوى عاملة إلى العمل بما حكم به الله سبحانه مستسلم الخشوع ريّانَ الرضى ، مذعن الإيمان .

(٣٣ : ٣٦ وما كان لمؤمن ، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا : أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبينا) (٢٤ : ٥١ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون) السمع والطاعة حين يدعى إلى الاحتكام ، فأولى أن يسمع ويطيع إذا حكم الله ورسوله .

هذا موقف المؤمن أما غير المؤمنين ، فهم من يقص علينا الله نفاقهم وكفرهم (٢٤ : ٤٧ ـ ٥٠ ويقولون : آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفى قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون) تكاد هذه الآيات تشير إليك إشارة حسية تدلك بها على مكان هذا الفريق اليوم ، إنهم أولئك الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . يزعمون أنهم بالله مؤمنون ، وللسنة متبعون ، وهم بما شرع لهم البشر يدينون ، وبقانون الغرب الملحد يفتنون . هم أولئك الذين لا يلجأون إلى الدين إلا حين يستشعرون خطراً داهما ، أو ثورة مجنونة الباطل يخشون أوارها ، فيستصرخون به ، لا إيمانا بأنه الحق والهدى ، بل لأنه يقيهم شر مايرهبون !! أيها المذعورون الذين يقض الخوف مضاجعهم . إن شريعة الإسلام تكفل لكم السلامة والأمن مما يملأ لياليكم بالخوف والفزع والقلق الرهيب ، وفيها دواء هذا الداء الذى نخشى أن يستفحل خطره ، وأن يدهمنا طاعونه وسرطانه ، فأقيموا الشريعة أصولا وفروعا وليكن ماتدينون به أقباساً من نورها وحقها وهداها . أو بمعنى شامل : كونوا مسلمين

قلبا ونية واعتقادا وقولا وعملا ، وليكن حكمكم باسم الله ، وقانونكم من كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (١٨ : ٥٧ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ، فأعرض عنها ، ونسى ماقدمت يداه) ولتسمعوا أيها المسلمون فى كل وادٍ مايجزى الله به كل من أعرض عن ذكره ، وخالف عن أمره (٢٠ : ١٢٤ ومن أعرض عن ذكرى ، فإن له معيشة ضنكا) (٣٢ : ٢٢ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ، ثم أعرض عنها . إنا من المجرمين منتقمون) (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم) وقد تحقق كل ماتوعد به الله المعرضين عن ذكره ، المخالفين عن أمره ، فإذا المسلمون فى كل ناحية شكاة من المعيشة الضنك . يستصرخون بالأوهام من جور المستعمر وبغيه ، ويسامون منه سوء العذاب . ولن يكون للمسلمين مايأملون من مجد إلا بما كان لهم به أيام كان المسلمون جميعا يعتصمون بالكتاب والسنة حكاما ومحكومين .

خاتمة : طاعة لله وللرسول ، وتقوى القلوب لله وحده ، واتباع صادق للكتاب والسنة ، واحتكام إليهما عند النزاع ، والحكم بما أمر الله ، والرضى به حتى تستقر على الطمأنينة إليه القلوب ، وعلى الإذعان التام له النفوس .

تلك هى وسائل توحيد الله فى الربوبية والإلهية ، أو هى الوسائل التى تجعل من المسلمين — بل العالم الإنسانى كله — أمة واحدة من الإيمان والخير والسلام والمحبة ، فلتتوسل بها الأمم الإسلامية إذا شاءت أن تكون لها العزة والمنعة والقوة والسلطان . إذا شاءت أن تكون أمة واحدة تركز أعلامها على ذرى العالم وقمم الوجود ، ولا تغيب شمس حضارتها عن كل أفق ، أمة تدعو فتستجيب لها السماء ، وتستنصر بالله ، فيسخر لها كل قوى النصر ، وترجو فيفجر لها الله الصخر بالينابيع ، وتسير فى الصحارى على هداه ، فيحيلها الرحمن لهم مجالى من جنات الربيع . . وفى رحاب هذه الأمة المسلمة يحيا الوجود كله فى صفاء مشرق ، وإخاء

سماوى كريم ، وتآلف روحى نبيل ، يحل به الإيثار محل الأثرة ، والعدل مكان الظلم ، والسلام مكان العدوان ، وتتجاوب فيه المشاعر والقلوب والأرواح بالرحمة والعطف والمحبة .

« فتنة القبور »

من يوم أن لوى الشيطان عنان المسلمين إلى القبور : باتوا ونفوسهم قبور، وعزهم مقهور ، ومجدهم ـ ويا أسفاه ـ مقبور !! من يوم أن عاشوا للموت والموتى : نفضت أيديها منهم الحياة ، ولست أدرى لم يعنى كبار الشيوخ كل هذه العناية بقبور الهامدين ، يُحِلُّونها بالروح ، ويختصونها بالعبادة ، وينتفضون أسدا غضابا إذا طاف بالأضرحة طائف لم تقبل شفتاه منها الأستار ، ويدبرون كالنعام حين يرون حرمات الله تُنْتَهَك صَوبَ عيونهم وأسماعهم ؟! تُرى هل اطمأنت القلوب إلى توحيد الله ، وأشرقت النفوس بنور الإيمان ، وأقيمت الصلاة باسم الله ، وأوتيت الزكاة ، وصيم رمضان ، وحج بيت الله ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وهل استقام الأمر ، وخلصت لله النوايا ، وتوطد السلطان لكلمة الله ، واسترحنا من جِلاَد الغاصب المستعمر . أقول : أتم ذلك أو بعضه ، فلم يبق إلا دعوة الناس إلى تمجيد القبور ، وعبادة المقبور ؟ ياهؤلاء : ماذا بيد الرمام يستعبد الدودُ منها الجماجم ؟ .

(ما أذن الله فيه من القبور)

قال ابن فارس فى معجمه فى مادة « قَبَرَ » : « القاف والباء والراء أصل صحيح يدل على غموض فى شىء وتطامن . من ذلك القبر قبر الميت » وفى اللغة يقال : أرض مطمئنة أى منخفضة، ودار غامضة إذا لم تكن شارعة ولا بارزة . هذا يحدد لك مفهوم كلمة « قبر » فى اللغة . وهو ما كان من المواضع منخفضا غير شارع ولا بارز ، و يستعمل لدفن الموتى، و بلغة العرب نزل القرآن فشرفها، و بلغة العرب فصل

الرسول صلى الله عليه وسلم ماأجمل القرآن . وإليك من أحاديث الرسول مايحدد بجلاء مفهوم القبر الذى أذن فيه الله سبحانه .

عن أبى الهياج الأسدى قال : « بعثنى على . قال : أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ألا أدع قبرا مُشْرِفا إلا سويته ، ولا تمثالا إلا طمسته » مسلم ، أبو داود ، الترمذى ، النسائى .

وعن أبى على الهمدانى ـ من التابعين من أهل مصر ـ قال كنا مع فَضَالة ابن عبيد برودس بأرض الروم ، فتوفى صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبره ، فسوى . ثم قال : « سمعت رسول الله يأمر بتسويتها » . مسلم ، أبو داود ، النسائى .

وعن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: سمعت رسول الله « نهى أن يُقْعَد على القبر ، وأن يُقَصَّ ويبنى عليه » « مسلم ، أبو داود ، الترمذى . النسائى ، ابن ماجة » زاد الترمذى « وأن يكتب عليها » وقال : حسن صحيح وفى حديث النسائى « أو يزاد عليه » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله زوارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » أبو داود . الترمذى النسائى ، ابن ماجة .. من هذه الأحاديث الصحيحة نفهم جيداً صفات القبر الذى أذن الله فيه . ومنها نستنبط هذه الأحكام الشرعية ، أولا : إيجاب تسوية القبر بالأرض . ثانيا : تحريم تبييضه بالجير أو الجبس « وهو معنى يقصص » أو دهنه بأى طلاء ، ثالثا : تحريم الكتابة عليه ، أو ما شاكل ذلك من رسم أو تصوير وغيره ، رابعا : تحريم البناء عليه سواء كان البناء قبة أم مسجداً ، خامساً : تحريم أية زيادة فى بنائه ، سادسا : تحريم إضاءته بالسرج أو الشموع أو المصابيح الكهربية وغيرها . فكل قبر يقام على غير مابين الرسول ، فهو بدعة شيطان ، ينبغى على كل مؤمن مجانبته إذا لم يستطع تسويته ، أو هدم مابنى عليه من قباب ومساجد ، أو إزالة ماعليه من طلاء أو كتابة أو أستار ، وواضح جد الوضوح ، أنه لايجوز مطلقا زيارة القبور التى تقام كما يرضى الشيطان محادة لشريعة الرحمن ،

ومن الكفر معارضة هذه الأحاديث بآراء الخرافة ، وأساطير الوثنية من الأحبار والكهان .

مساجد القبور وقبابها : على ضوء هذا الهدى النبوى أسائل كبار الأحبار من الطائفين حول القبور . أين من هذا الحق تلك القباب المشيدة ، العالية الذرى حتى تصدع السحب ، وتلك الأضرحة تكسوها الشهوات بالمرمر ، والسندس وتسهر ليالى العاكفين فيها على الوثنية ، بين سحائب البخور ، وفيوض العطور ووهج النور !!

يأمر الرسول بتسوية كل قبر مشرف ، فيعاند كهان الوثنية وأحبارها فيشيدون القباب كالقصور ، والمساجدَ يُعْبَدَ فيها الموتى !! يحرم الرسول تجصيص القبر ، فَيَفْجُر المبتدعون إذ يُزَبْرِجون الأضرحة بكل فاتن من الطلاء ، وساحر من الدهان !! يحرم الرسول الكتابة عليها ، فيأبى أولئك إلا أن يكتبوا عليها آى القرآن ، وهذيان البوصيرى ، وزندقات ابن الفارض !! فيغلون بهذا فى السخرية من دين الله ، إذ يجعلون ماحرمه الله من الكتابة على القبور آياً من كتاب الله !! يحرم الرسول أن تضاء عليها السرج ، فيسخرون لإضاءتها ثريات كهربية تضىء مدنا رحيبة الآفاق !!

استعمارى يسجل على المسلمين حربهم لدينهم : وقد سجل على المسلمين هذه الوثنية المستشرق الإنجليزى الاستعمارى اللئيم « ادواردلين » أحد دراويش الصوفية فى كتابه « المصريون المحدثون » ومن وقاحة الدناءة فى سخرية الرجل من المسلمين أنه يقول فى أكثر مايرويه « وسألت شيخى عن كذا فأخبرنى بكذا » . يقول هذا الإنجليزى الدنىء الذى وفد إلى مصر ، وأخذ « العهد » على شيخ طريقة ص ١٦٧ — ١٧١ « ويحمل المسلمون — وبخاصة المصريون — على اختلاف مذاهبهم — ما خلا الوهابيين — للأولياء المتوفين احتراما وتقديسا . لاسند لهما فى القرآن أو الأحاديث أكثر مما يحملون للأحياء منهم ،

و يشيدون فوق أغلب قبور الأولياء المشهورين مساجد كبيرة جميلة ، و ينصبون فوق قبور من هم أقل شهرة منهم بناء صغيراً مبيضا بالكلس ، ومتوجا بقبة ، و يقام فوق القبر مباشرة نصب مستطيل من الحجر ، أو القراميد يسمى « تركيبة » أو من الخشب و يسمى تابوتا ، و يغطى النصب عادة بالحرير ، أو الكتان المطرز بالآيات القرآنية ، و يحيط به قضبان ، أوستر من الخشب يسمى مقصورة ، وأكثر أضرحة الأولياء فى مصر مدافن ، إلا أن أكثرها يحتوى على آثار قليلة لهم ، و بعضها ليست إلا قبوراً فارغة أقيمت تذكارا للميت ـ إلى أن يقول ـ وقد جرت العادة أن يقوم المسلمون ـ كما كان يفعل اليهود ـ بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها، وتغطية التركيبة ، أو التابوت أحيانا بغطاء جديد ، وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعل اليهود »

و بمثل هذا الكيد الاستعمارى للإسلام اغتصب المستعمرون دول الإسلام !! و بما يفعل المسلمون : يعطون الحجة عليهم لعدوهم ، فيستبيحهم لجوره و بغيه ! !

جود على الأصنام و بخل على الأيتام: أترى هذه القبور المشيدة كالقصور المتلألئة بالنور ، الفياضة بالعطور تثير فى النفس مشاعر العظة والعبرة ؟ أم تراها تثير فى نفس الفقير الحسرة الأسيفة الكئيبة على دنياه ؛ إذ يرى نفسه ـ وهو الحى الساغب اللاغب ـ لا ينال من دنياه بعض ما يملك هذا الهامد المقبور من كنوز وقصور ؟ ! . إنه يكد لياليه ، و يكدح أيامه ، و يتوسل بذل الفقر إلى القلوب فلا يستشعر ندى عطف أو حنان، وهنا يرى الجموع الحاشدة تلقى بأحمال الفضة والذهب من دنياها بين يدى هذا الميت البالى ، و يسوقون إلى أعتابه ـ فى ذل الضراعة ـ سِمَانَ الْبُدْنِ والأنعام . إن هذا الفقير يتلهف أحيانا على تذوق مضغة من لحم تشعره مَرَّةً أنه يأكل مثل ما يأكل الناس ، فلا يجد بين شدقيه إلا لسانه هو

يمضغه ويلوكه ، وهنا يرى الذبائح مُكَدَّسة على أعتاب هذا الجسد الذى بدده البلى فى جوفه السحيق ! !

أتذكِّر هذه القباب بالآخرة وفيها تتبرج الدنيا بترفها الفاتن المفتون ؟ أم تُراها تذكى لظى الحقد فى قلوب اليتامى ، وتؤجِّج الضِّغْن فى نفوس الأيامى على أولئك الذين يحشدون للأصنام كل غال وثمين ، فى حين يرجمون الأحياء وهم يستغيثون بالدموع فى سبيل لقمة يعافها الكلب أضواه الهزال ؟ ! لقمة تنعش بدفء الحياة هذه الأشباح الهزيلة المقرورة التى يعصف بها زمهرير الموت وهم أحياء ؟! هنالك ياعبيد القبور تحت الأطلال البالية ـ حيث ينعب البوم ، وتعصف السافيات ، ويخمد الشعور بالحياة ، وتصطرخ أشباح الردى بالفزع الرهيب ، وتقبع دياجير الليل فوق تلك الأطلال ـ هنالك موتى الأحياء يترعون الذل ويقتاتون بالفواجع ، ويسمرون بالجراح ، ويحلمون بالمآسى الدامية ، وهنا تحت وهج النور ، وشعشعة البخور ، وتبرج الدنيا بالفتون ، تعيش هذه الأجساد الهامدة فى القبور ، حيث تتزاحم الدنيا بترفها وشهواتها ، وثرائها الطويل العريض على أعتاب أضرحتها ! فيا أسفى على يتيم تُوَصْوِص فيه لمحات الحياة ، ويستصرخ القلوب ، فتَصْرِف عنه رحمتها ؟ ، ويا عجباً لجسد بال تضرع بالعبادة إليه هذه القلوب ! ! أفواهُ أحياء جَفَّت من السَّغَبِ ، وَتَهَدَّلَتْ ألسنتها من الغليل ، وثَمَّ أفواه أَطْبَقَها الموتُ على الصريخ من رهبته ، وجماجمُ سلط عليها البِلى دوده الظالم الْمَنْهُوم ، ولكن يأبى الناس إلا حشو تلك الأفواه ، وهذه الجماجم بالفضة والذهب ، فى حين يرجمون نفوس اليتامى الأحياء باللعنة والغضب ! ! .

فأين هذا من دين الله ياعبيد القبور ، وأحلاف الموت والعدم ؟ !

هدى السنة فى زيارة القبور

بينا لك من هدى السنة ما يجب أن تكون عليه القبور ، وحكم الله فى هذه القباب المشيدة ، والأضرحة المشرفة تعلوها العمائم الخضراء ، ويدثرها الخز

والديباج فلا تثير فى النفس العبرة ، ولا تذكرها الموت ولا الآخرة !! وقد تبينت من الحق الإلهى أنها يجب أن تسوى بالأرض ، فأولى أن تتبين أنه يحرم زيارتها وهنا نذكرك بهدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى زيارة القبور الشرعية التى أذن فيها الله سبحانه .

حكمة زيارة القبور : قال صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكرة » مسلم . أبو داود . النسائى . . . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : زار النبى « صلى الله عليه وسلم » قبر أمه فبكى ، وأبكى من حوله . فقال : استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يأذن ، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت » « مسلم » وقال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فقد أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه ، فزوروها ، فإنها تذكر الآخرة » « الترمذى » وقال : حسن صحيح .

لهذه العبرة ، ولذلك التذكر أذن الله فى زيارة القبور. فما أذن الله فيها لنستلم أحجارها ، أو نتمسح بأستارها ، أو نطيف بها عند الملمات نسألها عونها ، أو لنشترى آيات الله من « الفقهاء » بثمن بخس من أجلها ، أو لنزينها بالورود والرياحين ، وغير ذلك مما يفعل الدهماء ، ومنهم ـ ويا أسفى ـ كبار الأحبار. هذا فى القبور الشرعية . أما الأضرحة المشرفات ذات القباب والمساجد فلا تزار مطلقاً ، وكيف يزار مكان أقيم باسم الشيطان ، وزخرفته بوَشْيها الشهوات ، وأمر الله أن يهدم ؟!

آداب الزيارة : قال صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فمن أراد أن يزور ، فليزر ، ولا تقولوا هُجْرا » « ابن حنبل والنسائى » والهجر هو الفاحش من القول ، ومايفعله النساء ، ويقترفنه من ندب الجاهلية ، أقل فحشاً مما يتلطخ به من الشرك عباد القبور . من نداء الميت ودعائه ، والتضرع إليه ، وسؤاله أمداد البركات والنفحات ، والله يقول لأكرم أنبيائه : (٢٧ : ٨٠ إنك

لاتُسْمع الموتى) (٣٥ : ٢٢ وما أنت بِمُسْمِعٍ مَنْ فى القبور[1]) . ونفى عنه صلى الله عليه وسلم أنه يملك ضَرًّا أو رَشَدا ، أو أنه يجير أحداً ، أو يجيره من الله أحد (٧٢ : ٢١ ، ٢٢ قل : إنى لاأملك لكم ضَرًّا ولا رشدا ، قل : إنى لن يجيرنى من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحدا » فإذا كان الحق سبحانه قد نفى عن صفوة خلقه ، وأكرم رسله ، وخاتم أنبيائه أنه يُسْمع الموتى، ونفى عنه — وهو حى قائم بدعوة الله — أنه يملك ضراً أو نفعا ، أو إضلالا ، أو رشداً ، أو يستطيع إجارة أحد من قدر الله وعذابه . إذا كان الحق قد نفى ذلك كله عن الرسول صلى الله عليه وسلم . فكيف بداعى الميت يزعم أنه يسمع منه شكواه ، وضراعته ودعاه ؟ ويطلب منه الإجارة والمدد ؟ ويصرخ من أعماق كفره « أجرنى أنجدنى أغثنى » ؟! أترى أدنأ من هذا فحشا فى القول ، وشركا فى الاعتقاد ؟ .

أما هدى الدعاء للموتى ، فقد علمه جبريل — بوحى من الله — لعبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : كما جاء فى الأحاديث الصحيحة . قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلتى منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع ، فيقول : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ماتوعدون غداً مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله للاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية » رواهما « مسلم » . دعاء

(١) يُلبس عبد الموتى على الناس فيزعمون أن هاتين الآيتين من باب المجاز ، لأن المقصود بالموتى ، ومن فى القبور : هم الكفار والمشركون! وأقول : إن هذا المجاز أبين من الحقيقة بياناً وأجلى برهانا. فمعناه: أن الله شبه عدم اهتداء الكفار والمشركين بالرسول بعدم إسماعه الموتى ، ومن فى القبور ، فكأن المشبه به حقيقة أصلية ، معترف بها ، وألحق بها المشبه ، أو ماجعله مجازا ، أى شبه غير الظاهر المعروف وهو عدم إسماعه الكفار بما هو ظاهر معروف، وهو أنه لا يسمع الموتى .

أوحاه الله إلى نبيه، فعلم الرسول أصحابه ماعلمه الله إياه. فصار سنة يهتدى بها كل مؤمن يحب أن تكون السنة منار هداه. فما سمعنا أنه صلى الله عليه وسلم قصد قبرا للصلاة أو الدعاء عنده. بل كان يقصد القبور استعباراً، وابتغاء الاستغفار لمن فيها، وكان أكثر مايزورها فى آخر الليل، حيث الوجود يلفه الظلام والسكون العميق، حيث لايرى ولايسمع إلا الله رب العالمين.

بناء المساجد على القبور وحكم العبادة فيها: يفسر من يفتنون الناس بفتنة الشيطان عن الحق نهى الرسول عن اتخاذ القبور مساجد: بأنه نهى عن الصلاة داخل قباب القبور، أو استقبال هذه فى الصلاة، ويرون بهذا التلبيس أن النهى لاينصب على الصلاة فى المساجد المقامة على القبور. بل هى كالصلاة فى كل المساجد الأخرى، مادام القبر ليس فى القبلة، ومادام المصلى لايقيم صلاته فى القباب !! ثم يقولون: فالصلاة فى مساجد القبور ليست من باب اتخاذ القبور مساجد !! وهم يلجأون إلى هذا المراء الوثنى كلما صدعتهم الحجة، وانأدّ باطلهم من صدمة الحق، يلجأون إليه رياء ونفاقا فينخدع بهذا التلبيس من ليسوا على بصيرة من هدى السنة. أماهم — فى الواقع — فيرون الصلاة أقوم ماتكون إذا ماأقيمت داخل القباب، وأروح ماينتشى به المصلى منهم إذا كان القبر قبلته، ولمست جبهته فى السجود ستره.

وإليك من السنة مايبين لك بالحق أن بناء المساجد على القبور شرك، وكذلك الصلاة فيها. سواء كانت القبور فى القبلة أم لم تكن فيها، وأنها من باب اتخاذ القبور مساجد. فمعنى اتخاذ القبر مسجداً هو قصده للصلاة عنده، أو فى بناء أقيم عليه، أو من أجله. سواء جعلت القبر خلفك أم جعلته قبلتك، فالنية روح العمل، وقد حبط عمل المصلى فى هذه المساجد بنيته التى يبتغى بها وجه القبر، وبركات من فيه، حتى وإن كانت نية المصلى — إذا فرضنا صدق الكذب — لله خالصة، فصلاته حابطة؛ لأنه عصى الله ورسوله بالصلاة فى مكان حرم الله

الصلاة فيه ، ولأنه ضاهى بعمله عمل المشرك ، ولأنه يفتن الآخرين بعمله هذا .

عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : سمعت رسول الله « نهى أن يُقْعَد على القبر وأن يقصص ، و يبنى عليه » مسلم . أبو داود . الترمذى . النسائى . ابن ماجة .. وهل مسجد الضريح إلا بناء على القبر ؟ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » أبو داود . الترمذى . النسائى . ابن ماجة . ابن حبان .. والتعبير بـ « عليها » التى تدل على الاستعلاء نص قاطع الدلالة على لعن من يقيم على القبر مسجدا ، ومن يقيم الصلاة فى هذا المسجد ، و إلا كان يكون التعبير «والمتخذينها» فيتناول من يقصد بفحسب القبر ،لامسجده، للصلاة عنده ولكن جاء التعبير بـ « عليها » حقا يلعن مراء الوثنية وجدال الشرك . وتشمل لعنته بانى المسجد فوق القبر ، والمصلى فى ذلك المسجد ، والمتخذ القبر نفسه مسجدا . وعن عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة، وأم سلمة رضى الله عنهما ذكرتا كنيسة رأتاها بالحبشة فيها تصاوير . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح ، فمات ، بنو على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » الصحيحان . أحمد . النسائى . يدل الحديث على أن عبادة القبور عريقة فى القدم ، وأن الباعث عليها هو الغلو الوثنى فى حب الصالحين ، وهذا بعينه هو ماحدث فى الأمة الإسلامية ، و يحدث ، وما زال يحدث ، فما رأتاه أما المؤمنين نراه اليوم . رجل صالح يموت أو طاغوت يهلك فيوحى الشيطان إلى محبيه الكذبة أن يبنوا على قبره مسجدا ، تكريما له وتمجيدا ، و يزين لهم الصلاة فى مسجده ؛ لينالوا مع الصلاة بركته ، فيرون الصلاة فى مسجد الصالح ، أو الطاغوت أفضل من الصلاة فى مسجد الله ، ولقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم من فعلوا ذلك، بأنهم شرار الخلق عند الله

يوم القيـامة ، وما الشرار يوم ذلك إلا الـكفرة الفجرة المشركون !! يصف الرسول من يبنئ المسجد فوق قبر بأنه كافر أو مشرك ، و يصفه عبيد القبور بأنه لأهل الله ، وآل البيت محب مستطار الغرام رَبَّانِيٌّ الروحانية !! .

وما أشد العظة فى هذه العبرة الآسية . « لما مات الحسن بن الحسن بن على ضربت أمه على قبره فسطاطا « خيمة » لسنة ثم رفع ، فسمعوا صائحا يقول : ألاهل وجدوا مافقدوا ؟ فأجابه آخر : بل يئسوا، فانقلبوا: ورأى ابن عمر فسطاطا على قبر عبد الرحمن ابن أبى بكر فأمر الغلام بنزعه وقال « إنمـا يظله عمله » رواها البخارى: هذا شأن بناء المساجد على القبور و بناتها . فـكيف بالعا كفين المصلين الذا كرين فى هذه القبور ، وتلك المساجد ينشدون بالعبادة فيها الوسيلة إلى الموتى ؟ ! وماذا بيد الرمام يستعبد الدود منها الجماجم ؟ !

اتخاذ القبور مساجد : بناء المساجد على القبور أعم من اتخـاذها مساجد ، وإن كان ثم تلازم وثيق بينهما ، ينفرد الاتخاذ فى حال التوجه إلى قبر ـ ليس عليه مسجد ـ للصلاة عنده ، أما اليوم فقل أن تجد قبرا معبودا لا يقيم عليه عُبَّاده مسجدا ليجمعوا بين الشركين: البناء والاتخاذ ، واتخاذ القبور شرك بنص القرآن والسنة .

أدله القرآن : (٧ : ٢٩ قل : أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وادعوه مخلصين له الدين) فسرها ابن كثير بقوله: « أى أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها ، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به من الشرائع ، و بالإخلاص له فى عبادته ، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : أن يكون صوابا موافقا للشريعة ، وأن يكون خالصا من الشرك » والذين يقصدون القبور ، أو مساجدها للصلاة أو الدعاء عندها وفيها ـ لا يقيمون لله الوجوه ، ولا يخلصون له الدين بما يقترفونه من كبائر المنكر ، وهى : قصد بركة الميت بالصلاة عند قبره، أو فى مسجده . ثانيا : أداء العبادة فى مكان حرم الله أداءها فيه، ولعن مرتاده و بانيه ثالثا: دعاء الميت والاستغاثة به قبل أداء الصلاة و بعدها،

وكل ذلك ليس صوابا ، ولا موافقا للشريعة الإسلامية ، فما لله من عبادتهم نصيب ، ولا دينهم من ضلالة الشرك خالص المظهر والنية . وبهذا تدمغهم الآية بالشرك ؛ إذ لم يقيموا لله الوجوه عند كل مسجد ، ولم يدعوه سبحانه مخلصين لله الدين .

(٧٢ : ١٨ وأن المساجد لله ، فلا تدعو مع الله أحدا) ومساجد القبور ليست لله ، بل لمن فيها من الموتى ، فكل عبادة فيها فهى ليست لله . وأولى أن توصف بهذا كل عبادة عند قبر اتخذ مسجدا .

فدلت الآية على شرك قصاد مساجد القبور ، أو القبور نفسها للصلاة فيها ، أو دعاء الله عندها . سواء استقبل القبرُ فى الصلاة أم لم يستقبل ، ما دامت نية المصلى وغايته ليستا لله خالصتين .

مسجد أهل الكهف : يحاول بعض الوثنيين الاستشهاد على جواز بناء المساجد على القبور ، وجواز الصلاة فيها بمسجد أهل الكهف ! ! غير أن هذه المحاولة اليائسة البائسة حلم من أحلام الكفر الجُحُود بالخلود فى الجنة ، ووهم من خيالات الباطل يتراءى فى وشى من زينة الحق . والدليل على بطلان زعمهم تلك الأحاديث التى ذكرتك بها ، والتى يؤمن هؤلاء المفترون بصحتها ، والتى تدل على أن بناة المساجد على القبور من شرار الخلق عند الله يوم القيامة ، وعلى لعن الله ،وقتاله لمن يتخذون القبور مساجد ..فالذين غلبوا على الأمر ، واتخذوا مسجدا على أهل الكهف ملعونون ، ومن شرار الخلق عند الله بنص هذه الأحاديث . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد فى الآيات القرآنية التى قص الله فيها قصة أهل الكهف قرائن قوية تدل على أن اتخاذ مسجد عليهم كان عملا فى غير طاعة الله وتقواه . وإليك ما تقصه الآيات عن النزاع الذى شجر بين من أعثرهم الله على أهل الكهف «١٨ : ٢١ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنيانا . ربهم أعلم بهم . قال الذين غلبوا على أمرهم : لنتخذن عليهم مسجدا »

فالمتنازعان فريقان . فريق فوض أمر هؤلاء الفتية إلى الله ، إذ قالوا : « ربهم أعلم بهم » وهذا التفويض من أصدق الأدلة على صدق الإيمان ، حيث لم يفتنهم حال أولئك الفتية ولم يغرهم بالعدوان على علم الله ، ولم يلههم عن الإيمان المطلق بأنه سبحانه يعلم وحده الغيب . وهـذه صفات تشرق من الإيمان الصادق . ألم يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « ٤٦ : ٩ قل : ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يُفْعَل بى ، ولا بكم » ؟ ومن تلك الصفات نؤمن أن هذا الفريق كان مسلما خالص الدين لرب العالمين . أضف إلى ذلك دليل هدى من اقتراحهم . وهو إقامة بناء يسد باب الكهف على الفتية ؛ إذ قالوا : « ابنوا عليهم بنيانا » . فلم يقترحوا بناء قبة ، أو مسجد ، ولا اتخاذ الكهف مسجدا يصلون عنده . وهذا هو الهدى والحق من دين الإسلام الذى هو دين الرسل جميعا

أما الفريق الثانى ، فقد غلبوا على الأمر ـ أمر الفريق الأول ، أو أمر الفتية ـ فصمموا على اتخاذ مسجد عليهم ، ونفذوا ما اعتزموه ، فكانوا بهذا على تضاد مع الفريق المؤمن الصادق لسببين : قطعهم برأى فى حال الفتية . وهذا عدوان على علم الله ؛ إذ لم يفوضوا أمر الفتية إلى ربهم كالفريق الأول .

والسبب الثانى : اعتزامهم اتخاذ مسجد على أهل الكهف ، وهـذا غير ما اقترحه الفريق المؤمن الصادق ، فمن ذا الذى ينازع المؤمنين قولهم وعملهم واعتقادهم ؟ إنهم غير المؤمنين . وهذا يثبت أن الفريق الثانى كان غير مؤمن ؛ إذ نازع الفريق المؤمن قوله وعمله واعتقاده ، فكيف نستدل بعمل هؤلاء على جواز بناء المساجد على القبور . وجواز الصلاة فى مساجد القبور ؟! وأنت لو تأملت اقتراح الفريق الأول لناسمتك منه روح مؤمنة طيبة خاشعة إذ قالوا : « ابنوا عليهم بنيانا » معللين اقتراحهم هـذا بقولهم : « ربهم أعلم بهم » أما اقتراح الفريق الثانى فتشعر منه بروح العناد والمغالبة ، والتصميم القاطع على التنفيذ ، وفراغ النفس من خشية الله . ومن الإيمان بأنه عالم الغيب ، إذ قالوا : « لنتخذن

عليهم مسجدا » هكذا « باللام والنون الثقيلة » المؤكدتين للفعل توكيدا بالغا . فأين الدليل الموهوم من الآية على جواز بناء المساجد على القبور ، وأنت ترى الهدى من الآية مشرقا يدلك على غير ما يفترون ؟ !

الأدلة من السنة : قال عليه الصلاة والسلام : « قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[١] » وعن جندب بن عبد الله البجلى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول : « إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ، فإن الله تعالى قد اتخذنى خليلا ، كما اتخذ ابراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » « مسلم » . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى لم يقم منه : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد : قالت : ولولا ذلك أُبرِزَ[٢] قبره غير أنه خُشِىَ أن يُتَّخَذَ مسجدا » وفى رواية قالت : « ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنى أخشى أن يتخذ مسجدا[٣] » وعنها وعن ابن عباس رضى الله عنهم : « لما نُزِلَ[٤] برسول الله صلى الله عليه وسلم : طفق[٥] يطرح خميصة[٦] له على وجهه ، فإذا اغتَمَّ[٧] كشفها عن وجهه فقال ـ وهو كذلك ـ : « لعنة الله على اليهود

(١) وفى رواية « لعن الله اليهود والنصارى ـ الحديث » الصحيحان وأبوداود .

(٢) أى لكشف قبر النبى ، ولم يتخذ عليه حائل ، والمراد : الدفن خارج بيته « قاله الحافظ بن حجر فى الفتح » . (٣) البخارى ومسلم .

(٤) أى نزل به المرض واشتد عليه . (٥) جعل يفعل ذلك .

(٦) ملاءة من صوف أوخز سميت لرقتها ولينها وصغر حجمها إذا طويت . « الفائق للزمخشرى » .

(٧) إذا احتبس نفسه عن الخروج « النهاية لابن الأثير » .

والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . يحذر ماصنعوا [١] » وقال صلى الله عليه وسلم : « من شرار الناس من تدركهم الساعة ، وهم أحياء ، ومن يتخذون القبور مساجد[٢] » وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[٣] » وقال : « أدخلوا على أصحابى ـ فدخلوا ـ فكشف القناع ، ثم قال : لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[٤] »

واتخاذ القبور مساجد معناه قصدها للصلاة عندها ، أو تأدية أية شعيرة من شعائر الدين : كالدعاء ، أو الذكر ، أو تلاوة القرآن ، أو غير ذلك ، أو بناء مسجد عليها للصلاة فيه. سواء كان القبر فى القبلة أم لم يكن ، فى قبة خاصة خلف المسجد أم أمامه ، أم عن يمينه ، أم عن شماله ، فكون القبر ليس فى القبلة لا ينفى عن المصلى هناك أنه اتخذ القبر مسجدا ؛ إذ الباعث الذى دفعه إلى الصلاة ثمَّ هو مافى قلبه من هوى للميت ، ورجاء فى بركاته . وقد أخبر الرسول الصادق الأمين : أن كل من يتخذ القبر مسجدا: فالله لاعنه وقاتله ، وهو كاليهود والنصارى ، ومن شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

وقد صُرِّح فى هذه الأحاديث الصحيحة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم حذر من اتخاذ القبور مساجد ، وهو يعانى غواشى الموت ، وقد جاء تحذيره وفيه أشد معانى الوعيد!! وهذا يظهر لك شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على أن ينصح أمته ، ويبين لك أية رأفة ورحمة ساميتين كان يفيض بهما قلب هذا النبى الكريم لهذه الأمة المحمدية ؛ إذ يَذْكُرها ـ فينصحها ـ وهو فى حالٍ ينسى فيها كل إنسان أحب الناس إلى نفسه ، ويشغله ما هو فيه عن كل شىء فى الوجود .

---

(١) البخارى ومسلم والنسائى . (٢) أحمد . ابن ماجة . الطبرانى فى الكبير .
(٣) مالك فى الموطأ . (٤) أحمد والطبرانى فى الكبير .

ولعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يستشعر دنو الأجل ، وقرب لحوقه بالرفيق الأعلى . فحذر ونصح ـ رءوفا رحيما بالمؤمنين ـ ليكون التحذير والنصح أروع بلاغا، وأشد قوة فى التأثير على القلوب ، والأخذ بمشاعر النفوس ؛ لأنها نصيحة رسول أمين حبيب يودع بالنصح صِحَاباً يفتدونه بالمهج الغوالى لو كان ينفع الفداء ، حذر ونصح حتى لا يشركوا بقبره ، ولا بقبر من دونه . فما فوقه من خلق الله فى الدنيا أحد . حتى لا يفتنهم الشيطان فى محبتهم للرسول ، فيدفعهم الغلو الوثنى فى الحب إلى اتخاذ قبره وثنا وهو القائل : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد » .

ذلك الوعيد ، وذلك النصح ، فى هذه الحال الفاصلة بين الحياة والموت . يبديان لك أية جريمة ملعونة تنطوى على أخس أنواع الشرك قد اقترفها أولئك الذين جددوا هيا كل الوثنية ، وأصنام الجاهلية وأعيادها وعباداتها ، فبنوا تلك المساجد على القبور ، يعبدون فيها الموتى بالصلاة والدعاء والذكر وتلاوة القرآن ، ونصبوا أنفسهم فى الدنيا ـ لا للجهاد فى سبيل الله ، أو الذياد عن دينه ولا عن الحق ببهته الباطل ـ بل عن تقبيل وجنات القبور ، وأعتاب القبور ، ونذور القبور ، والتوسل برمام قد يكون منها بعض مافوق الأرض من تراب ، ومايزكم الأنوف من هباء يذودون عن هذا ـ مستلئمين فى الذياد ـ فإنه عندهم أعز وأكرم من ذلك كله . حتى لتراهم يسمعون فواحش الكفر يُشتَم بها الله ، فلا تثير فيهم إلا سجوداً خاشعاً للشاتم الأثيم . أليسوا يسمّون ابن عربى « الشيخ الأكبر ، والكبريت الأحمر » ويرونه سيد العارفين بالله ، وهو الآثم الذى يتبرأ من بعض كفره وزندقته هذا القول الذى تقدم ذكره « ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص ، وبصفات الذم ! » ومع ذلك الكفر الأثيم يسبح الصوفية بحمد هذا الزنديق ويقدسون !

مساجد الله ومساجد الطاغوت : تعال نشهد مساجد الله التى أقيمت لله سبحانه وحده ، والتى لم يدنس قدسيتها شرك بقبر ، سنجدها خربة خاوية إلا من

بوم ينعب فى وحشتها الساجية ، وغربان تَسْنَح على أطلالها البالية ، وقد تداعت جدرها وسقفها بمناسج العناكب السوداء ، وعلى أرضها ركام من روث وأقذار ، أو حصير بال ـ إذا سعدت برعاية ـ أنف الذباب ما عليه . فلا ضراعات مؤمن تسعد فجرها الحزين ، ولا تراتيل أواه تشجى محاريبها الصامتة ، ولا تهجد أواب يوقظ لياليها النائمة على الوحدة والوحشة (٢ : ١١٤ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذْكَرَ فيها اسمُه وسعى فى خرابها ؟) لا أحد ، وإنهم لعبيد القبور ! ! وتعال نسر فى الليل الحالك المطير إلى مسجد أقيم للطاغوت . وستسمع ـ من وراء ظلمات الليل ، وآماده السحيقة ـ دوى أصوات العاكفين فى قباب القبور ناعبة بالأوراد ، وستبصر فوجا بعد فوج يَدَّافع فوق الأوحال ـ بين زمجرة الرعود القاصفة ، وزئير الرياح العاصفة ـ إلى العتبات البيض من القبر الجاثم على صدر ذلك المسجد ، وستعشى عينيك أضواء مصابيحه المتوهجة ، التى تُحيل الدجى شعلا تتلهّب ، وستسمع ـ مذعور الروح ـ من ذرى مآذنه العاليات ابتهالات الشرك إلى الأصنام ، ولو أنك استغرقت فى الإصغاء لما سمعت اسم الله يُنادَى ، ولا رضاه يُرْجَى ، ولا رحمته تُسْأَل ، فالمؤذنون فى شغل عن ذلك بما يتضرعون به إلى الموتى !! وإن ذُكِر اسمُ الله فعلى أنه وسيلة إلى عبده الميت (٩ : ١٧ ، ١٨ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم ، وفى النار هم خالدون ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) ، ومن عجب الوثنية الجديدة أن أربابها قد يتلون هذه الآيات ، وهم يقيمون الصلاة بين يدى القبور ! !

ومساجد الأضرحة درجات عند وزارة الأوقاف . تعلو درجتها بعلو صيت صاحب الضريح فى قلوب عبّاد قبره ، كمسجد قبر « البدوى » فهو أعظم مساجد

الطواغيت شأنا ، وأرفعها درجة فَيُخْتَار له أكابرُ الأحبار شيوخا وأئمة وخطباء ومؤذنين وقراء ، وهكذا تعظم المساجد فى قلوب الناس تبعا لما يعظم به قبره فى قلوبهم ! ! وترعى الوزارة مساجد القبور ، وتعنى بها أبر عناية . فسقفُها مُوَشَّاةٌ بالفن الوثنى ، وعَمَدُها من الرخام الإيطالى الشهير ، ومقاصير قبورها تصنع فى « برمنجهام » ، وفرشها من البسط الأعجمية الوثيرة ، وثرياتها البكهربية من مصقول البلور الرائع . حتى ليثير المسجد فى أخيلة قصاد قبره ما صوَّره التاريخ من تهاويل لإيوان كسرى وبساطه ، ويبهر منهم النفوس والقلوب ، ويستبد منهم بالأحاسيس والمشاعر ،حتى لينسيهم بركات الميت الذى جاءوا يقيمون الصلاة من أجله ! ! ترى ماذا يقول انجليزى يجىء من « برمنجهام » أو إيطالى يقبل من (روما) حين يريان المسلمين يلثمون فى ذل الضراعة ما صنعته أيديهم ؟

أما مساجد الله !!فياطالمابَثَّ سوءَ خرابها بعضُ من لا يزال الحق آخذا بقلوبهم ، والإيمان بالله يسعد أرواحهم . ولكن ماذا تصنع وزارة الأوقاف ، ومساجد الله ليست لها أوقاف ؟ !

ولو أنك أبصرت فى يوم جمعة مسجد البدوى ـ مثلا ، وبخاصة أيام مولده الكبير ـ لراعك أن ترى مئات الآلاف من الناس ، وقد افترشوا الأرض حول عموده بثيابهم الزاهية ، تحت وهج الشمس المحرقة فى الصيف الملتهب ، منيبين إلى «البدوى» من كل فج عميق ، ليشهدوا مناسك لهم ـ لا عند المشعر الحرام ـ بل عند أعتاب البدوى «وعموده» الذى يدور حوله الأقطاب الأربعة المتصرفون فى الكون !! فلا يحسون من هجير الصيف أواراً ، ولا يخشون على الثياب البيض أن يدنسها تراب « المولد » ، ولا يستشعرون نصباً ، ولا لغوبا ، بل فرحاً روحياً غامراً يستخفهم إلى الدندنات والتطريب، والتراقص الداعر على مكاء الناى وحناته وخناثة المنشد ، وتصدية أكف الشيخ « المطمطم » !! فى حين يخشون أقل مما ذكرت لو كانوا يلبون فى بيت الله الحرام، ويرسلونها شناعات أن الشمس أحرقتهم

هنالك ! فواها للشيطان يحيل مفهوم الشيء إلى نقيضه فى عقول أترابه من البشر !! ترى هل الشمس التى تطلع على بيت الله الحرام ليست هى الشمس التي تشرق على حرم « العَطّاب » ؟ وهل « الميكروبات » تفرخ ـ كما يرجفون ـ على الحجر الأسود ، ولا تفرخ على حجر البدوى ، وأعتابه التى تلثمها وتلعقها آلاف الألسنة والشفاه ، وهل الأرض هناك فى البيت الحرام ـ يتأذون من خشونتها ـ ليست هى الأرض حول مساجد الأضرحة عَمَّقَتْها جباه الساجدين ، وقبلت ترابها الأفواه فى لهفات الشوق المشبوب ؟! وما أحدثك إلا عن واقع يشهده كل حس ، ويسمع به ويراه كل سمع وبصر ، وإن أبيت إلا مِراء ، فارقب يوم جمعة عند المشهد الزينبي فى الصيف المستعر ، وسترى ذلك المشهد وقد تكدست فيه أفواج الناس طَبَقاً عَنْ طَبَق ، وسُدَّتْ منافذُ الطرق إليه بكتل من أجساد البشر ، وماج ماحوله من رحابٍ بالجثث لا تُعْرَفُ رءوسُها من نعالهـا . والـكل بسَّام ضَحُوك مِمْراح مِطْراب ، فوَّارُ مشاعرِ السرور والنشوات ، لا يشكو أحدهم وقد الهاجرة ولا لوافح الوَمْد ، ولا يضج أحدهم بالنقد المتهكم الساخر لوزارة الأوقاف ، ولا بالشكاية إليها لأنها لم تظلل ماحول المشهد وقاية للناس من حر الصيف ، ولا يكترثون من تعداد من ماتوا من ضربات الشمس ، وضربات الفاحشة ، وضربات العُربدة فى « الموالد » وياما أكثر من تهلكهم هذه الضربات فى تلك الموالد !! ولـكن لا يرجف بهم أحد ، ولا يتهكم على الموالد ساخر !

هل من بطل ؟ : فهل من بطل يستحب الاستشهاد فى سبيل الله على الحياة ، فيعمل صادقا لجمع المسلمين على كلمة الله ، واعتصامهم بالـكتاب والسنة ، ويستحثهم على المضى قدما فى الدعوة إلى الله بدعوة الحق التى دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتكون كلمة الله هى العليا ، لا يقف فى سبيلهم إعصار ، ولا تلويهم عن الحق فتنة ، ولا يقعدهم عن الجهاد حب الجـاه والدنيا ، ولا يثير الخلاف بينهم التنازع حول من يكون هو حضرة الرئيس ؟! يجوبون صحراء

الحياة ربيعاً ، وشعابها نوراً ، وأوديتها هداية ، ويعتلون قمم الحياة عزة وكرامة ، ويحيلون ـ بالحكم الإسلامى ـ حرب العالم سلاماً ، وبؤسه نعيما ، وقلقه وخوفه أمناً وطمأنينة ، وشقاء الإنسانية سعادة . فوالله ماسعد الوجود ، ولا نعمت الحياة بمثل ماسعدا به أيام الحكم الإسلامى الرشيد . ذلك الحكم الذى يشمل عدله البشر جميعا ، إذ يفصل بين المسلم وغير المسلم بالقسطاس المستقيم ، والذى يأخذ لليهودى حقه الذى له عند المسلم . لطالما بسط الحكم الإسلامى عدالته ورحمته وحمايته الروحية والمادية لكل فرد عاش فى ظله . عاشت ـ فى ظله ـ الكنيسة تنعم بالأمن الرحيب ، وعاشت البيعة فى الوريف من السلام ، فلم يشكوا يوما ظلما ولا هضما ، وإذا كان الإسلام يوجب إجارة المشرك حتى يسمع كلام الله وإبلاغه مأمنه ، فماذا تنتظر بعد ذلك من عدالة سامية كريمة ؟!

وإذا كان قد جعل للكتابيين هذا الحق على المسلمين وحكامهم وأمرائهم (٦٠ : ٨ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين) ، فهل ترى براً وعدلا أسمى مما تهدى إليه هذه الآية وأكرم ؟

فمن ألقى السلام إلى الإسلام وأهله ، فهو فى بر الإسلام وعدله ، وإنا لنؤمن بالحق مع الحق أن الإنسانية المعذبة الحائرة لن تجد ماتصبو إليه ، وترجوه ـ أملا يحقق لها السعادة ـ إلا فى شريعة الإسلام وحكمه العادل الرحيم ، وإن جحد هذه الحقيقة عبيد الغرب وإلحاده ، فما يضير الحق أن تجحده مثل هذه الإمعات !

فريضة الجهاد

(٦١ : ١٠ ، ١١ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) (٩ : ٧٣ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم) (٤ : ٧٤ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون

الحياة الدنيا بالآخرة) (٨ : ٦٠ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) .

اجتبى الله هذه الأمة المحمدية ، ففضلها وشرفها بأكرم رسول ، وأعظم نبى هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبأكمل شرع ختمت به وتمت الشرائع الإلهية فى الوجود . ولهذا فرض عليها الجهاد لتكون كلمة الله دائما هى العليا . والجهاد هو استفراغ الوسع فى مدافعة العدو ، وهو كما يقول الراغب : « ثلاثة أضرب . مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس » وأجل أنواع الجهاد وأرفعها ، القتال فى سبيل الله . وبين الجهاد والقتال فرق دقيق ، فكل قتال جهاد وليس كل جهاد قتالا ، فالجهاد جنس ، والقتال نوع منه . فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جهاد ، وقول الحق فى وجه الباغى عليه جهاد ، والصبر الكريم على شهوات النفس جهاد ، وأداء حق الله فى المال والزوج والولد جهاد ، والسعى فى سبيل الرزق جهاد ، وأخذ الزوج والولد بأمر الله والتزام طاعته جهاد .

والمتتبع لموارد كلمتى « الجهاد والقتال » يجدهما مقترنتين بما يحدد الغاية منهما هى أن يكونا فى سبيل الله . وسبيل الله إيمان وحق وهدى وإحسان وخير وسلام ورحمة ومحبة ، فالقتال فى سبيل الله يحقق للإنسانية هذه الغايات العظمى ، والحياة الصالحة المثلى ، وينشر سلطان العدالة والمساواة بين أفراد البشرية جميعاً ، فهو لا يسفك دم البرىء ، ولا المسالم العاكف على نفسه ودينه — وإن كان على غير الحق — مادام لا يفسد على المسلمين عقائدهم ، أو يكيد لدولتهم . (١٧ : ٣٣ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) (٥:٣٢ من قتل نفسا بغير نفس ، أوفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً) والنفس هنا — فى إطلاقها وعمومها — تشمل كل نفس بشرية مسالمة أو غير مسالمة ، والإسلام يحث أهله على السلام مع من يسالمهم ، ويمقت العدوان ، ولا يدعو إلى القتال إلا حين يظلم دين الله ،

أو يعتدى على أهله (٢٢ : ٣٩ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) (٢ : ١٩١ فإن قاتلوكم فاقتلوهم) (٢ : ١٩٠ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا) وليست الغاية من القتال فى الإسلام استعمار دولة ، أو ضم ممالك ، أو دنيا تراد مغانمها ، بل الغاية منه (٨ : ٣٩ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) هذه هى الغاية الكبرى ، وتلك هى الحكمة الإلهية التى أبيح من أجلها — والله أعلم — الجهاد والقتال . يريد الله سبحانه أن يكون العالم الإنسانى أمة واحدة يحيون لله ، يقيمون أمره ، ويحكمون بعدله الذى شرعه . أمة يرعى الغنى فيها دنيا الفقير بالرحمة ، والقوى حال الضعيف بالرعاية ،ويسعى أعلاهم لأدناهم فى ساعةالعسرة ، فى صفاء الأخوة ، وصدق المحبة ، والحنو الودود من الرحمة ، تذكى مشاعره فى النفس محبة الله . وحسبك هدى هذه الآية (٥ . ٣٢ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) تفيد أن الجناية على الفرد جناية على الإنسانية كلها ، وأن الخير تمد أسبابه لفرد واحد يشمل البشرية جمعاء ، قتل فرد هوفى فتنته قتل لكل فرد ، وتيسير أسباب الحياة لفرد هوفى حقيقته إمداد لكل فرد بالحياة . هذا بعض ما فى شرعة الإسلام من الهدى والدعوة إلى المؤاخاة والمساواة والتضامن .

وفريضة الجهاد فى سبيل الله باقية ما بقى هذا الوجود ، واجبة مادام فى الكون مسلم يعبدالله ، ويدلك على هذا ماذكرتك به من آيات الله ، وما أذكرك به من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام « من مات ولم يغز ، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق » « مسلم » « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » « أبو داود والنسائى » « من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفى إيمانه ثلمة» «أخرجه الجماعة إلاالموطأ ». ويوجب الله على الدولة الإسلامية أن تعد دائما ما استطاعت من قوة وعدة وعتاد ،حتى يظل عدو الله

يرهبها و يخشاها ، فلا يحاول الانتقاص من أطرافها ، أو إفساد أهليها عليها ، وعلى دينهم الحق . ويوجب على كل مسلم أن ينفر للقتال – إذا ما أُذِّن له – بنفسه وماله (٩ : ٤١ انفروا خِفافا وثِقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) ولا يقبل الله من مسلم جهاداً ، أو قتالا إلا حين تكون الغاية منهما إعلاء كلمة الله فمن قاتل شجاعة ، أو حمية لجنس أو وطن فهو ليس فى سبيل الله . عن أبى موسى الأشعرى: «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل رياء : أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا » « الصحيحان . الترمذى » . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكرَ . ما لَهُ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شىء له . فأعادها ثلاث مِرارٍ ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شىء له ، ثم قال : إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا ، وابتُغِىَ به وجهه » النسائى .. فأين دعاة الوطنية المنافقون ودينهم هواء ؟ ! أين المنادون بالذياد والكفاح والجهاد ، وهم فى حاجة إلى من يجاهدهم ويكافحهم ، ويعلمهم كيف يؤمنون بالله قبل كل شىء . أصلح دينك يصلح لك كل شىء ووطنك ، حطم عنك بالحق أغلال التقليد ، وأطلق نفسك من إسار الوثنية ، واصدق فى المتابعة للكتاب والسنة ، ومنهما ستتعلم كيف تجاهد وتقاتل و يعيش وطنك حراً مستقلا ، ووطنك أيها المسلم هو العالم كله ، فهل يفهم المسلمون ؟ .

ويوجب الله على كل مقاتل الثبات ، و يحذره من الفرار ، فإذا أبى إلا فرارا فمأواه جهنم ، ومآبه غضب الله (٨ : ٤٥ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) (٨:١٥،١٦ ، يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ،

ومأواه جهنم ، و بئس المصير) فإذا ما فعل المسلمون ذلك فالله معهم بنصره وعونه وجنوده (٤٧ : ٧ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

هجر المسلمين لفريضة الجهاد : منذ هجر المسلمون هـذه الفريضة هجرهم الإيمان، وضاعت أمجادهم وديست أقداسهم، كانوا أمس يفتحون قلوبا ؛ ليعمرها الإيمان ، وممالك ، ليقام فيها أمر الله ، ولينقذوا عباد الله مسلمين وغير مسلمين من الجور والطغيان . . واليوم يفتح عدو الله قلوبهم ليحتلها الـكفر ، ونفوسهم لتستعمرها الوثنية، وممالـكهم ليبطش بها الإلحاد والغى . استناموا للدعة والرفهنية، فنامت عليهم فواجع الحياة ومآسيها ، وتواكلوا ، فتوكل عليهم عدو الإسلام ، ليكونوا عبيد إثمه و بغيه !! ورثوا كتاب الله ، فـكفروا به ، وسنة هادية ، فبغوا عليها بالبدع ، ودينا قويما ، فحسبوه دَيْنا ثقيلا ومَغْرَما أثيما ، ورثوا مجداً — ما أشرقت فى الوجود مثل شمسه — فسُلِبوه ، فلم يبق لهم إلا ذكريات يُجَلِّلُونَ دنياهم — من أجلها — بالحداد ، وأطيافٌ تَرِفُّ عليهم من الماضى ، فيذرفون لها الدموع . أيامهم مناحات ، ولياليهم مآتم ، وأمجادهم فى لحودها هامدة !! هذا كل ما بقى للمسلمين ، وهذا هو كل ما يجاهد به المسلمون اليوم فى سبيل الله !

والآن ؟ : والآن يشكو كل قطر إسلامى وطأة المستعمر، وقد تداعى المسلمون فى كل بلد إلى حربه وجلاده ، وعلت من الإيمان الصادق أصوات تنادى بالرجوع إلى الـكتاب والسنة ، فالواجب على كل مسلم أن ينفر للجهاد فى سبيل الله بنفسه وماله وولده ، أن يجاهد نفسه وشهواته وأولئك الذين يفسدون على المسلمين عقائدهم وأخلاقهم ممن يتسمون بأسماء المسلمين ، أن يجاهد كل بدعة فى الدين ، وكل دعوة منكرة تنــادى بفصل الدين عن الحـكم وشئون الحياة ، وأعلنوها أيها المسلمون حرباً على المستعمرين فى كل قطر إسلامى باسم الله ، ولينظر المصريون وإخوانهم المسلمون فى كل قطر إلى كل مستعمر على أنه عدو الله ورسوله —

لاعدو الوطن فحسب — سواء أكان المستعمر إنجليزياً أم أمريكياً أم فرنسياً أم إيطالياً أم هولانديا أم شيوعياً أم مسلماً فسق عن دينه ، ومشى خلف أولئك عبداً ذليلا ، فهو بهذا قد هدر دمه ، وأباحه لمدفع المسلم ؛ فكل أولئك سواء فى حرب الله ، ولنقاتل هـذا العدو بروح المسلم وعزيمته الصابرة التى تستجب الموت على الحياة ، لا بروح المصرى أو العراقى أو الباكستانى — أو غير ذلك من النسب — فما ثم فى الدين إلا إسم واحد للجميع هو « المسلمون » وليكن جهادنا لعدونا الباطنى والظاهرى باسم الله ، وفى سبيل الله ، وابتغاء الذياد عن دينه ، لا باسم الضمير ـ كما يراءون ـ ولا ابتغاء الحرية ، أو الاستقلال ، والذياد عن الوطن ـ فحسب ـ فالجهاد فى سبيل الله يحقق للمسلمين ـ بل للعالم الإنسانى كله ـ ما هو أجل وأسمى من كل هذه الغايات التى هى بعض مايحققه الجهاد فى سبيل الله ، فأعلنوها حرباً على كل منكر ومستعمر ، حرباً يثق فيها الشهيد أن له وراء شهادته الجنة ـ لا النُّصُب ، أو تمثال الجندى المجهول (٤ : ٧٤ ومن يقاتل فى سبيل الله ، فيُقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجراً عظيما)

وتدبروا هذه الآيات (٤ : ٧٦ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (٦١ : ٤ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) (٥٨ : ٢٢ لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم) (٢ : ١٠٥ مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ، ولا المشركين أن يُنَزَّل عليكم من خير من ربكم) فهل يفهم هذه الآية بعض من لايزالون يحسنون الظن ببعض المستعمرين ؟

لقد حالف الاستعمار الغربى الصهيونية ابتغاء القضاء على الإسلام ، فماذا أيها المسلمون تنتظرون ؟ !

خاتمـــــة

لعل فيما كتبته ماتضيق به بعض الصدور ، وما يراه بعض النـاس عدواناً ظالماً على مقدساتهم الروحية ،وعلى ذلك التراث الوثنى الذى ورثوه من الجاهلية ، وهم يحسبونه أقدس تراث روحى تقوّم به الحياة ، وتشرق منه القيم العليا للحقائق الربانية ! ! غير أنى لهؤلاء جميعاً أقول : والله ـ العليم بالسرائر ـ ماغير الخير أردت ، ولا غير الانتصار لدعوة الحق ابتغيت ، فناشدتكم الله الذى توقنون أنكم به مؤمنون ـ إلا ماتلوتم كتابه ، أحرار الفكر من إسار التقليد ، متدبرين معانيه فى يقظة روحية بصيرة، وناشدتكم الله إلا ماتفهمتم ـ مخلصين ـ بعض ماتواتر صدقه ويقينه عن رسول الله الذى توقنون أنكم تحبونه، وتفتدونه صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إن فعلتم: فاض الحق فى نفوسكم هدى ونوراً مبينا ، ووالله مانتعصب لقول نقوله ، بل للحق تشرق أنواره من الكتاب والسنة

إلى المسلمين جميعاً : لاترى مسلماً إلا وهو يردد الشهادتين فى غدا ياه وعشاياه، ومامنا إلا من يقول : « آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » موقناً أنه فى دينه متبع للكتاب والسنة ! ! غير أن الحياة الواقعية للمسلمين ، ومكان شعوبهم ودولهم من هذا الوجود يشهد عليهم بغير ذلك كله . فأنت ترى الشعوب الإسلامية ترسف فى الأغلال ، يكبلها قيد الظلم من عدو الله ، وتسام الخسف ، وتُجَرَّع المذلة والهوان ، تنام على الجور الظلوم ، وتصحو على البغى القاتل !! فى حين يتفيأ سواهم وريف الظلال من المجد ، مركزاً أعلامه فوق قمم الحياة ! ! حتى اليهود خصيم الله وعدوه !! حتى الصهيونية الداعرة !!

ألا ترى الدول الكبيرة تسعى إليها بالعون عند النُّوَب ، وتَتَرضَّى رضاها عند الغضب ، وتتزلف إليها بالمودة ، وتجالد دون حماها ؟ ! . فى حين لا ترضى

هذه الدول لمصر أن تشكو ـ حتى وطأة الجور ، ولا أن تئن من البغى ، وكيف ـ وهى التى وضعت هنا للشرق الإسلامى سُلَّ الصهيونية، ورمدها فى رئته و بصره ؟! هذا مكان المسلمين ، ومكان اليهود ؟ ! لقد آمن هؤلاء بأنهم شعب الله المختار !! فمضوا يعملون و يناضلون مُسْتَلْئِمِينَ فى النضال والجلاد ـ لكى يؤمن العالم كله بهذه الأسطورة ! ! ونحن المسلمين يؤمن الكبار منا والأحبار أن الإسلام دين رجعية وجمود !! فاستكانوا بهذا للغرب فى إلحاده وفجوره ، فَأَنَّى يمد الله المسلمين بالعزة ، وهم يحكمون فى دينهم ودنياهم بغير ما أنزل الله ، ويرون الحكم بالإسلام وحشية ورجعية ! ! .

نحن المسلمين على جبالنا جلجل الوحى بالقرآن ، وعلى ربانا تَأَلَّقَتْ أَنوار النبوات ، وعلى بطاحنا الرِّحاب الفِساح فاضت أنوار الهدى من السماء ، ومنا خاتم النبيين زُيِّنت له السماء إذ كان يحدو سراه فى أقداسها جبريل ! ! ونحن المسلمين اعتصمت جماعتنا الأولى بحبل الله ، فهزموا قوى الشر فى مكة بصبر الإيمان ، و يقين التوحيد ، واستذلوا جبابرة الطغيان فى بدر وهم قلة : واذكروا إذ حشد الشرك صناديده ، والكفر شياطينه حول المدينة يريدان هدم ما بنى الله سبحانه ، وإذ زاغت الأبصار ، و بلغت القلوب الحناجر ! ! وإذ كان الشيطان يخب يومئذ فى الفتنة و يضع ، فَيُؤَجِّجُهَا نارا تَلَظَّى ، فينقض يهود بنى قريظة العهد ، ويخون المنافقون الرسول وأصحابه ، فينصرف منهم من ينصرف ، ويوهن العزائم منهم من يميته الهول والفزع . كان ثَمَّ فريقان : أحدهما قليل العدد ضعيف العدة ، ولكنه باع لله نفسه بيع السماح ، واعتدَّ بالقوة الروحية التى لا تُغْلَب ولا تُقْهَرَ ، قوة الإيمان المجاهد فى سبيل الله ، الصابر الواثق بنصر الله . . وفريق تكاد تفزع الجبال من خطوه الجبار ، وتُدَوِّى الفيافى بِضَبْح خيله ، ورغاء إبله ، وتزدهيه كثرته الكاثرة ، ويلهبه الحقد والثأر المِلحَاح حمية مجنونة

على الإسلام ورسوله . فانظروا أيها المسلمون ماذا فعل الله للإيمان أقبل بنفوسه يترصد الموت فى سبيل الله (٣٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب . فريقاً تقتلون ، وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها ، وكان الله على كل شىء قديرا) ! !

أما اليوم ! ! لقد ورثت الصهيونية سلالة بنى قريظة فى فلسطين أرضكم وديارکم وأموالكم أيها المسلمون ، وورث الاستعمار فى كل دولة إسلامية أرضها وحكمها وأعِنَّتِها يسيمها أنَّى شاء حَسَك الذل والهوان ! !

أيها المسلمون : كان من أيام الله لكم ذلك اليوم « يوم الأحزاب » ، وفيه بالإيمان المجاهد انتصرتم ، و بالله ـ رغم قلتكم ـ سدتم ، ومن أيام الله لكم بدر وأحد وحنين وفتح مكة . فما اعتصمتم بالله ، ولذتم بالتوكل عليه ، وأعددتم للقتال العدة .. مافعلتم ذلك إلا كان لكم النصر يلاحقه النصر ، وما خالفتم قليلا عن أمر الله ورسوله ، وشاغفكم حب الدنيا إلا تجرعتم صاب الهزيمة ، ولم تغن عنكم كثرتكم شيئا (٨ : ٢٦ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون)

أيها المسلمون : ها هم بنو الصحراء ـ الذين كانوا يخافون أن يتخطفهم الناس ـ يندفعون من بطاح مكة ، وشعاب يثرب ـ وقد جعل منهم الإسلام قوة تعتصم بالعزيز القهار القوى ، وأبطالا يقيمون العدل ، ويبطشون بالظلم ، وينشرون النور والرحمة والسلام باسم الله ، فماذا صنعوا ؟

أما ترى إيوان كسرى يتجاوب فيه من ذِكْر بنى الصحراء «الله أكبر» ؟ !

وبيت المقدس يسعى بمفتاحه الملأ من الروم صاغرين إلى عمر بثوبه الخلَق ؟ ثَلوا عروش الطغاة من الأكاسرة ، ودكوا ممالك البغاة من القياصرة ، واستنقذوا عباد الله من طغيان الجبابرة ، ومضوا أبطال جهاد ـ فى قوة يمدها الله من قوته ـ يطوون الجبال والوهاد والبحار ، حتى دان الشرق والغرب لحكم الله .

أما ترى الفارس المغوار عقبة بن نافع الفهرى يدفع بجواده الضابح إلى المحيط الأطلسى ، ويرسلها صيحة مدوية مؤمنة ، سكنت لها لجج المحيط ، وتفزعت شواطئه السحيقة الآماد : « لو أعلم وراء هذا أرضا لسرت غازيا فى سبيل الله » . فيامن يرسل مثل هذه الصيحة !! وسلوا عتاة الغرب من ملوك الصليبيين ـ إن كنتم نسيتم ـ عن سيوف المسلمين، وعزائمهم تقتحم أتون الحرب وتجلى غمتها ، وتسكن حومتها ، سلوهم عن الرفق والعدل والنبل والسماحة فى الظفر الذى هللت له الأحقاب !! وسلوا التتر الذين اجتاحت جحافلهم الشرق ، وكادت تميد من جبروتهم عمد الأرض . سلوهم عن كفاح الإسلام وجلاده وصبره وانتصاره ، وكيف دحرهم ، وجرعهم الهزائم النكراء !! .

ألا يدعوكم هذا أيها المسلمون إلى التدبر والتأمل ؟ ! ألا يدعوكم إلى اكتناه الأسباب التى بها اعتز أسلافكم ، وسادوا بالحق العالم كله ، والأسباب التى بها هزمتم وانزويتم صاغرين تحت بطش الصليبية الغربية، ودعارة الصهيونية ؟ وليس ماأنتم فيه من خصائص الإسلام وآثاره فى أهله ، فما الإسلام إلا عزة وقوة وكرامة وسمو تلمع النجوم تحت آفاقه ؛ ألا فاقرأوا ؛ لتهتدوا إلى الداء والدواء (٦٣ : ٨ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (٣٧ : ١٧٣ وإن جندنا لهم الغالبون) (٥ : ٥٦ ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون) فلماذا أنتم اليوم بالذل مقهورون ؟ سأجيب ـ وإن كان فى الجواب حسرة وغصة ومرارة وعلقم : لأن المسلمين اليوم ليسوا جند الله ، ولا حزب الله ، ولا يتولون الله ورسوله

والذين آمنوا !! (٤٨ : ١٦ قل للمخلفين من الأعراب: ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يُسْلِمون ، فإن تطيعوا : يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) .

فرارا إلى الله أيها المسلمون ، واعتصاما بحبله المتين ، وأقيموا فيما بينكم حكم الله ، وانبذوا من يسول لكم فصل الدين عن الحكم والحياة ، فقد جعل أسلافكم شريعة الله منارهم الهادى فى الحياة ومشارع الحق والعدل فيما يحكمون به بين الناس ، فوطدوا بذلك السلطان لكلمة الله فى العالم كله ، فى توحيد صادق لا تلمسه خرافة فلسفة ، ولا أسطورة تصوف ، ولا شُبَهٌ من شكوك « الكلام » ، وفى إيمان قوى لا تستزله فتون الجاه ، ولا يفتنه الشيطان ، وفى اتباع صادق للكتاب والسنة لا تضله عصبية مذهبية حمقاء .

ولئن فعلتم ذلك أيها المسلمون ، فوالله لينصرنكم الله ، وليكونَنَّ معكم ، وليجعلن العالم كله وطنا لكم ، وليدكن على المستعمرين حصونهم ، فإنه القوى الذى بقوته أمَدّ أسلافكم ، وكما مَنَّ عليهم بالنصر يمن عليكم إن كنتم مؤمنين (٩ : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدورقوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ، أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ، ولا رسوله ، ولا المؤمنين وليجة [1] والله خبير بما تعملون)

---

(١) الوليجة كل ما يتخذه الإنسان معتمدا عليه وليس من أهله ـ من قولهم فلان وليجة فى القوم إذا لحق بهم وليس منهم ـ إنسانا كان أو غيره !! وكم من وليجة يتخذها المسلمون اليوم ؟! أولياء يعبدونهم هم وقبورهم من دون الله ، كتب فقه ـ كما يسمون ـ يقتدون حتى بأخطائها المطبعية فيما يعبدون به الله ، وقوانين غربية الظلم يحكمون بها بين المسلمين !؟ وغير ذلك كثير فما لم ينته كل مسلم عن ذلك ، فلن ينهى عنا عذاب الله وانتقامه .

تدبروا من آيات الله هذه الآية ، ثم تدبروا (٢٢ : ٤٠ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز)

اللهم أنت عضدى ، وأنت نصيرى . بك أصول ، و بك أقاتل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم (٣٩ : ١٧، ١٨ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ، فبشر عباد الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب) .

عبد الرحمن الوكيل

وكيل جماعة أنصار السنة المحمدية

obeikandl.com

شكر وثناء

يسعد النفس أن تتاح لها فرصة الثناء على الجميل ، ولقد كان لى من الأخ الكريم المؤمن الدكتور أمين رضا بك خير العون وأبره فى شأن هذا الكتاب ، فهو الذى استحثنا على طبعه وقدم لى هو والسيدة الجليلة والدته حرم الرجل العظيم الدكتور محمد بك رضا ماشجعنى على طبعه ، فهل يتقبل الأخ الكريم — وهو فى نبل تواضعه ، وجمال مروءته ، وسماحة أريحيته — جزيل الشكر والثناء من أخيه ؟ لأن تفضل بذلك أضاف إلى كريم فضله فضلاً نبيلاً جميلاً . أما السيدة الجليلة المؤمنة المجاهدة الإسلامية العظيمة والدة الدكتور ، فقد أبى فضلها الكبير إلا أن يعجزنى عن شكره ، فإلى السيدة الأديبة الكبيرة ، والكاتبة الإسلامية الملهمة ، التى تمثل فيها سمو الإيمان والخلق ، والنضال فى سبيل عودة المرأة الإسلامية إلى سيرة سلفنا الصالح . إليها أرفع خالص الشكر ، وصادق الثناء .

ويسعدنى أن أسجل كذلك على صفحات هذا الكتاب جزيل شكرى الخالص إلى السيدة الجليلة حرم الدكتور محمد عبد الحى بك زينب هانم جبارة رئيسة جماعة السيدات المسلمات ، تلك السيدة التى وجد فيها اليتم من يؤويه ، والخير من يفعله وينشره ويدعو إليه ، والتى سعدت برئاستها تلك الجماعة التى تسامت فى سعيها للخير عن الدجل باسم الخير ، بل أنفقت مالها وجهدها خالصاً صافياً لله رب العالمين .

أما الإخوة البررة الأعزة الأوفياء المؤمنون آل شريبة ، وهم صاحب العزة إبراهيم بك شريبة ، وأخواه الكريمان الحاج حسنى ، والحاج زكى ، فلهم فضل سابغ كريم على الكتاب ، فإليهم أخلص الشكر ، ولهم منى ماحييت صادق الدعاء .

ومسك الختام للشكر أرفعه إلى أستاذى العلامة الكبير فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد حامد الفقى ، فقد أسبغ على الكتاب وصاحبه من التشجيع الكريم ما أسأل الله به سبحانه أن يجزى أستاذى الكبير عنه أجمل الجزاء ، بما ذلل لى من عقبات فى سبيل نشر الكتاب ، وما غمرنى به من ود الأبوة الصادقة ، وإلى إخوانى البررة فى السودان والأقطار الإسلامية أولئك الذين شجعونى بالاشتراك فى الكتاب قبل طبعه ، وإلى أهلى وعشيرتى أنصار السنة خالص شكرى ، وصادق دعائى .

مطبعة السنة المحمدية

ماإن قدمت الكتاب إلى هذه المطبعة حتى بادر رجالها العاملون — بما عرف فيهم من همة ونشاط وجدوخبرة فنية دقيقة عالية مديراً وعمالاً — إلى العمل فيه . وعلى طول صفحات الكتاب ، والدقة والأناة فى تصحيح تجاربه استطاعت أن تنتهى منه فى زمن يعتبر قياسيا مثالياً . فشكراً خالصاً للأخ الكريم مديرها الفاضل الحازم ، ورجالها المهرة الأذكياء جميعاً . ونسأل الله لهم التوفيق دائماً كما وفقهم فى نشر هذه الكنوز الغالية من المعارف الإسلاميه خدمة لدين الله ، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلكم نشرت من كتب قيمة لم تر النور إلا عن طريق هذه المطبعة ، وأحيى عمالها جميعاً فى شخص الأخ عبد الله غنيم .

فهرست لأهم موضوعات الكتاب

٣ مقدمة الكتاب
٦ التوحيد ، توحيد الصفات
١١ مذهب السلف فى الصفات
١٣ « أبى الحسن الأشعرى
١٤ « أبى المعالى الجوينى
١٥ « الغزالى
١٧ واجب المؤمن فى توحيد الصفات
٢١ ضلال التأويل وفساده
٢٥ تأويل « استوى » ، « استولى »
٣٠ الإله وصفاته عند الصوفية
٣٦ إله الصوفية يجمع بين النقيضين
٣٧ الإله وصفاته عند الفلسفة
٤٠ صفات الإله فى علم الكلام
٤١ تهكم الغزالى على علم الكلام
٤٢ اضطراب الفلسفة والكلام
٤٥ توحيد العبادة
٤٩ الدعاء هو العبادة
٥٤ دعاء غير الله شرك
٥٥ عبادة الأولياء
٥٧ وصف المشركين باتخاذ آلهة وشركاء
٦٠ الأصنام وسبب إقامتها وعبادتها
٦٤ الغاية من عبادة الأولياء
٦٧ بين المشركين وشفعائهم
٦٨ شبهة مشركة فى الدفاع عن الشرك
٧٢ عقيدة مشركى الجاهلية
٧٤ إخلاص المشرك الدعاء فى الشدة
٧٦ أصل العقيدة الإنسانية
٨٠ النذور والقربات
٨٦ الحلف
٨٩ من مظاهر الشرك
٨٩ الإفتاء بغير الكتاب والسنة
٩٠ أخذ الدين من الأحبار والرهبان
٩١ التنجيم وادعاء معرفة الغيب
٩٤ السحر
٩٦ الزار
٩٧ الرقى والتمائم « الأحجبة »
١٠٠ دعوتنا
١٠١ بماذا ينتصر المسلمون
١٠٣ الجهاد الأول
١٠٧ كيف تتحد الجماعات الدينية
١٠٧ السياسة وأثرها
١١٢ كمال الشريعة وسموها
١١٦ الفرق بين الشريعة والقانون
١٢٠ وسائل التوحيد

openkanal.com

١٢١ الوسيلة الأولى: طاعة الله ورسوله
١٢٣ الوسيلة الثانية : تقوى الله
١٢٤ واجب الآمر بالتقوى وجزاؤها
١٢٨ الثالثة : اتباع الكتاب والسنة
١٣٠ النهى عن اتباع غير الكتاب والسنة
١٣٣ نص القرآن على وجوب اتباع السنة
١٣٤ مناقشة مع المذهبيين
١٣٨ حث الأئمة على اتباع السنة
١٤٠ حث الرسول على اتباع السنة
١٤٠ جزاء اتباع الكتاب والسنة
١٤١ حب الله وسبيله
١٤٤ الوسيلة الرابعة : الاحتكام إلى الكتاب والسنة
١٤٦ الموجبون للتقليد
١٤٧ ماذا يقرأ الأحبار والكهان ؟
١٤٩ المختلفون دائماً فى الكتاب
١٥١ جزاء المختلفين فى كتاب الله
١٥٢ اتباع سنن اليهود والنصارى
١٥٣ افتتان الناس بعلمائهم
١٥٤ الفتنة بالأكثرية
١٥٦ الوسيلة الخامسة : الحكم بالكتاب والسنة
١٥٦ حق الحاكم على المحكوم
١٥٧ حق المحكوم على الحاكم
١٥٨ الواجب على الحاكم
١٥٩ معنى هيمنة القرآن
١٦٠ وجوب الرقابة على الكتب الدينية
١٦١ الحرية بين التقييد والإطلاق
١٦٦ العدالة فى الإسلام فوق كل عدالة
١٦٧ محاولة التوفيق بين الشريعة وقانون الغرب
١٧٠ الوزارة
١٧١ الوسيلة السادسة : الرضى بحكم الله
١٧٤ فتنة القبور
١٧٤ ما أذن الله فيه من القبور
١٧٦ مساجد القبور وقبابها
١٧٧ درويش انجليزى صوفى
١٧٧ جود على الأصنام و بخل على الأيتام
١٧٨ هدى السنة فى زيارة القبور
١٧٩ حكمة زيارة القبور وآدابها
١٨١ تحريم بناء المساجد على القبور
١٨٣ تحريم اتخاذ القبور مساجد
١٨٤ مسجد أهل الكهف
١٨٨ مساجد الله ومساجد الطاغوت
١٩٢ فريضة الجهاد والغاية منها
١٩٦ هجر المسلمين لفريضة الجهاد
١٩٨ نداء إلى المسلمين جميعاً

obeikandl.com

صواب الخطأ المهم

ص	س	خطأ	صواب
٨	١٢	ينظروا	ينظروا إلى ربهم عز وجل
١٩	٥	الحق مما	الحق
١٩	٦	وصف الله	مما وصف الله
٣٨	٩	المتوتر	المتوتر صورة أبلغ فى الدلالة عليه
٧٦	١٢	ترقى العلوم	ترقى فى العلوم
٧٧	١٩	أعرض	أعرضه
٨٣	١٩	الملحية	المليحة
١٠٢	١٦	يمعلك	يعلك
١٠٥	٤	وينهى	وينه
١٠٩	٢٠	فيستحق	فسيتحقق
١١٠	٢١	بالحوار	بالجور
١١٣	٢	صالح	صالح » رواه
١١٣	٣	الكبر	« أى الكبر » (١)
١١٣	٧،٦	ـ أى أنوفها ـ	« أى أنوفها » (٢)
١١٣	١٧	ـ أى على قدر الشفة	« أى على قدر الشفة » (٣)
١١٩	١٨	قبلكم	قبلكم
١٢٥	٧	ـ أى تردونه إلى الحق ـ	« أى تردونه إلى الحق » (٤)
١٣٣	٣	أنسا ما	أنسا ما
١٣٣	٢٠	تحكون	تحكمون
١٤٠	٢٠	اتبع	تبع
١٦٥	١٨	صديقهم	صديقهم
١٦٧	١٠	باللاطل	بالباطل
١٩٢	٣	منا	أمنا

(١، ٢، ٣، ٤) هذه الألفاظ ليست من الأحاديث التى وردت فيها بل شرح من المؤلف للكلمات التى قبلها .

obeikandl.com